الانطباعات التالية

يطالع القراء في قسم البحوث الاجتماعية من هذا العدد ، مقالاً مترجماً للجامعي الانكليزي ، شارلز سنو Snow - في موضوع الحضارتين العلمية والأدبية ، وما بينهما من سوء تفاهم أو فهم ، ودعوى كل منهما في رجحان حضارته ، وتفوق تفكيره ، وصواب مذهبه . ويبدو أن الاختلاف بين مدرستين أو أكثر من مدارس التفكير والشعور ، قضية قديمة من قضايا الانسان ، الذي ماينفك يتطور ، ويتنازع التفوق مع أخيه الانسان ، في طريق التطور ، حتى يبلغ المرحلة التي يظن عندها أنه قد تفوق وحقق نصراً ، وليس ما حققه بالفعل ، وفي نهاية المطاف ، سوى ما تحقق به ، متأثراً ومؤثراً ، فاعلاً ومنفعلاً ، غالباً ومغلوباً معـاً . وسواء بعد ، أأحس بذلك واستسلم ، أم تمنع على الواقـــع واستكبر . ويبدو أن مكاسب كبرى حققها الانسان في ميادين هذا التنازع والتجاذب ،

حتى ليمكن القول بان مكاسب التقدم قد تمت في حركة التنازع ، اكثر مما تمت في حركة الانسجام والتلاقي . وعلى هذا فليست الحضارة الأدبية ، مجردة عن العلم ، ولا الحضارة العلمية مجردة عن الأدب ، مهما توزع العلماء والأدباء في فرق لاعبة بالخصومات .

أوردنا هذه التوطئة ،مع نشر مقال «الحضارتان» في هذا العدد لنصل الى القول السريع بأننا في تجربتنا الصغيرة هذه ، على صفحات ـ المعرفة ـ ، نمر كذلك ، بنماذج شتى من هذه الأمزجة المتضاربة ، يطالبنا بعضها باغناء القسم الأدبي، بالقصائد لا بقصيدة واحدة وبالقصص لا بقصة واحدة ، وبالبحوث الأدبية المشوقة ، على انها جميعها سبيل النجاح والرواج والالتقاء مع العدد الاكبر... بينما تطالبنا أمزجة أخرى ، على نقيضها ، بالغاء القسم الأدبي ، لأنه عبث وهو ودون مستوى «المجلات الراقية» ... وتطالب بالتوسع في البحوث الاجتماعية ، والفلسفية والعلمية ، لتساعد أصحابها في ما يداولون من رأي ، وفي ما يرسلون في الكون ، والطبيعة ، والحياة ،والتاريخ من تأمل ، على هدي العلماء والفلاسفة ، والمفكرين . بل قد نرى أنفسنا في موضع المفاجأة ، ونحن نطالع رسائل بعض الطلاب الجامعيين ، ومن هم دونهم في المعاهد الثانوية ، يلحون على اغناء البحوث الاجتماعية، بمذاهب الفلاسفة ، وسير حياتهم ، وتطور افكارهم ، لانها من أمتع المطالعات . بالاضافة الى آراء نفر من الاصدقاء

وكرام المثقفين ، في أنه يتحتم علينا في مرحلة تكويننا الحاضرة أن ننهل من الترجمات عن مشاهير المفكرين بقسط كبير ، بل قد يصح ان نعدل عن التأليف الى الترجمة ، في مختلف ميادين العلم والادب والفن .

وبهذا كله ، وأمام العشرات من رسائل القراء ، وملاحظات الاصدقاء ، نكاد نثبت على النهج الذي بدأنا به مرحلة الانطلاق ، في تقسيم المجلة الى ابواب ، واعطاء البحث الفكري والاجتماعي حقه من العناية ، موضوعاً أو منقولاً ، لانه ، وان لم يكن موضوع العدد الاكبر.. فانه الموضوع الكبير حقاً .

يذكرنا هذا الاقبال المفاجىء على المادة الذهنية ما رواه كاتب فرنسي ، عن ندوة فلسفية ، عقدت في قاعة « المتواليتيه » في باريس منذ بضع شهور ، حول موضـــوع الفروق الدقيقة والعميقة بين الوجودية والماركسية ، وهو أبعد المواضيع عن الجمهور ، وألصقها بخاصة الخاصة من الفلاسفة ، أمثال سارتر وبقية زملائه ، الذين وقفوا يحاضرون في شؤون شبه لاهوتية ، ساعات من الزمن ؛ وفي القاعة وحولها جمهور أربى عدده على ستة الاف نساء ورجالاً ! يقول الكاتب الراوية أن ستة آلاف مستمع في قاعة (المتواليتيه) مع أدق دقائق الفلسفة ، حدث كبير من احداث العصر . ولعل الانسان الهائم في متاهات العالم الجديد ، المنقلب على قلق وأرق من حاضره ومستقبله ، يسير وراء خطى الفلاسفة بكل

لهفة وشوق لتجيبه الفلسفة عن أسئلة شتى ، تضطرب في نفسه ؛ وتعذب فكره وضميره : ما هي الحياة ... ما هو المستقبل ... ! أين كنت . وماذا فعلت . وماذا سأكون ، وماذا يجب ان أفعل ؟!

* * *

... وبينا نحن نشير في هذا العدد ، إلى مضامين رائعة ، من الادب والفن والبحث ، لابد من القول أننا القينا كلمتنا في هذا المدخل لنشير الى أن مصادفة جميلة قد جمعت لنا في قسم العلوم الاجتماعية من عددنا الرابع ، اربعة مواضيع ، كلها في أدب التنازع : الأدب الذي يدور في المشادة ، ويقدح الشرر ، ويولد النور ، ويهدي الى الحق ، ويجلو مفاهيم القيم :

بين الفلسفة والعلم

بين الادب والعلم

بين الاخلاق والسياسة

بين الفكر والسياسة

فالى هذه المائدة ندعو اصدقاء المعرفة .

رئيس التحرير

الحقيقة..
بين العلم والفلسفة

للدكتور: كامل عياد

انا نعيش في عصر العلم، وقد اصبح العلم في زماننا أكبر قوة توجه العالم. وعلى الرغم من أن العلم بالمعنى الحديث والصحيح لم يبدأ الا منذ حوالي ثلاثمائة سنة فقد قطع في هذه المدة القصيرة نسبياً ، أشواطاً بعيدة في طريق التقدم وتوصل الى كثير من الاكتشافات والاختراعات التي لم يكن احد ليحلم بها من قبل . وبعد ان سيطر العلم أخيراً على الطاقة الذرية وانتقل الى الفضاء بات من الصعب علينا ان نتصور الامكانيات غير المتناهية التي تنتظرنا في المستقبل القريب .

ولكن بينما أخذ عامة الناس يعتمدون على العلم في جميع الامور ويؤمنون بمبادئه ويثقون بنتائجه نلاحظ بكثير من الدهشة ، ان عدداً كبيراً من المثقفين ورجال

الفكر ينتقدونه ويهاجمونه . فبعضهم يتهم العلم بأنه يجهز الانسان بأفظع وسائل الفتك والتدمير . ويشكو آخرون من أن انتشار العلم لم يؤد الى اصلاح الاخلاق وازالة الفساد . ويدعي غيرهم بأن العلم ، رغم تقدمه ، قد عجز عن حل المشاكل التي مازال الناس منذ القديم يتطلعون الى معرفتها مثل أصل الكون ونهايته وطبيعة المادة ومنشأ الحياة وخلود الروح .

يرى هؤلاء جميعاً ان المعرفة العلمية لاتتعدى الظواهر الخارجية الخداعة والحوادث الجزئية المتقلبة . وأنها لذلك قاصرة عن ادراك الحقيقة ، وهم يعتقدون أن الفلسفة وحدها هي التي تستطيع الكشف عن الحقيقة المطلقة ، الأبدية .

فهل نتوصل الى الحقيقة عن طريق العلم ام الفلسفة ؟

كان افلاطون يقول : « الفلسفة هي العلم بالحقائق المطلقة المستترة وراء ظواهر الاشياء . » . وعرف آرسطو الفلسفة بأنها « العلم بالاسباب القصوى أو هي علم الموجود بما هو موجود » ويتفق معه ابن سينا اذ يجعل موضوع الفلسفة « البحث في الموجود المطلق » .

وكان المفكرون القدماء يعتبرون الفلسفة أرقى من المعرفة العلمية ويدعون أنها تحتاج الى ملكات عقلية سامية وأنه لا يمكن ادراك الحقيقة ومعرفة جوهر الاشياء الا بواسطة الهام أو حدس عقلي خاص . والفلسفة في رأي هؤلاء تمتاز على المعرفة العلمية بأنها أكثر وحدة وعموماً . فهي تسعى الى الاحاطة بكل شيء في نظرة واحدة وتبتغي الوصول الى الحقائق العميقة ، المطلقة ، الأبدية . ان الفلسفة لا تتوخى البحث في الضوء والصوت والحرارة والكهرباء مثلاً ، بل تريد أن تفهم ما هي حقيقة القوة والمادة والحياة والعقل والروح . فغاية الفلسفة هي معرفة أعم المبادىء التي تسيطر على الكون .

وللوصول الى المباديء الكلية والحقائق المطلقة لم يكن من الجائز في نظر

الفلاسفة القدماء أن نعتمد على التجربة والمشاهدة ، لان الادراك الحسي يخطيء ، بل يصعب عليه أحياناً التمييز بين الواقع والوهم .

كانت الفلسفة تستند الى التأمل والنظر العقلي المحض . وقد حاولت أن تستنبط القوانين العامة التي تسيطر على جميع الحوادث عن طريق الكشف الباطني والاطلاع المباشر .

وظلت الفلسفة منذ نشأتها عند اليونانيين حتى الوقت الحاضر تبحث في الأسباب القصوى والمباديء الاولى وتسعى الى معرفة أصل الوجود وغايته وتحاول ادراك حقيقة الكون . ولكن لا بد من الاعتراف بأن هذه الجهود بقيت عقيمة. فقد تعددت مذاهب الفلاسفة واحتدم النقاش والجدل بين آرائهم المتضاربة دون أن يتوصلوا الى أي حقائق يقينية يتفق عليها الجميع . وهذا مادفع المفكرين الحديثين من (ديكارت) الى (قانت) ثم (كونت) الى البحث في المعرفة نفسها فتساءلوا: هل يستطيع العقل البشري ان يدرك حقائق الاشياء ؟

ويمكن القول بأن الابحاث في هذا الموضوع قد انتهت الى ابطال فلسفة ما بعد الطبيعة النظرية — التأملية أو على الاقل الى اثارة الشكوك في امكان الوصول الى الحقيقة عن هذه الطريق . واذا رأينا الكثيرين من المفكرين ما زالوا يتمسكون بالفلسفة التأملية — النظرية فذلك لاعتقادهم بأن هذه الفلسفة ضرورية للدفاع عن العقائد الغيبية والتعاليم الاخلاقية المتوارثة . وهم انما يهاجمون العلم الحديث لظنهم بأنه من المستحيل التوفيق بين نتائج البحث العلمي ، وبين القيم السامية التي يؤمنون بها .

على اننا لا ننكر أن الفلسفة القديمة التي كانت تشمل كل العلوم قد ساعدت على تقدم المعرفة وتطور الفكر . ولا شك في انه كان لها فضل كبير في توجيه الانظار الى معالجة كثير من المشاكل وايجاد الحلول العلمية لها .

ان الحقائق التي نعتمد عليها اليوم في تفكيرنا وفي أعمالنا لم تكن سوى

نتيجة البحث العلمي . وتمتاز المعرفة العلمية بأنها تقتصر على دراسة ظواهر الطبيعة وحوادثها وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها . والعلم يعترف بأن العقل البشري لايستطيع أن يدرك شيئاً الا عن طريق الحواس . لذلك فكل مايقع وراء الحس والعقل لايمكن للعلم ان يبحث فيه وان يعرف عنه شيئاً . ان العلم يبين لنا مثلاً كيف تحدث الأحلام وماهي العوامل التي تؤثر فيها ويصف لنا مظاهرها ويقول لنا انها أحلام وليست حقائق . والتبعة لاتقع على العلم وإنما علينا نحن أنفسنا اذا اعتقدنا رغم ذلك ان الأحلام حقائق . ثم ان العلم يسعى الى الكشف عن قوانين الطبيعة . وبذلك يساعدنا على السيطرة على قواها . ونحن نستطيع ان نستخدم هذه السيطرة للخيراو للشر كيفما نشاء . فقد كشف لنا العلم مثلاً عن الطاقة الذرية ومهد لنا السبيل الى تفجيرها . ومن الممكن ان نستخدم هذه الطاقة لخير البشرية ورفاهيتها لو أردنا . وهذا بالفعل مايدعو اليه العلم الصحيح . وليس الذنب ذنب العلم اذا نحن فهمناه على غير حقيقته وأسأنا استعماله .

مهمة العلم هي ان يصف لنا الواقع ويبين لنا الاسباب والنتائج . وهو قد يذكر لنا ما اصطلح الناس على وصفه بالخير أو الشر ولكنه لايقول لنا : افعلوا ذاك ولا تفعلوا هذا . لأن سلوكنا ، كما تبين من البحث العلمي ، لايتبع مجرد تمييزنا للخير من الشر ، بل يخضع لعوامل اخرى كثيرة كالعادة والبيئة الاجتماعية وقوة الارادة وعمق العاطفة .

ان المعرفة العلمية هي التي تبين لنا حقيقة الاشياء والحوادث في الكون وتكشف لنا عن قوانين الطبيعة والمجتمع . بهذه المعرفة نتحرر من المخاوف التي يشعر بها الانسان الابتدائي تجاه حوادث الطبيعة . كذلك نتوصل بهذه المعرفة الى السيطرة على الطبيعة واستخدام قواها لأغراضنا . ولا شك في ان هذا التحرر وهذه السيطرة مما يجعل الانسان يشعر بكرامته ..

يبدو لنا الكون ، لأول وهلة ، غامضاً ، معقداً ، متناقضاً . ولكن العلم يساعدنا على ان نفهم هذا الكون ونعرف الأسباب والنتائج وندرك الارتباط بين الحوادث وتتكون لدينا مجموعة من الأفكار المتسلسلة ، الواضحة عن نظام العالم وقوانينه .

وليس من الضروري ان تكون القوانين التي يكتشفها العلم مطلقة وأبدية، بل يكفي ان تتضمن أقصى ما يمكن من الحقيقة النسبية . ولا ننس ان البحث العلمي صراع لا ينتهي بين الانسان والطبيعة . فكلما ازداد الانسان معرفة بقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها . وبالمقابل كلما ازدادت سيطرته على الطبيعة ازداد معرفة بقوانينها وتوصل الى حقائق جديدة . وهكذا تبقى الحقيقة التي يبلغها الانسان في كل مرحلة من مراحل التطور العلمي حقيقة نسبية بالضرورة ، اي حقيقة جزئية ناقصة وعرضة للتصحيح والتعديل . ولو توصل الانسان الى معرفة الحقيقة المطلقة النهائية لما احتاج بعد ذلك الى الدرس والبحث . وفي ذلك جمود الفكر وموته .

هكذا نرى ان الحقائق الجزئية ، النسبية التي يقدمها لنا العلم كفيلة بتطمين حاجتنا الى المعرفة وكان من الممكن ان نكتفي بها ونطمئن اليها .

ولكن يبدو أن الفكر البشري لم ولن ينقطع أبداً عن طرح اسئلة تتعدى حدود العلم الوضعي . فقد لاحظ الناس على أنفسهم مثلا أن ظاهرهم لا ينطبق دوماً على باطنهم وأدركوا بذلك أن الظواهر كثيراً ما تخدع . فكان من الطبيعي أن يتساءلوا : هل الأمر في الكون يختلف عن ذلك ؟ وهل هناك وراء ظواهر الطبيعة حقيقة خفية ؟ ثم ألا تكمن وراء الحوادث النفسية التي تجري في الشعور قوة نسميها الروح ؟ فمن أين جاءت هذه الروح ، وماهي طبيعتها وماهو مصيرها ؟

كذلك لا يستطيع الانسان أن يمنع نفسه عن البحث في المعرفة نفسها . فهو لا بد أن يتساءل : كيف نتوصل الى المعرفة ؟ وماهي الوسائل التي تساعدنا على ذلك ؟ هل يحق لنا ان نثق بحواسنا وعقلنا ؟ وهل يستطيع العقل أن يدرك

الحقيقة ؟ وماهي الحقيقة ؟ وهل يمكن الوصول الى حقائق مطلقة أم ينبغي الاكتفاء بحقائق نسبية ؟ وماهي الطرائق التي يتبعها البحث العلمي وما قيمتها ؟

ثم ان الفكر البشري يميل بطبيعته الى النظرة الموحدة والى الربط بين الحقائق التي تتوصل اليها العلوم المختلفة وتنسيقها .

واخيرا يريد الانسان ان يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل وما هي القيم الاخلاقية التي ينبغي أن يتمسك بها في سلوكه وفي علاقاته مع غيره من البشر . والعلم لا يتولى هذه المهمة ، فهو ، كما قيل ، **إنما يصدر احكام وجود ولا يصدر أحكام قيم ، أي يبين لنا ماهو واقع ولا يتعرض الى مايجب أن يكون .**

يتبين من ذلك ان هناك مسائل عديدة لاتبحث فيها العلوم المختلفة ولا يستطيع العلم أن يجد لها حلولاً مثل نقد المعرفة وطرائق البحث ووحدة العلوم والقيم الاخلاقية .

هذه المسائل هي التي تؤلف موضوع الفلسفة . وهي ضرورية ولا يمكن أن يؤدي تقدم العلم الى الاستغناء عنها . ولكن هذه الفلسفة لن يكتب لها النجاح الا اذا اصبحت فلسفة علمية تستند الى نتائج البحث العلمي . وهذا يقتضي أن تتخلى عن محاولة تعليل الكون بالطريقة العقلية — التأملية المحضة وأن تترك ذلك الى العلوم المختلفة ثم تسعى الى تنسيق نتائج الابحاث العلمية والى وضع فرضيات ونظريات بالاستناد الى هذه النتائج . مثل هذه الفرضيات والنظريات يمكن أن تفيد البحث العلمي وتساعد على تقدم المعرفة .

ولا بد للفلسفة العلمية من الاعتراف بأنه لا سبيل الى معرفة الحقائق المطلقة ، الأبدية . ان من واجبها أن تكون انتقادية تتولى تحليل الفكر البشري وتسعى الى الوصول الى احكام برهانية ، موثوقة لا تختلف عن الحقائق العلمية ..

●

الأخلاق والسياسة

للدكتور : أديب نصور

في مسرحية (اوديب الملك) يظهر وباء في مدينة ثيبة ويشتد خطره على اهلها وتصاب حقولها بآفات زراعية وتهلك القطعان في مراعيها ويأتي اهل ثيبة الى باب الملك متضرعين طالبين اليه ان يعمل مايستطيع لينقذ المدينة ، ويرسل الملك رسولا الى دلفي يستشير الآلهة فتوحي الآلهة بأن اثماً كبيراً قد ارتكب في المدينة وان الوباء والآفات لاتزول وغضب السماء لايهدأ حتى تزال آثار الاثم الكبير . ويكتشف الملك شيئاً فشيئاً الحقيقة المذهلة وهي أنه هو الذي أثم وجلب على المدينة غضب السماء فقد شاء له قدر رهيب أن يقتل أباه وهو لا يعرفه وان يتزوج أمه وهو لا يدري وان ينجب أطفالا هم في الوقت ذاته أبناؤه واخوته لامه .

لقد انتهكت شرائع السماء فغضبت السماء على الملك

وفسدت الحياة في مملكته واضطربت من حوله الارض اضطرابا . ويقتص الملك من نفسه فيفقأ عينيه بيده وينفي نفسه من المدينة ويهيم في الارض وتعود المدينة الى سابق عهدها فتخصب الحقول وتنجب النساء ويحسن العيش ويطيب الزمان.

السعادة لاتكون لمدينة بدون صلاح

هذا ما أشارت اليه الاسطورة القديمة في خيال البشرية الاولى عندما بدأت البشرية تبحث عن الحقيقة وتتلمس طريقها الى الحياة الحسنى وتعي بشكل مبهم غامض بدائي أن هناك صلة مابين الدولة والعدالة ، بين شقاء المدن وآثامها ، بين سعادة الناس وفضائلهم ، بين السياسة والاخلاق .

هذا ما أشارت اليه الاساطير القديمة ، وقد علمتم ماجاء به الوحي وماتنزل على الانبياء . أسوق على سبيل المثال مقاطع سريعة مختصرة من نبوءة اشعياء في كتاب العهد القديم :

« كيف صارت القرية الامينة زانية . كانت ملآنة حقاً وكان العدل يبيت فيها . صارت فضتك زغلا وخمرك مغشوشة بماء . رؤساؤك عصاة وشركاء للسراق. كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا . لا يقضون لليتيم ودعوى الارملة لاتصل اليهم . خيوطهم لاتصير ثوباً ولا يكتسون باعمالهم . اعمالهم اعمال الباطل وفعل الجور في اكفهم . ارجلهم الى الشر تجري وتسرع الى سفك الدم الزكي . أفكارهم أفكار اثم . في طرقهم اغتصاب وسحق . طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل . جعلوا لانفسهم سبلاً معوجة . كل من يسير فيها لا يعرف سلاما .. »

« .. كان لحبيبي كرم في رابية ذات خصب ، وقد حوطه وحصاه وغرس فيه أفضل كرمة وبنى برجاً في وسطه وحفر فيه معصرة وانتظر ان يثمر عنباً فأثمر حصرماً برياً . فالآن احكموا بيني وبين كرمي . أي شيء يصنع للكرم ولم اصنعه لكرمي فما بالي انتظرت ان يثمر عنباً فأثمر حصرماً برياً . فالآن اعلمكم ما اصنع

بكرمي . أزيل سياجه فيكون مباحاً واهدم جداره فيكون مدوساً واجعله خراباً لا يقضب ولا يفلح فيطلع فيه القتاد والشوك واوصي السحاب ان لا يمطر عليه مطراً .. »

ويكفي ان أذكر آية واحدة جامعة من القرآن الكريم جاءت في سورة النحل .

« وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

هذا مادلت عليه بعض الاساطير القديمة وما جاء به الوحي المتصل فما رأي الفلاسفة والمفكرين ؟ ماذا يقول القدماء منهم وماذا يقول المحدثون ؟

يروى عن استاذ قديم متقاعد في جامعة اكسفورد أن جاءه يوماً تلميذ خبيث يقول له أن فلاناً من الاساتذة الشباب أنشأ كتاباً قيماً في السياسة فقال الاستاذ متسائلاً مستنكراً : كتاب في السياسة ؟ وماذا عساه ان يقول بعد الذي قاله ارسطو ؟

والواقع ان ارسطو يمثل تياراً فكرياً كبيراً نجد فيه سقراط وافلاطون وتوما الاكويني وغيرهم ، هو تيار السياسة المثالية .

عند ارسطو ، كما هو الحال عند فلاسفة الاغريق على الاجمال، **السياسة لا تنفصل عن الاخلاق ، والدولة لا توجد من اجل ذاتها وانما توجد لكي تحقق الحياة الفاضلة الحسنى للمواطنين** . وان سعادة المواطن ، في نظر ارسطو ، تتوقف على الفضيلة والحكمة . يقول في كتاب السياسة : «ان السعادة لا يمكن ابداً ان تتبع الرذيلة، فالدولة شأنها كشأن الفرد لا ينجح الا بشرط الفضيلة والحكمة .

ان الغرض الاصلي للحياة ، في حق الفرد كما هو في حق الدولة على العموم، هو بلوغ هذه الدرجة الشريفة وعمل كل ما تأمر به . »

ويلقي ارسطو سؤالا اساسياً ما يزال جديراً بالنظر : هل المواطن الصالح هو نفسه الرجل الفاضل ؟ ويجيب انهما في الدولة المثالية انسان واحد . ان فضيلة

المواطن الحاكم هي نفسها فضيلة الرجل الصالح ، والمواطن الصالح يجب أن يعلم كيف يحكم مثل الاحرار وكيف يطيع مثل الاحرار ايضا . تلك هي فضائل المواطن والحاكم والرجل الفاضل .

وغاية رجل الدولة أو السياسي الحق هي أن يحقق السعادة للمواطنين بأن يرشدهم الى الحكمة ويروضهم على الفضيلة فرجل الدولة معلم وموب من الطبقة الاولى .

في حوار **غورغياس** الخطيب يتحدث سقراط الى سياسي غوغائي معاصر له يدعى كليكليس ويقول له : « والآن ياصاحبي ،ما دمت قد بدأت تصبح سياسياً بارزاً ، وما دمت تأخذ علي أني غير سياسي ، ليسأل احدنا الآخر بعض الاسئلة . ماذا تقول في جعل المواطنين أفضل ؟ أو حدث أن كان رجل آثماً او ظالماً أو أحمق أو سيء الادب فغدا بتأثيرك صالحاً ونبيلا . هل وجد قط مثل ذلك الرجل بين المواطنين والغرباء ، بين العبيد والاحرار ؟ قل لي ياصاح ، اذا ألقى عليك شخص هذه الاسئلة فماذا تجيب ؟ أي رجل أصلحت بحديثك ؟ ربما صنعت مثل هذه الاعمال في الحياة الخاصة قبل ان تتقدم الى الحياة العامة ، لماذا لاتجيب ؟

كليكليس : انت مشاكس ياسقراط .

سقراط : كلا ، اني لا اسألك حباً بالمشاكسة بل لاني اريد أن أعرف على وجه التحقيق ما هو تفكيرك فيما يجب ان تكون عليه الحياة السياسية في آثينا. واذا كنت تقصد حين تتقدم الى الحكم ، غاية غير اصلاح المواطنين . ألم نسلم سابقاً بأن اصلاح المواطنين هو واجب الرجل العام ؟

وتتحول جمهورية افلاطون كلها الى اداة تربية وتثقيف تخرج نخبة فاضلة ممتازة للحكم وتبلغ غايتها حين تقدم للدولة الملك الفيلسوف .

أمام هذه المدرسة المثالية في السياسة يقف مكيافللي وحيداً بين المفكرين السياسيين الكبار . **ويزعم الزاعمون ان مكيافللي هو الذي أنشأ علم السياسة**

الخالصة حين فصل السياسة عن الاخلاق فصلا تاماً وقرر ان السياسة استقلالا ذاتياً « Autonomy » وانها لاتخضع للدين أو للأخلاق وانما لها قواعدها الخاصة بها ، المستقلة عن الدين والاخلاق .

والسياسة عند مكيافللي هي فن الوصول الى الحكم وعلم البقاء في الحكم بعد الوصول .

وفي سبيل الوصول الى الحكم ومن اجل البقاء في الحكم تبـــاح جميع الوسائل بدون استثناء .

انه ينظر الى السياسة على انها تكنيك ، علم وسائل الوصول وأدوات الحكم وفن النجاح السياسي ، وهي كعلم ، كفن ، كتكنيك ، لا شأن لها بالخير والشر . انها وراء الخير والشر . لاينكر مكيافللي وجود الخير والشر لكنه يرى ان للخير والشر منطقة خاصة هي غير منطقة السياسة .

وهو لا يرى بأساً في ركوب الشر ولايحث عليه وانما يقرر : من أراد أن يصل الى الحكم فهذه هي الوسائل — القتل والكذب والرشوة **والمكر والخداع ..** وأمير مكيافللي غير الملك الفيلسوف عند افلاطون، وغير الحاكم الفاضل والمواطن الصالح والرجل النبيل عند ارسطو. ليس من شأن الامير — امير مكيافللي — ان يصلح الناس. انه يجب ان يأخذ الناس كما هم وان يقبلهم على علاتهم ويتصرف بهم على ذلك الاساس.

وان نظرة مكيافللي الى طبيعة البشر تنطوي على تشاؤم حاد . يقول في الفصل السابع عشر من كتاب الامير : « لأنه يحق القول عن الناس عامة انهم ينكرون الجميل وانهم سريعو التحول متخلفو الطباع والغرائز ميالون لاتقاء الاخطار ومحبون للكسب . ومادمت تنفعهم فهم لك ويهبونك دمهم ومتاعهم وحياتهم وبنيهم مادام الخطر بعيداً فاذا أحدق الخطر ثاروا عليك والامير الذي يعول على وعودهم دون أن يتأهب للحوادث فعاقبته الخراب . »

ماهي الطريقة التي يجب ان يتبعها الامير في سياسة الناس وهل من الخيرله

أن يحب ام أن يخشى ؟ ايها أضمن لبقائه وبقاء دولته أن يكون محبوباً أم أن يكون مرهوباً ؟ ذلك هو السؤال المدرسي الاخير ؟

وجواب مكيافللي في غاية الصراحة والوضوح . هذا الجراح بارد القلب جريء لا يبالي باللحم البشري والدم والعصب .

« ان الناس يحبون ويبغضون باراداتهم ولكنهم يهابون الامير بارادته والامير الحازم ينبغي له أن يعول على مافي قدرته لا على مافي قدرة الغير . »

وهل يكون وفياً ؟ وكيف يكون وفاء الامراء ؟ ويبني مكيافللي على هذا الموضوع فصلا كاملا أحسب أنه خلاصة المكيافللية . ويبدأ فصله الشهير على هذا النحو :

« لا يخفى على احد ما يلحق بالامراء من الثناء اذا اشتهروا بحفظ الوعود ومراعاة العهود ولكن تجارب زماننا هذا دلت على ان الامراء الذين لم يراعوا العهود قاموا باعمال كثيرة وتمكنوا من تحيير اوهام الناس بمكرهم وتغلبوا في نهاية الأمر على الامراء الذين اتخذوا الامانة عادة والوفاء اساساً لحياتهم . »

ويلجأ مكيافللي الى اسطورة قديمة يستر بها تفكيره العاري . هي اسطورة آخيل ومدربه شيرون وهو القنطورس ، حيوان خرافي نصفه وحشي ونصفه الآخر انسان . فقد روى أن هذا الحيوان الخرافي كان يدرب آخيل والامراء. والقصد من الاسطورة ان الامير محتاج الى استعمال الطبيعتين جميعاً ــ طبيعة الانسان وطبيعة الحيوان ــ وان طبيعة دون أخرى لا نفع لها ولا بقاء. فالأمير مضطر الى التطبع بطبع الحيوان . وبين الحيوان ينبغي للامير ان يختار مثالين : الثعلب والاسد . « فيقلد الاسد والثعلب لأن الاسد لا يستطيع ان يحمي نفسه مما يرمى له من الحبائل والثعلب لا يستطيع ان يتقي الذئاب لذا ينبغي للأمير ان يكون ثعلباً يتقي الحفائر والحبائل وأسداً يرهب الذئاب . لأجل هذا ماينبغي للامير الحذر ان يحفظ العهود اذا كانت ضد مصلحته ومادامت الاسباب التي دعت الوعد قد انقضى عهدها . »

ويقول مكيافللي مستدركاً بعض الاستدراك : « اذا كان الناس كلهم أخياراً فان القاعدة التي ذكرتها تكون لاشك سيئة ولكنهم اشرار ولن يحفظوا لك عهداً فلست مضطراً الى حفظ عهودهم . »

ومع ذلك كله ينبغي للأمير أن يخفي طبع الثعلب وأن يتظاهر بالوفاء وان يخلع على نفسه رداء الفضائل « ليس من الضروري للأمير أن يتصف حقيقة بكل الفضائل ، ولكن من الضروري ان يذاع عنه الاتصاف بها وانني أجسر فأقول ان الاتصاف بكل تلك الفضائل خطر ولكن الظهور بالتحلي بها نافع .

انه من الخير لك ان تظهر بالتقوى والامانة وحب الانسانية والدين والاخلاص وان تكون في الواقع كذلك ولكن ينبغي أن تكون متنبهاً بحيث اذا اضطررت للتحول الى الصفات الاخرى كان ذلك بدون مشقة . »

وهنا تأتي النتيجة القوية والخلاصة الهائلة :

« فليعش الامير وليحافظ على عرشه دون النظر في الوسائل فانها ستبقى على الدوام معتبرة شريفة يمدحها الكل لان العامة مأخوذون بالظواهر وبنتائج الاشياء والعالم لايشمل الا العامة أما الخاصة فمعزولة عن العامة والامير . »

نقلنا هذا الكفر كله ولسنا بكافرين وانما حاولنا أن نصور بأمانة تفكير الرجل لنرى أين أخطأ مكيافللي وأين أصاب .

لنذكر ، اولا ، ان مكيافللي ألف كتابه في مطلع القرن السادس عشر وكان بطبيعة الحال متأثرا بواقع زمانه وسيرة الامراء في المدن الايطالية في عصر النهضة ، وكانت العلاقات بين المدن والدول قائمة على الحرب والخداع والكيد والدهاء . ولم يفرق مكيافللي بين الميدان الداخلي والميدان الخارجي لنشاط الامير فحسب القواعد واحدة والوسائل واحدة في حرب الامراء وفي اخضاع الامارات وحكم الرعية وسياسة الناس .

ونلاحظ مع الاسف الشديد ان الدول من ايام مكيافللي حتى أيامنا هذه

تلجأ الى القوة والكيد في علاقاتها وتبيح لنفسها في الحرب وفي السلم كل الوسائل للوصول الى غاياتها. هذا شأن الدول لكن حديثنا هذا عن السياسة والاخلاق لاينصرف الى العلاقات الدولية وانما يقتصر على حياة الدولة الداخلية وعلاقة الحاكمين بالمحكومين ضمن الدولة الواحدة.

ثانيا، كان الامير كل شيء في ايطاليا في عصر النهضة. كان هو المدينة وهو الدولة **والسلطان ولم يكن للشعب حساب في السياسة والحكم**. أما بعد ذلك العصر فقد اشترك النبلاء في الحكم مع الملوك، وبعد طبقة النبلاء تقدمت الطبقة الوسطى، بفعل الثورة الفرنسية، الى الحكم، وبعد الطبقة الوسطى تقدمت الطبقة العاملة وأصبح الشعب كله مشاركا في الحكم بصورة مباشرة أو بطريق التمثيل. وتغيرت معطيات المشكلة كما يقولون بلغة العلم الركيكة، أو تغيرت الاحوال والازمان وكان لا بد من أن تتغير معها السياسات والاحكام.

فالحديث عن الامير والامارة والخاصة والعامة حديث قديم تجاوزه الزمن فلا خاصة ولا عامة بالنسبة الى الشؤون السياسية وانما هناك جمهور كبير من المواطنين المتساوين في الحقوق والواجبات، يرى كل واحد منهم ان له شأنا في السياسة وكلمة في تصريف الشؤون العامة.

مازالت هناك دول يحكمها حكامها بالقوة والقهر وهؤلاء الحكام يتوصلون الى الحكم باستخدام كل الوسائل: القتل والغدر والمكر والضغط والارهاب، ولكن الانسانية الراقية توصلت الى نوع من الحكم هو حكم الشعب من الشعب بالشعب وللشعب، ولكي يستطيع المواطن العادي ان يتقدم الى الحكم يجب أن يقنع أغلبية المواطنين بصواب خطته السياسية وصلاح نهجه وأمانته الشخصية وقدرته على الخدمة العامة. واذن فطريق الوصول السليمة في النظام الديمقراطي الحر الكريم هو اكتساب ثقة الناس وتقديرهم الحقيقي، وقد يخدع السياسي في الدولة الديمقراطية بعض الناس بعض الوقت لكنه لايستطيع أن يخدع كل الناس كل الوقت كما قال ديمقراطي كبير هو ابرهيم لنكولن.

فالمكيافللية سياسة فاشلة بالنسبة الى المجتمع الديمقراطي الحر . واذا سلك سياسي طريقة مكيافللية في الوصول الى الحكم أوفي سياسة الناس بعد الوصول فأمامه احتمالان :

١ — اماأن تفقدالدولة صفتهاالديمقراطية وتحكم بالقوة والقهر والكيدوالدهاء.

٢ — أو أن يكتشف أمر السياسي المكيافللي ويسقط فتنجو الدولة من شره وينجو المواطنون بحرياتهم وحقوقهم وكراماتهم .

واذن فالمكيافللية ليست من الحكمة السياسية كما أنها ليست من الاخلاق في شيء .

ثالثا ، نحن مع ارسطو وافلاطون في أن غاية الدولة هي الحياة الفاضلة الحسنى وان رجل الدولة هو الذي يرتفع بمستوى الحياة المادي والروحي في بلاده ويجعل الناس اسعد واكرم . والدولة الفاضلة هي التي تجعل المواطنين أفضل .

فلا ينتهي السعي السياسي بالوصول الى الحكم ولا ينحصر عمل الحاكم بالبقاء في الحكم ما استطاع الى البقاء سبيلا . المهم ماذا يصنع بالدولة وبالشعب عندما يصل الى الحكم . أي خير يقدم للبلاد ، أية خدمات ، أي روح يبعث في الامة ، أية رؤيا يضع أمام الشعب ؟ بلا رؤيا يهلك الشعب ، يقول صاحب الامثال . أي قيادة ، أي توجيه ، أي أمل أي رجاء .

ان أسوأ الحكام وارادأ الساسة رجال همهم الوصول فاذا وصلوا لا يعلمون ماذا يصنعون أولا يرون في الحكم الا فرصة لجمع الثروة والانتقام من الخصوم وتعيين الانصار والتابعين في وظائف الدولة . قال احد المؤرخين في نابليون الثالث **— ان مأساته هي مأساة وصولي وصل وعندما وصل لم يدر ماذا يصنع .**

. « C'est un arriviste qui est arrivé »

رابعا لنفرض أن الغاية شريفة ومشروعة فهل تبرر الغاية الشريفة المشروعة استخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة .

اذا استعمل الامير أو السياسي في سبيل الوصول الى غايته الشريفة المشروعة كل وسيلة بدون النظر الى ماتجيزه الشرائع وما تجيزه الاخلاق والاعراف وما ترضى عنه الضمائر فماذا تكون النتيجة ؟

١ ــ يحدث في أمور الناس أن الساعي الى غاية قد لا يصل الى غايته أبداً وقد يقضي العمر كله في الوسائل الوضيعة وبذلك يكون قد فقد كل شيء .

٢ ــ قد يصل السياسي أو حزبه الى الحكم باستخدام الوسائل المكيافلية ولكن ماذا تكون قد صنعت به وبحزبه وبقومه المكيافللية في أثناء الطريق؟ان أعمالنا تتبعنا الى النهاية وتؤثر فينا وتبقى في أعماق كياننا منها تراث نحمله معنا الى آخر الايام . كل عمل نبيل نأتيه يزيدنا نبلاً وكل عمل وضيع ينحـــدر بنا درجة في الضعه .. سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فالسياسي المكيافللي يفسد نفسه . انه مثل فاوست في قصة « Goethe » يبيع نفسه للشيطان في سبيل النجاح الرخيص المحدود . وكل نجاح أتى بطريق مكيافللية يتضاءل أمام كلمة السيد المسيح الكبيرة الهائلة : « ماذا يفيد الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه » .

ثم ان السياسي المكيافللي يفسد حزبه أيضاً واعوانه وقد لا يختار الا الفاسدين فيصل الى الحكم ، ان وصل ، بشخصيات انسانية محطمة لا تصلح لعمل نافع أو نبيل فكيف يحكم بالحطام ؟ وكيف يصلح بالفساد ؟ .

ثم ان شر المكيافللية وأذاها لا يقتصر على السياسي المكيافللي أو على حزبه وانما يمتد الى الشعب كله ... « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . »

٣ ــ ولنفرض أن السياسي المكيافللي قد وصل وظفر وحكم فماذا بعد ؟

المكيافللية يمكن أن تصنع منه سياسياً ناجحاً الى حين ولكنها لاتستطيع أن تجعل منه رجلاً عظيماً حقاً تذكره الانسانية بالخير وتباركه الاجيال الى آخر الدهر .

العظمة الحقيقية ، والزعامة الأدبية ، وقيادة العالم الراقي — هذه لاتنال الا بالخلق العظيم .

والرجل الكبير حقاً النبيل حقاً العظيم الطموح لا يكفيه ولا يرضيه النجاح السريع والسلطة القصيرة والمجد المختصر ، وانما يعني بما يقدم من خدمة حقيقية جدية باقية لقومه وللعالم أجمع ويهتم بدوره في التاريخ وبما سيقول عنه التاريخ.

لقد أخذ بعض المؤرخين على قيصر انه ، وهو الرجل الكبير، قد استخدم الرشوة وتملق الغوغاء وقدم للشعب الخبز والالعاب « Panem et, circenses » كما فعل غيره من زعماء الغوغاء في روما . ويعتذر أناس لقيصر فيقولون ان قيصر كان مضطرا الى استخدام الوسائل السائدة في زمانه لكي يصل الى الحكم ويفيد من عبقريته روما والامبراطورية . لكن الانسانية الى يومنا هذا وبعد انقضاء الفي عام ما تزال تحاسب قيصر وتقول أخطأ قيصر هناك ولم يكن ذلك لائقاً بالرجل الكبير .

والحق ان ظروف البلاد تؤثر الى حد بعيد في تصرف السياسي فالعبقرية السياسية التي تظهر في جمهورية حرة تسلك طريقاً غير الطريق التي تضطر الى سلوكها عبقرية تنشأ في نظام ديكتاتوري . وأحسب أن برناردشو قد نظر الى هذا المعنى حين أجرى على لسان يوليوس قيصر كلمات فيها مافيها من الاسى ومن التماس العذر لحياته السياسية كلها .. قال وقد سمع احدانصاره يجاهر بأنه قيصري، قال له قيصر .. « صدقني ، يالوشيوس ، ان قيصر ليس قيصرياً . ولو كانت روما جمهورية حقيقية لكان قيصر أول الجمهوريين .. » .

خامساً — ان مكيافلي في نظرته الى الطبيعة البشرية كان سيء الظن متشائماً تشاؤماً بعيداً . فالناس في نظره أشرار يحكمون بالقوة والرهبة وعلى الحاكم أن يجثم لهم جثوم الاسد وان يراوغهم مراوغة الثعلب . فالامير حيوان . هذه النظرة الى الانسان مسرفة في التشاؤم ضيقة الآفاق فالانسان اكرم من ذلك .

ولا أعتقد ان مكيافللي كان أعلم بطبيعة البشر ومصير الانسان من السيد المسيح حين دعا الناس الى التسامي والارتفاع وأطلق في تاريخ الانسانية ذلك التحدي الكبير وتلك الدعوة الرفيعة : « كونوا كاملين .. » في محاولة التمام وفي النمو المتواصل والاقتراب الدائم من الكمال تجد حياة الانسان معنى لهـا ومبرراً لشقائها وسعيها .

ثم ان مكيافللي تجاهل ماصنعت الأديان في ضمائر الناس . كيف نتجاهل عشرين قرناً من المسيحية واربعة عشر قرناً من الاسلام . الضمير الديني واقع يجب ان يحسب حسابه السياسي الحاكم والامير .

ولا نستطيع ان نقسم حياة الانسان الى منـاطق منعزلة فمنطقة للسياسة وثانية للاقتصاد، وثالثة لأشياء الروح - والمواطن حين ينتخب وحين يحكم وحين يدفع الضرائب وحين يمشي في الاسواق وحين يصلي وحين يقاتل في الميدان يتصرف المجتمع بشخصيته كلها وأخلاقه وكيانه .

إننا أمام شخصية انسانية واحدة لا أمام شخصيات شتى . والانسان كائن روحي يستطيع بجهاد بطولي للنفس وبنعمة من فوق أن يتجـاوز الطبيعة البشرية ويحقق كمالا جديراً بالملائكة .

والدولة لاتقوم ولا تستقر ولاتبقى ولاتحسن فيها الحياة إلا بخلق المواطن الصالح والانسان الفاضل وهما شخص واحد كما قدمنا .

وان افضل الدساتير في العالم وأحدث الانظمة وأتم القوانين لاتجدي اذا لم يتهيأ لها مواطن حر ، منضبط ، مسؤول ، يطيع القانون ، ويحترم الدستور ويعمل في وضح النهار للخير العام ويدفعه الى العمل حب المواطنين . « ان لم يبن الرب البيت فباطلا يتعب البناؤون . ان لم يحرس الرب المدينة فباطلا يسهر الحراس . »

●

الفكر والسياسة

إلى أي مدى أثر الفكر في السياسة .؟

بقلم : عبد الكريم زهور

إن لهذا الموضوع جوانب كثيرة كما يمكن ان يعالج من وجهات مختلفة ،فلكي لا نضل ، قسمته إلى قسمين : عرضت في الأول منها عرضاً سريعاً لدور الفكر في السياسة ، أو بتعبير أدق لوظيفة النظرية في الحركات السياسية ، وطبقت بايجاز في القسم الثاني النتائج المستخلصة من القسم الأول على الحياة السياسية للشرق العربي في هذا القرن العشرين .

لنسأل في البدء : ماهي مكنونات العمل السياسي ؟ ماهي الدوافع التي تزج بالمرء في غمرة السياسة مع مافيها من هم وقلق وأخطار وصراع لاينتهي وحياة مضطوبة

مشردة ، وبخاصة في هذا العصر المتوتر وهذه المنطقة التي لاتستقر على حال ؟

إذا سألنا هذا السؤال فقد يكون جوابه تكراره وتدقيق صيغة السؤال.

فمن الناس من يفتقد الاستقرار في حياته الخاصة فيفر منها الى الحياة العامة ويغرق اضطراب تلك في اضطراب هذه . ومنهم من يجد موته في أمن الحياة فيبحث عن المغامرة فاذا وجدها تلمظ عليها وانتشى . ومنهم من هو مشبع بروح هذا العصر المتوتر ، ولاصورة يتجلى فيها هذا التوتر كما يتجلى في السياسة ، فيفرغ التوتر الذي يجده في نفسه في التوتر الذي يجده في الحياة السياسية ، وهو ينشد السلام لنفسه وللعالم .

وقد يكون الدافع الطموح الشخصي ، فالشهرة والمجد والخلود اهداف طالما أرقت العيون ؛ وحب الغلب والسلطان والتربع في أعلى مكان في المجتمع غايات تتقطع دونها الأعناق . وقد يكون الطمع ، المصلحة الفردية . فحب المغنم والاتكاء على تلال من مال والحياة الرفيعة الانيقة المترفة آلهة شرهة كم قدّم ، او تقدم لها من ضحايا .

كما يكون الفكرة ، المثل الاعلى ، صورة المجتمع أنشأه العقل إنشاء ، أو مجتمع واقعي تاريخي يعيش فيه المرء بخياله وقد امتص منه البعد الزمني سيئاته ، أو مجتمع واقعي معاصر عاش فيه الانسان فترة من عمره وقد افتقده وهو يعيش في مجتمعه الراهن ، مجتمع الامة التي ينتسب اليها .

ويكون أيضاً نوازع بل نوازغ شيطانية تندفع من أعماق مريضة ممتلئة بالحقد وتعشق الهدم يشملان كل شيء حتى ماهو سام وعظيم وجميل بل قد يخصان كل ماهو سام وعظيم وجميل بما فيها من شواظ شرير .

كل ذلك وسواه ، إذ أن مغاور النفس الانسانية يستحيل استقصاؤها على أحد ، ونحن مازلنا في حدود الفرد الانسانية ، فاذا انتقلنا الى الجماعات الانسانية بكل مستوياتها وكل دوائرها المتفاوتة في السعة والضيق ، وبكل ماينشأ فيها من

مصالح وعواطف وأفكار وبكل مايقوم بينها من علاقات وتفاعلات من التساند إلى التصارع — إذا انتقلنا هذه النقلة وتصورنا كل تلك الخيوط اللانهائية المشتبكة والتي يختلف اشتباكها في كل لحظة يمكننا أن نتصور العوامل الداخلة في العمل السياسي ومدى تعقيدها .

هذه العوامل الكثيرة ، ألا يمكن ردها الى عدد محدود منها ، أو يكون منها عدد محدود له الرجحان الكبير بحيث يمكن اهمال الاخرى ؟

لقد جعل ابن خلدون « العصبية » العامل الاساسي في الحياة السياسية ، في نشوء الدول واندثارها ، وهو يعني بها طبعاً العصبية القبلية ، وذلك حين كان النزاع الأساسي في مناطق كبيرة من العالم وبخاصة في منطقتنا هو النزاع بين البداوة والحضارة ، بين البادية والمدينة . ولكن ، كما لاحظ « بوتول » بصحة ، منذ ما أطلق المدفع أول قذيفة دك أول ما دك سلطان الصحراء والبادية وأكد سلطان المدينة نهائياً . **أي ان الصناعة منذ ما دخلت المجتمعات الحديثة غيرت اتجاه الصراع التاريخي في العالم ، فهل يعني ذلك أن العصبية من حيث هي عامل أساسي في الحياة السياسية قد زالت قيمتها ؟ أعتقد أن لا ، بيد أنها غيرت مواقعها في الحياة الاجتماعية .**

فالصناعة ، حين سيطرت على المجتمعات الحديثة ، أبرزت قوتين : قوة المال وقوة العمل ، ميزت بينهما تميزاً قاطعاً ، فقسمت مجتمع كل أمة صناعية الى طبقتين اجتماعيتين : طبقة الرأسماليين سدنة المال وطبقة العمال مصدر العمل الانساني ، ووضعت مصالحهما بعضها تجاه بعض من حيث هي متناقضات . ولا يعني هذا أن ليس هناك من قوى أخرى وطبقات وفئات اجتماعية أخرى ، بيد أن هذه القوى والطبقات ليست ذات مصالح ثابتة ، بل ليس لها وضع مستقر ، ولذلك يتحول اتجاه فعلها الاجتماعي باستمرار ، ذلك الى أنها بعامة ضعيفة أمام تينك القوتين الاساسيتين . ولما اشتد الصراع بين هاتين القوتين ، بين هاتين الطبقتين ، نشأ نشوءاً متواقتاً عند

لرأسماليين وعند العمال شعور واحد بضرورة تجميع القوى ، بضرورة تساند الطبقة وتكاتفها تجاه خصيمتها **الطبقة الأخرى ، اي نشأ « التضامن الطبقي » ، أو « العصبية الطبقية » كما أفضل أن أدعوها** . ومنذ ذلك أصبح هذا النوع من العصبية هو المحرك الأساسي ، العامل الأساسي في الصراع والتطور الاجتماعيين، وأخذت تذوب فيه أو تتضاءل أمامه كل عوامل العمل السياسي الاخرى ،واقتصر دورها على أن تمر بريشتها مراً رفيقاً على وجه الصراع الطبقي لتعطي قسماته نبرة ما ، لها بعض الخصائص.

وحدث انقسام مماثل ونتيجة للصناعة أيضاً على نطاق الانسانية،فانقسمت الأمم الى قسمين : **الأمم التي تملك العلم والآلة الصناعية وبالتالي الآلة الحربية والامم التي لا تملكها** ، الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة . ومنذ ذلك أخذت النيران الأرض من كل اطرافها ، بدأت معركة واسعة المدى في الزمان والمكان بين هذين النوعين من الأمم : معركة الاستعمار ثم معركة التحرر من الاستعمار الظاهر ومن الاستعمار الخفي ؛ وكان السلاح العقائدي للطرفين هو سلاح « الشعور القومي » ، سلاح القومية ، أو ما أفضل أن أدعوه « العصبية القومية » . وليس من ضرورة بالطبع لتبيان المصالح ، المشروعة أو غير المشروعة ، الجاثمة تحت هذه العصبية . هذا ولم تنشأ العصبية القومية مع نشوء الاستعمار ، بل سبقته في النشأة . لقد نشأت منذ أن اندفع الرأسمال يوحد السوق القومية ويتم أجزاء الأمة الواحدة في دولة واحدة . كما أن المعركة الاستعمارية لا تدور بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة فقط، بل تدور أيضاً بين الأمم المتقدمة ذاتها ، أو بتعبير أدق بين الدول الاستعمارية نزاعاً على الاسواق ومصادر المواد الأولية .

فاذا كانت العصبية الطبقية هي العامل الأساسي في الحياة السياسية في عالم الأمم المتقدمة صناعياً ، فالعصبية القومية مازالت العامل الأساسي في الحياة السياسية في عالم الأمم المتخلفة وفي عالم العلاقات بين الامم . أي إن هاتين العصبيتين هما

العاملان العقائديان الأساسيان في الصراع العالمي بين الكتل الدولية وفي قلب الكتل الدولية ، بين الامم وفي داخل الامم . أما متى وأين وكيف تلتقي هاتان العصبيتان وتختلفان ، متى وأين وكيف تمازجان حتى لا تمتـــازان من بعضها ، وتصطرعان الى الموت ؟ فليس عليّ ولا لي في حدود هذا المقال أن أبين ذلك . أما، ما هي الصور التي تأخذانها ، وما هي المضمونات المختلفة التي تكونها ؟ **فليس لي ان أقول الا أن المصالح الاقتصادية بأنواعها المنوعة وتناقضاتها الكثيرة هي المضمونات الحقيقية لهاتين العصبيتين .**

ولكن إذا كانت المصالح الاقتصادية جوهر العمل السياسي، فهذه المصالح لا تتواقت في النشوء ولا تتساير في مراحل النمو، ولا تكتسب بخاصة الصفة الشرعية أو السلطة بتعبير أدق ، في نفس الوقت وبنفس الدرجة . فهناك مصالح مستقرة معترف بها تحتمي بكل السلطات الشرعية وتستخدمها ، ومصالح بازغة صاعـــدة تصطدم بهذه السلطات الشرعية وتصطرع معها ، قوتهـــا الوحيدة هي قوة الذين يملكونها : العمال في الامم المتقدمة ومعظم الشعب في الامم المتخلفة .

وهنا تبرز قيمة النظرية . فالنظرية هي التعبير عن هذه المصالح البازغـة ، **هي رفع هذه المصالح من مستوى الحاجة الى مستوى الفكر ، أو هي** الحصول على هذه المصالح فكرياً وهي الخطوة الاولى نحو الحصول عليها واقعياً ، او المقدمة الضرورية للحصول عليها واقعياً . ولذلك لم تكن المصالح المستقرة التي اكتسبت الصفة الشرعية بحاجة الى نظرية ، لقد تجاوزت هذا الطور ، انها واقع راهن . فاليسار وحده هو الذي يجد الحاجة الى النظرية، إلى تحليل المجتمع والبحث عن عوامل التطور فيه ، والاهابة بهذه العوامل . أما اليمين فلا يجد الحـاجة ، إلا إذا زلزلت الارض من تحته واشتد الهجوم النظري والواقعي عليه ، عندئذ قد يلجأ الى الفكر لرد الهجوم عنه وتبرير وجوده ، وكثيراً ما يكتفي بالقوة المادية لسحق قوى اليسار ودحض نظرياته ، فيسار دون نظرية أو شبه نظرية هو

يسار زائف وظيفته تضليل القوى اليسارية وتفتيتها، أي يسار خائن ، أو يسار فج يحتاج الى عملية إنضاج طويل عميق في لهب الكفاح الواقعي والفكري . ويمين بنظرية هو يمين في غاية الخبث والتبصر ، أو يمين هرم قد أشرف على نهايته .

مادامت النظرية تعبيراً عن المصالح الاقتصادية ، لماذا إذن لا تفعل المصالح الاقتصادية مباشرة في العمل السياسي ؟ هل من ضرورة لازبة لوساطة الفكر بين هذين الطرفين ؟ والمصالح بعد ألصق بالانسان من الفكر وأوصل بحياته : خبزه اليومي ، صحته ومرضه ، أطفاله وزوجه ، راحته وتعبه وعجزه الخ . . فهي بالتالي موصولة بذلك العالم الذي يدعوه علماء النفس عالم الدوافع ينبوع السلوك ومصدره.

ولكن المصالح لأنها كذلك، لأنها تلابس الانسان العامل وحياته ملابسة شديدة، قد تدفعه للعمل ، وانتبه إلى أنه عمل سياسي ، ولكن على نحو مشتت متقطع موقت، فأولى أن يكون اضطراباً من أن يكون عملاً، لأنه ينقصه صفات الانتظام والثبات والاستمرار التي لا يكون العمل عملاً بدونها، فالانسان تحت إلحاح الحاجة يتشبث بالمصلحة العاجلة اليومية مضحياً بالمصلحة الآجلة ، بل قد لا يطيق أن يمد بصره خارج اللحظة كي ينفذ الى المستقبل والى مصلحة مقبلة . ويستمسك بالمصلحة الموقتة ، فاذا عنت له الاخطار التي تهددها استبعدها ، لماذا يستقدم الهموم وينغص حياته سلفاً ؟ والمصلحة الجزئية ، وبخاصة إذا كانت كسباً إضافياً ، تقنعه ، أما ماذا وراء الأكمة ، ما الذي يبيت من وراء هذا الكسب الاضافي ، فذلك مالا يخطر على باله ؛ إنه تخفف من بعض الاعباء وهذا يكفيه . ويستأثر باهتمامه ومصلحته الخاصة ، قد يرضيه بعض الرضي أو كله أن يحصل الآخرون على مصالحهم أيضاً ، ولكن الاصل مصلحته الخاصة وهمه محصور فيها .

تلك هي حال الانسان بعامة ، يستنفد طاقته وتفكيره المصالح العاجلة الموقتة الجزئية الفردية ، أما المصالح الآجلة الدائمة الكلية، أما مصالح الأمة والطبقة أو أية جماعة أخرى فليس عنده فيض من جهد وفضل من وقت للتفكير فيها والعمل

ا ، وأما أن يضحي بمصالحه الفردية العاجلة الموقتة الجزئية في سبيل المصالح الجمعية الآجلة الدائمة الكلية فتلك مرحلة متقدمة جداً يحتاج الى اعداد طويل حتى يستطيع ان يبلغها . ووظيفة النظرية هي بالضبط نقله الى هذه المرحلة ، تغليب الجمعي الكلي الدائم المقبل على الفردي الجزئي العابر الراهن ، هي ان تجعله يتوقف متأملا حظه وحظ سواه وجهده وجهد سواه واستحقاقه واستحقاق سواه والنظام الذي يوزع الحظوظ على غير ماتقتضي الجهود والحقوق ، وأن تقنعه بامكان تغيير النظام أو نفسه نهائياً لاحلال نظام آخر محله أعدل في توزيع القسم وأحفظ لكرامة الانسان ، وأن الطريق الى هذه الغاية هي التضامن مع أشباهه وتعليق المصلحة الصغرى في سبيل المصلحة الكبرى والكفاح العنيف العنيد المستمر .

إننا نتحدث حتى الان وكأن المصالح أشياء ذات حدود أو كائنات تدرج على قوائم وتكفي الاشارة إليها لتعريفها . إنها أشد تعقيداً من ذلك . إنها علاقات كثيرة الاشتباك ليس يسيراً أبداً تمييزها . فمصالح شركة ، أصحابها ومهندسيها وفنيها وعمالها ، متوحدة نوعاً من التوحد رغم ماينخرها من تناقضات أساسية ؛ وازدهار الشركة قد يرتد على العمال ، ولو جزئياً ، زيادة في الأجر أو التعويضات إذا كان أصحابها من دهاقنة الرأسمالية المتبصرين ، وإفلاسهم يعم بأثره السيء العمال أيضاً إذ يرمي بهم في البطالة . بينما قد لايجمع عمال هذه الشركة لعمال شركة أخرى أي جامع واضح من مصلحة ، بل قد يكون بين مصالحهم تناقض موقت يجعل دمار أحد الجانبين كسباً للجانب الاخر . إنما هو مثال بسيط ضربته ، وهناك آلاف المسارب الملتوية الضيقة والمتسعة تسرب فيهاالمصالح ،مؤلفة بين المتناقضات أصلا،مباعدة بين المتقاربات أصلا ، مفرقة بين مصالح الفرد وجماعته، والجماعة وطبقتها ، والطبقة والأمة التي تنتسب إليها ، والأمة والانسانية.فليس أشق من كشف التناقضات الأصيلة والتناقضات الثانوية في المجتمع ، وإقناع الناس بصحة هذا الكشف،والدفع بهم في طريق الكفاح السياسي الشاقة ،وتلك هي مهمة النظرية أيضاً.

ولا تقتصر وظيفة النظرية على تعريف المصالح، وتمييز المصالح الأصلية الثابتة من المصالح الفرعية العابرة وكشف المتناقضات وتبيان ما كان منها أساسياً أوثانوياً. **ذلك هو جانبها الايجابي ، وإن لها جانباً سلبياً هو شق العروق من النظريات الفكرية القائمة المسلم بها** والأوهام الغيبية والتقاليد والأعراف والعادات والقوانين ، هي إدماؤها ثم تحليل هذه الدماء وإبراز عناصرها من المصالح والمنافع الاقتصادية ، هي نزع القدسيات التي كرستها القرون عن الأجساد النخرة للأنظمة الاقتصادية والسياسية وألوان الاستغلال الوحشية المنطوية فيها ، تلك الأنظمة التي زالت أسبابها أو كادت تزول والتي يعود بقاؤها أو استمرار بقائها الى آثار مبدأ القصور الذاتي في المجتمعات ، والى حقنات تهبها مظاهر العافية مظاهرها فقط ، أو إلى ضعف الاندفاع التقدمي أوتسميمه بخبث وكيد . فاليمين الممثل للمصالح الاقتصادية الآفلة ، إذا كان لا يجد ضرورة دائماً لاقامة نظرية فكرية تبرر النظام القائم مكتفياً بالشرعية التي يتلفعها بها ، فقد كان في أيام خالية يساراً وكان ثورياً وكانت له نظرية ، وهو يرفض أن تكون نظريته ذات صفة تاريخية بل يصر على أنها ذات صفة مطلقة وأنها تعبر عن الحقيقة كل الحقيقة والى الأبد ، ويحاول أن يفرغ الجو من كل النظريات الأخرى إما بالمكافحة العلنية أو بنوع من المكافحة الخفية يعتمد فيها كل مافي جعبة الانسان من تقديس للماضي وكسل فكري واستكانة للمسلمات وخوف من التشكك والقلق واستراحة للحلول الجاهزة لمشكلات الكون والمجتمع ، وهو — اي اليمين — يفرع حين الضرورة نظريته ويشققها ويشتق منها نظريات وعقائد يضفي عليها اسم الجدة والعصرية .

فوظيفة النظرية التقدمية هي زلزلة المجتمع زلزالا عنيفاً ، هي تفتيح العيون المطبقة على أوهام الماضي بكلاليب من حديد محمي ، هي طرح العقول من شاهق في هوةالشك والقلق الرهيبة ووضعهادون رحمة وجهاً لوجه أمام التوهج المحرق توهج المشكلات . وليست هذه مهمة سهلة ، وليست المرحلة الأقل خطورة في الكفاح

السياسي ، بل ربما كانت أخطر المراحل وأشق المهات ، وبخاصة أن المصالح التي تعبر عنها النظرية مصالح بازغة ، في البدء على الاقل ، لم تؤت بعد الوضوح ولم تمتلىء بالقوة .

فالنظرية بعمليها الهدام والبناء ، بنفضها النظريات العتيقة عن مضموناتها الاقتصادية وبتعبيرها عن المصالح الاقتصادية الناجمة البازغة ، تعفي على كل المجاري التي كانت تمتص القوى فتبعثرها وتضيعها ، وتحفر المجرى واسعاً بين عالم الدوافع والمصالح الاقتصادية فتنقل الى هذه كل مافي تلك من قوة أي تتكون القوى التقدمية تكوناً جديداً ، أي تولد ميلادها الواقعي . وتقوم النظرية في المجتمع بعملين موازيين لهذين ومتواقتين معها : **عمل تمزيق وعمل تكتيل.** إنها تضع فيصلها في المجتمع فتقسمه إلى قوى الرجعي وقوى التقدم . وهنا أيضاً تمنع الضلال والبعثرة حين تزيل ما كان في المجتمع من تداخل في القوى لايمكن أن يكون إلا على حساب القوى التقدمية . فتتحول عندئذ المصالح الاقتصادية الى كفاح سياسي ، أي إن النظرية تتوسط بين المصلحة والعمل فتنقل الىهذا ماتنطوي عليه تلك من قوة . وعلى الطريق الطويلة المرهقة طريق الكفاح ، تقوم النظرية بوظيفة الحافز والدليل : تمسك القوى التقدمية عن التراخي والتعب والرضى بالمكاسب الجزئية وتشير الى الوجهة الصحيحة بما يرسم من خطط مستوحاة منها ومن عقبات الطريق وشدائد العمل بل متولدة من التفاعل بينها وبين عقبات الطريق وشدائد العمل .

فاذا التفتنا الآن الى الحياة السياسية لهذا المشرق العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر وطبقنا عليها هذه الوجهة من النظر ، ماذا نجد ؟

أولاً — ان المشكلات التي طرحت على الانسانية طرحت على الأمة العربية، قد تكون مختلفة قليلاً أو كثيراً في قسماتها وفي درجة إلحاحها وفي نوعية حلولها ، ولكنها تظل المشكلات نفسها . ولا عجب ، فالأمة العربية بدأت تتنسم ريح العصر

وقــد أنجزت أوربا وامريكا ثورتها الصناعية منذ زمان والاكتشافات العلمية الكبرى — حتى الذرة وإن تأخرت تطبيقاتها — قد غيرت بل قلبت الحيـــاة الانسانية من الجذور، ومدافع الاستعمار لم تضرب موانيها من بيروت الى أغادير فقط بل ان دواليب هذه المدافع قد جرحت بعمق أرضها في مناطق كثيرة. أي إن يقظة الامة العربية حصلت والارض قد بدأت وحدتها الممزقة، وقد أخذت كل أمة لا تستقل بمصيرها وتنعزل عن العـالم سواها. وإذا أمكن بعض الأمم لبعدها عن مراكز الحضارة الراهنة وانعزالها أو سعتها الخارقة جغرافياً أن تحيط نفسها موقتاً بشبه سور، فماكان يمكن الأمة العربية ذلك مع قربها من أوربا وموقعها الجغرافي المنتشر على أخطر خطوط المواصلات في العالم وعلاقاتهـــا المتوترة مع الغرب. ولذلك كانت المشكلات الانسانية مشكلات للأمة العربية مفروضة عليها فرضاً، بل ربما كانت مشكلة المشكلات بالنسبة لهذه الأمة هي: إما أن تبلغ درجة متقدمة في الحضارة وإما أن لا تكون. كان ذلك دائماً وسيكون، وكان بخاصة منذ ما نفذ العلم في الحياة هذا النفـــاذ العظيم. وهكذا طرحت على الامة العربية مشكلتا العصر، عصبيتـــا العصر، **مشكلة القومية ومشكلة الاشتراكية.**

ثانياً — طرحت مشكلة القومية على العرب حين طرحت على الترك، في أعقاب الحروب والأزمات البلقانية والتدخلات المستمرة من قبل دول الاستعمار الكبرى حينذاك، انكلترا وفرنسا وروسيا، في شؤون الدولة العثمانية والاعتداءات المتكررة على أطراف هذه الدولة واقتطاع أجزاء وأقطار منهـا، أي في أواخر القرن التاسع عشر بعد حوالي قرن من طرحها على اوربا. فقد شعرت البورجوازية التركية المثقفة بضرورة الخروج من عقلية العصر الوسيط والدخول في العصر الحديث بكل ما يحمله من علم وآلة وقومية. وشارك في هذه الحركة الشباب العرب المثقف الموجود في الجيش العثماني وفي استنبول وبخاصة في جامعاتها. ولكن سريعاً

ما تكشفت القومية التركية عن تعصب طوراني استدعى موقفاً معاكساً من المثقفين العرب فبرزت فكرة القومية العربية للوجود.

تلك ظروف طبيعية لولادة مبدأ القومية عند الأمة العربية، ولو انها في البدء كانت موقفاً سلبياً. وفيها نجد دور الفكر، دور المثقفين في جمعياتهم وأنديتهم السياسية والثقافية السرية والعلنية. ولكن ما ليس طبيعياً أن المثقفين لم يتكشفوا حينذاك عن أي أصالة. لقد طرحوا مشكلة القومية على النحو الذي طرحتها اوربا الغربية، فكانوا مقلدين للحركات القومية في أوربا، وللفكر القومي الألماني بخاصة. ذلك بينما كانت الصورة الاولى التي تجلت فيها القومية العربية هي التحرر من الاستعمار التركي، في حين أن القومية الاوربية كانت قد أخذت بوضوح صورة الاستعمار المنصب على الأمة العربية. **ولو ان المفكرين العرب استطاعوا أن يميزوا بين القومية الأوربية العدوانية والقومية العربية الانسانية، ما وقعوا في أحبولة محالفة استعمار متقدم كالاستعمار الأوربي ضد استعمار منهار كالاستعمار** التركي، ولما قامت الثورة العربية، أو ما يدعى الثورة العربية، على أساس من هذا التحالف الغبي، بأرحم تعبير، مع الاستعمار الغربي والاستعمار الانكليزي بخاصة.

وبعد أن انتهت الثورة العربية الى نهايتها المحتومة: استعمار آخر منطقة عربية من قبل الاستعمار الحديث وتقسيمها الى أجزاء ودويلات، أخذت تبرز فكرة الوحدة العربية. لقد كانت هذه الفكرة من جملة مضمونات القومية العربية، ولكنها كانت في المكان الثاني متوارية وراء فكرة التحرر، ذلك الى انها كانت تعني توحيد عرب آسيا فقط. برزت هذه الفكرة ولكنها ظلت في الواقع شعاراً لا أكثر، وظل العمل القومي منحصراً في حدود القطر وظل هدفه المباشر التحرر. ولم تقف هذه الفكرة جدياً في المكان الاول الى جانب فكرة التحرر الا بعد الحرب العالمية الثانية حين أسست أول حركة سياسية تتجاوز في تكوينها

وأهدافها القطر الواحد. ولكن هذه الفكرة ظلت خامة، أولى أن لا تدعى فكرة، لأن أياً من المفكرين القوميين لم يطرح هذا السؤال: كيف ستكون هذه الوحدة بين الأقطار العربية؟ ولذلك انتهت أول وحدة عربية الى النهاية المحتومة لها، الى تفككها، الى الكارثة.

ثالثاً – أما الاشتراكية، فلئن ألقيت بذورها في أوائل العقد الثالث من هذا القرن، فانها لم تبرز شيئاً في المجتمع العربي الا قبيل الحرب العالمية الثانية ولم تصبح قوة فعالة الا بعدها، أي انها هي أيضاً طرحت على الامة العربية بعد حوالي قرن من طرحها في أوربا. واذا كانت القوميـــة قد استكملت حين نشوئها أسباب وجودها ولكنها تشكلت تشكلاً كاذباً حين قدت على الطـراز الغربي، فالاشتراكية قد نشـــأت وتشكلت، بالتقليد، على النحو الاوربي. لست من القائلين بأن الاشتراكية تسبق أوانها اذا سبقت في نشوئها نشوء الصناعة وسيطرتها على المجتمع وتكون طبقة البروليتاريا، فموعدها قد حان وفي العالم كله منذ أن انقلبت الرأسمالية الى استعمار فرض على الأمم المتخلفة ضروباً من الاستغلال والمهانة تفوق بكثير ما تعانيه البروليتاريا الأوربية من استغلال. ولكن الاشتراكية مع ذلك نشأت نشوءاً زائفاً في المشرق العربي لأن فكرة وجود بروليتاريا أخرى غير البروليتاريا الغربية هي غالبية الشعوب المتخلفة المستعمرة لم تكن ماثلة عندها بل لم تعترف بها ولما تعترف. كل ما كان ماثلاً في أذهان مؤسسي الاشتراكية حينذاك هو نموذج بعض الاحزاب الاشتراكية الاوربية.

والهام في الموضوع أن هناك تيارين اشتراكيين: تيار ما يدعى الاشتراكية العربية، والتيار الشيوعي. فاذا تساءلنا ماهي هذه الاشتراكية العربية ورجعنا الى ما كتبه مفكروها فلن نجد شيئاً، قد نجد أفكاراً غامضة نؤولها نحن بأنها عدالة اجتماعية، أما أفكار واضحة، ولا نقول نظرية، فشيء لن نقع عليه البتة. هناك شيء واحد واضح وهو أن هذه الاشتراكية ندبت نفسها لمحاربة الشيوعية،

وكأنما يمكن أن يكون نظرية لحركة سياسية عداؤها لنظرية أخرى . لقد جمعت جمعاً خارجياً بين فكرتي القومية والاشتراكية وأصرت على أنهما مترابطتان، دون أن تبين كيف تتولد إحداهما من الاخرى تولداً عضوياً ، أو كيف تتولدان كلتاهما من موقف فكري واحد أونظرية فلسفية أو اجتماعية واحدة .

أما الشيوعية فهي تمتلك نظرية كاملة وتمتلك فوق ذلك تطبيقات هذه النظرية على ظروف اجتماعية واقتصادية مختلفة وتجربة اشتراكية في النضـــال والتطبيق واسعة النطاق . ولكنها لم تشأ أن تفيد لا من النظرية ، ولا من التطبيق ، وكفت بصرها عن المجتمع العربي وما يمور فيه من قوى ، واعتبرت نفسها خلية في جسد ضخم ، موقف قد يكون مبرراً وقد يكون لا تبرير له ، لا أريد أن أحكم وإنما أريد أن أدرس ظاهرة اجتماعية دراسة موضوعية جهد الطاقة .

ذلك هو شأن اليسار في الشرق العربي . وهو كما قدمنا المدعو للتفكير العميق المدعو لوضع النظرية المدعو للاهتداء بهديها في كل منعرج في طريق السياسة وما أكثر المنعرجات في هذه الطريق .

رابعاً — فاذا كان أثر الفكر في السياسة يتبين في أن الفكر السياسي فيما يقدم لنفسه من خير أو يدفع عن نفسه من ضر ، **إذا** كان أن يبيت السياسي للآخرين وأن يدبر المؤمرات ، وأن يحسن المرور بأقصر وقت وأقل جهد الى الحكم وأن يفيد منه أكبر فائدة بأضيق نطاق من الفضائح ، **إذا** كان أن يضع السياسي شعاراً هو اول من يتنكر له عند الضرورة وهو على كل حال ليس أفهم له من الاخرين ، **إذا** كان أن يحسن النية ويتكل على المقادير وله من صفاء نيته درع سابغة ، **إذا** كان أن يتنـــاول أقرب مايصل إليه من بحوث عباقرة الفكر والسياسة في العالم ويدعيه لنفسه ثم لا يكون عنده من جرأة الفكر مايسمح له بتطوير ما استعار حسب مقتضيات واقع الأمة التي نصب نفسه لها قائداً ، **إذا** كان أثر الفكر يتبين في ذلك وفيما يشبهه وهو كثير ، فكل زعيم سياسي بل كل من

هب ودب في عالم السياسة في هذه البلاد كان مفكراً وكان عمله السياسي منظماً خير تنظيم من قبل التفكير والتقدير وكانت التيارات السياسية تيارات فكرية أيضاً .

أما إذا فهمنا أثر الفكر في السياسة على ان ينطلق العمل السياسي من نظرية كاملة واضحة أو شبه نظرية ، وأن تكون هذه النظرية مغروزة الجذور عميقاً في الواقع تعبر عن قواه التي تدب في أحشائه ، وأن تظل دائماً في تفاعل مع الواقع ، وأن يولد هذا التفاعل الخطط السياسية المرنة حقاً ولكن الواضحة وغير المائعة ، وأن تحدد هذه الخطط الأهداف القريبة مع التأكيد على صفتها الموقتة لتكون درجات في السلم الصاعد دائماً نحو الأهداف النهائية ، وأن تعرف هذه الخطط القوى المتصارعة والمترددة وتقلب القوى حسب تقدم الكفاح أو انكفائه وأن تثقف قوى الشعب التقدمية باستمرار وتنظمها بحزم — أما إذا فهمنا أثر الفكر في السياسة على هذه الصورة ، فلن نجد له مع الأسف دوراً ذا بال في كل الحركات السياسية التي نجمت في هذا المشرق العربي ، التي كانت وفسدت ، نشأت وماتت .

ولكن لماذا لم يؤثر الفكر في السياسة تاثيراً حاسماً ؟ لماذا لم توجد نظرية سياسية تنتظم على هديها التيارات السياسية ؟ لماذا حين استعيرت النظرية لم تدخل في التداول ، بل ظلت مبعدة عن الناس كأنها الرصيد الذهبي محفوظاً في كهوف مصفحة ؟ لماذا كانت العاطفية والعفوية والارتجال والانتهاز هي الصفات التي يمكن أن توصف بها الحركات السياسية السليمة -أقول السليمة- في المشرق العربي ؟ ولماذا كان العقل والارادة والتخطيط والثورة في عالم السياسة عندنا غرائب كغرائب الابل مبرّحة ضرباً مطرّدة ؟

لا جواب على هذه الأسئلة مختصراً إلا في الرجوع الى الساسة والمثقفين، والبحث عن استعدادات الأولين الفكرية واستعدادات الآخرين للانتاج الفكري

والأبداع . ولن نجد عند الجانبين ـ ما عدا القليل النادر ـ إلا جهالة وضحالة وعقماً . أما السياسيون فهم ، في معظمهم ، أبعد الناس عن الفكر والثقافة ، بل إنهم لا يكنون لبعضهم العداوة ، على عظم ما يثور بينهم من خـــلافات ، بمقدار ما يكنون للفكر والمفكرين والثقافة والمثقفين ، ولو قلبت الصحائف التي كتبت من قرن ، على سطحيتها ، لما وجدت لقادة السياسة منها إلا مئات الصفحات ، ومعظمها يتصل بيوميات السياسة . حتى إن من شدا منهم شيئاً من العلم في دراسته الجامعية ينساه أو يكره على نسيانه وهو يدور في متاهات السياسة ، بل إن من كان منهم يمتهن العلم والتعليم لا يفيد من علمه شيئاً إلا في المناورة والكسب السياسي. أما المثقفون في هذه المنطقة ، ولا أقول المفكرون ، فهم متعيشون بالثقافــــة لا مثقفون . إنهم ينقصهم الحد الأدنى من خلق العلماء والمفكرين . وفتش عن معظم هؤلاء المثقفين فستجدهم تحت آباط السياسيين ، لأنهم ينتظرون بصبر نافد اليوم الذي يتخلصون فيه من عالم الثقافة ليدخلوا في عليين ، كما يرون ، في عالم السياسة والساسة .

ولكن يظل هذا السؤال مطروحاً : ما السبب ؟ لا أستطيع أن أقدم سبباً أطمئن اليه . قد يكون السبب أن نظاماً واحداً يشمل الأرض كلها لا إرادة له أقوى من إرادة إنسان أو أمة؛ هذا النظام ينطلق من مراكز الحضارة على هذه الأرض ويمثل روحها : العلم . ونحن في هذا المشرق العربي لما نستطع أن نتمثل هذا النظام ، لما نستطع أن نستبطنه ، إن صح التعبير ، أي أن نحوله من نظام خارجي الى نظام داخلي ، يسيرنا : تفكيرنا وسلوكنا من الداخل ولا يسيرنا من الخارج ، أي كأننا في غير مكاننا في هذا العالم ، كأننا مبتوتو الجذور من الزمان والمكان . فغير غريب إذن أن نفتقد النسغ الحي الذي يهبنا الأصالة والعمق ، الذي يجعل تفكيرنا تفكيرنا ، وسلوكنا صورة من تفكيرنا ، ويجعلها قادرين نافذين في الواقع منتجين مبدعين . قد يكون هذا هو السبب ، أقول : قد يكون ..

هذه هي الحقيقة ، إنها علقم ، ولكنها يجب أن لا تلفظ ، يجب أن تتذوق حتى الثمالة ، ثم يعبر عنها بـكل أساريرها القبيحة ، لتكون تجربة مثقفة هـادية لهذه الأمة ، تدوس عليها لترتفع الى تجربة أخرى عساها تكون منـيرة الجوانب والأعماق بالفكر والنظرية .

•

ترتيب الابواب ونشر المواد في المعرفة

ان هيئة تحرير المعرفة تود أن توضح بأن ترتيب المواد في هذه المجلة وموعد نشرها يخضعان في الاعتبار الاول لترتيب الابواب : علوم اجتماعية ، آداب ، فنون ، تيارات فكرية ، ولضرورة التنوع ضمن حدود الابواب ، كما لا غنى عن اخضاعها لتاريخ وصول المواد الى الادارة .

وان هيئة التحرير اذ تحرص على اداء عملها بكل دقة وشعور بالواجب ، نحو كبار المثقفين ورجال الفكر محافظة دائماً بفضل كتابها في كل عدد على المستوى الراقي ؛ تؤكد لكل من الاساتذة الذين تفضلوا فلبوا دعوتها وأجابوا على رسـائلها ، صادق الاحترام والتقدير ، ويسعدها ان تتلقى اية ملاحظة تساعدها في تصويب منهجها ، وأداء مهمتها على الوجه الاكمل واثقة كل الثقة بالروح السمحة الكريمة التي يتصف بها رجال العلم والادب والفن .

الحضارتان

حضارة الأدب وحضارة العلم

بقلم : شارل سنو

ترجمة قلم التحرير

حل هذا المقال محل الحلقة الرابعة من سلسلة – كيف نفهم التاريخ – التي سنواصلها في العدد القادم

المشكلة التي أتعرض لها في هذا المقال، شغلت حيزاً كبيراً من أفكاري بحكم الظروف التي أعيشها ، فأنا من حيث المهنة كاتب محـــترف ، وأنا من حيث الهواية والتجربة عالم أتاحت لي ظروف الحرب العالمية الثانية أن أشارك في أمتع الأبحاث العلمية الهامة التي جرت في جامعة كامبردج. ولهذا فقد كنت خلال ثلاثين عاماً على اتصال دائم بالعلماء ، ليس بدافع من حب الاستطلاع فقط ، وانما بدافع العمل الذي أقوم به . وخلال هذه الثلاثين عاماً شغلت أيضاً بانتاج الكتب التي ألفتهـــا ، والتي وضعتني في مصاف الكتاب والباحثين .

وبسبب التنقل الدائم بين حلقتي الكتاب والعلماء تلمست أطراف المشكلة بين الحضارتين. إذ كنت أشعر دائماً أثناء انتقالي بينها بأنني أتنقل بين طرفين متكافئين في الذكاء والنجاح والمستوى الاجتماعي والدخل المادي، ومع ذلك فان العبور من واحدة الى أخرى يجعلني أشعر شعور من يمخر المحيطات.

وفي الحقيقة أعتقد أن الحياة العقلية للمجتمع الغربي بأكمله يزداد انفصالها الى قسمين. وحين أقول «الحياة العقلية» أعني بذلك ايضاً الحياة العملية، لأنني آخر انسان يؤمن بامكان الفصل بينها إذا تعمقنا أسسها. هناك قطبان رئيسيان لحياتنا العقلية: في القطب الأول نجد الثقافة الأدبية والأدباء — وقد دعوا أنفسهم «المثقفون» وكأنه لا يوجد غيرهم يستحق هذا الاسم — وأذكر أن البروفسور ج. ه. هاردي عالم الرياضيات المشهور رآني مرة في كامبردج فقال بلهجة لاتخلو من الدهشة: — **هل لاحظت كيف أصبح استعمال كلمة «مثقف» هذه الايام؟ يظهر ان لها تعريفاً جديداً، لا يشمل رذرفورد ولا ادينغتون ولا أدريان كما انه بالتأكيد لا يشملني أيضاً. إن هذا فظيع.** —

وفي القطب الثاني نجد العلماء، وعلى الأخص علماء الفيزياء. وتفصل بين قطبي الثقافة هذين هوة من سوء الفهم المتبادل الذي يصل أحياناً الى درجة العداء والخصومة، وإن كان في معظم الوقت يظل في حدود عدم تفهم الطرفين بعضهما للبعض الآخر وبخاصة الشبان منها ويملك كل منها صورة مشوهة عن الطرف الآخر. وتختلف اتجاهاتها اختلافاً يصعب معه أن نجد بينها صلة حتى على الصعيد العاطفي، إذ ينظر الأدباء الى العلماء على أنهم متهورون في اندفاعة غرور لامبرر لها. ويعلق إليوت أمله في بعث الشعر الدرامي على ظهور شعراء يجددون عهد اليونان، ويعلن اندوره ودور زملائه يقتصر على التمهيد لهم. وهذه لهجة رجل مغلوب على أمره ولا ننسى أن هذا هو شعور الأدباء عامة في كافة مجالاتهم، مما يفضح اعترافهم بانهزام حضارتهم وأفول نجمها.

وبالمقابل يرتفع صوت حضارة أخرى ليعلن على لسان رزرفورد « **هذا هو عصر بطولة العلم . إنه العصر الذهبي !** » وقد سمع الكثيرون هذا التصريح وتصريحات أخرى تعلن انتهاء السيطرة الأدبية على الحضارة الغربية . ويصعب على ذوي الثقافة الأدبية أن يسلموا بصحة ذلك الادعاء .

ولنقارن بين قول إليوت « هكذا ينتهي العالم : لا بضجة بل بنشيج » وبين جواب رزرفورد حين قال أحد زملائه « ان الزميل رزفورد سعيد . إنه في قمة الموجة على الدوام » . فأجاب « حسناً . أنا الذي صنعت الموجة، أليس كذلك؟

وفي نفوس غير العلماء من الناس اعتقاد راسخ بأن العلماء قوم متفائلون وسطحيون لأنهم لا يعلمون شيئاً عن الشرط الانساني . كما أن لدى العلماء اعتقاداً أرسخ بأن الأدباء جميعهم يفتقرون الى بعد النظر وخاصة فيما يتعلق باخوانهم في الانسانية . وبمعنى أعمق إنهم غير مثقفين بسبب محاولتهم تقييد الفن والفكر باللحظة الراهنة . ويغلو الطرفان في الاتهامات التي لا يخلو أي منها من أساس صحيح وإن كانت بمجملها مخربة ويمكن تعليلها بسوء الفهم وما في ثناياه من أخطـــار تهدد الطرفين معاً . وسوف أعالج تهمتين من اهم الاتهامات المتبادلة .

التهمة الأولى تبحث في تفاؤل العلماء . وهي تهمة شاعت حتى أصبحت مبتذلة . وقد صاغها عقل أدبي محض . وهي تخلط بين التجربة الفردية وبين التجربة الاجتماعية . كما أنها لا تفرق بين الشرط الانساني للفرد وبين الشرط الانساني لمجتمعه . فمعظم العلماء الذين أعرفهم معرفة جيدة يشعرون — بنفس العمق الذي يشعر به الادباء الذين أعرفهم معرفة جيدة — بأن الشرط الانساني لكل فرد منا هو شرط مأساوي . فكل فرد منا وحيد معزول . واننا أحياناً نفر من عزلتنا الى الجنس او الحب او الى بعض لحظات الابداع ، لكن انتصار الحياة بهذه الاشكال ليس الا ومضات تضيء أنفسنا في حين يبقى طريق الحياة مظلماً مقفراً أمامنا . وكل منا يموت وحيداً . بعض العلماء ممن عرفت يؤمن بدين سماوي ، ولا أدري اذا كان

هذا الايمان يعزى الى ضعف احساسه بالشرط الانساني . لكن هذا يصدق على العلماء وعلى غيرهم من البشر .

ولكن معظمهم — ومن هنا يبدأ تفاؤلهم — لا يرى في مأساوية الشرط الفردي سبباً لأن يكون الشرط الانساني مأساوياً للمجتمع أيضاً . كل فرد وحيد معزول ، وكل انسان يموت وحده . هذا صحيح . وهو قدر مكتوب لا نستطيع شيئاً ضده — ولكن ثمة أمور في شرطنا الانساني ليست قدراً مفروضاً علينا . بل على العكس ، اننا نتنازل عن انسانيتنا اذا لم نناضل ضدها .

فمعظم البشر لا يتناولون كفايتهم من الطعام مثلا ويموتون في سن الشباب. وهذه الحالة شرط اجتماعي . واذن فهنـــاك مزلق أخلاقي يكمن في موضوع عزلة الانسان . وهذا المزلق يغري الانسان بأن يجلس دون عمل ليتأمل في أدبولعاف مأساة عزلته ، ويترك الآخرين دون لحم أثناء الطعام .

والعلماء أقل من غيرهم وقوعاً في هذا المأزق ، بل تبدو عليهم قلة الصبر أثناء بحثهم عن حل لهذه المشكلة ، وهم يميلون الى الاعتقاد بوجود حل ، ويظلون كذلك حتى يثبت لهم العكس . هذا هو تفاؤلهم الحقيقي . وهو تفاؤل نحتاج اليه بصورة مريعة . ان هذه الروح النضالية لتحرير البشر قد جعلت العلماء يحتقرون الاتجاهات الاجتماعية لغيرهم من الناس وخاصة الأدباء .

وقد قال لي أحدهم : « لماذا يتبنى الأدباء آراء اجتماعية لاتخدم المدنية ولا الحياة المعاصرة مع أننـا في عصر خصب ؟ ألا يصدق هذا الحكم على معظم أدباء القرن العشرين ؟ أليس ييتس وبوند وويندهام لويس وتسعة أعشار الذين صاغوا مفهومات الأدب الحديث — أليسوا بلهاء سياسياً ومخربين من الناحية الاجتماعية؟»

ظننت آنـذاك ، وما زلت أظن أن الجواب الصحيح يكون في عدم الدفاع عما لايمكن الدفاع عنه . فليست ثمة فائدة في ان نقول عن ييتس بأن شهامته الشخصية تعادل شاعريته الفذة ؛ وليست هناك فائدة في انكار الحقائق الصادقة

التي تدين معظم أدباء القرن العشرين بمشاعرهم العدائية تجاه المجتمع . وهذا واحد من أسباب عديدة ، جعلت قسماً من النـــاس ينبذون الفن ويحاولون أن يشقوا لأنفسهم دروباً اخرى في النشاط الفكري . ولكن على الرغم من ان معظم اولئك الأدباء قد صاغوا مفهومات الأدب الحديث للأجيال الصاعدة ، فان نفوذهم ليس على مثل هذا الاتساع الذي نظن ، بالاضافة الى انه لم يعد كما كان من قبل . نقول هذا مع أننا نغفل حقيقة أساسية تتعلق بطبيعة التطور الأدبي : إن الأدب أبطأ تطوراً من العلم ، وليس في عالم الأدب التصحيح الاوتوماتيكي للأخطاء الفكرية، ولهذا السبب تطول فترة الضلال الأدبي . ولعل العلماء يتحاملون على الأدب حين يحكمون عليه استناداً إلى مابين ١٩١٤ــ١٩٥٠ من السنوات الـــتي وقعت تحت سيطرة أدباء غير اجتماعيين .

هذان مثالان عن سوء التفاهم بين الحضارتين . وهذا أمر غالباً مانوقشت فيه ، وكانت وجهة نظر غير العلماء أن تعبير « سوء التفاهم » ينطوي على تبسيط مبالغ فيه . إذ لو اراد شخص ما أن يناقش هذه الاصطلاحات لوجد ان هنـاك ثلاث حضارات على الاقل . **ويقول هؤلاء انهم على الرغم من انهم ليسوا علماء فانهم يشاركون العلماء الى حد كبير بالاتجاهات العلمية والشعور العلمي ، وانهم يحاولون أن يشقوا درباً ثالثاً يجعل الأدب على لقاء مع العلم في عشر السنوات الماضية** . ويعلن هؤلاء أنهم يستنكرون الأدب الذي لايحمل اتجاهـاً اجتماعياً ، وأنهم يضمنون أدبهم كل الآمال التي يحملها العلم للبشر .

إنني أحترم هذا الرأي . وأعترف أن تقسيم الامور الى قسمين ينطوي على خطر منطقي .

ولكننا إذا نظرنا الى الحضارة العلمية وجدنا أنها حضارة حقيقية ، ليس بالمعنى العقلي الثقافي فقط ، بل بالمعنى الانساني أيضاً . إن أعضاء هذه الحضـارة لا يفهمون بجمل فروعها ، ولا يحتاجون الى ذلك أيضاً ، فعـــالم التشريح لا يهتم

كثيراً بالفيزياء الحديثة ، ولكن هناك اتجاهات عامة ومقاييس ونماذج للتفكير العلمي ، وافتراضات عامة تتوسع وتتعمق حتى تتخذ شكل أسس واصناف عقلية .

ولو أجرينا احصاء بين العلماء لوجدنا أن أكثرهم ملحدون بالنسبة الى الادباء ، ويتزايد عدد المؤمنين بين الشبان منهم . كما أننا نجد أن اكثرهم يساريون من الناحية السياسية ، رغم أن الشبان منهم محافظون ولو تحرينا نشأتهم لوجدنا أن اكثرهم ينحدر من أسر فقيرة .. ومع ذلك فليست هذه الامور ذات بال بالنسبة اليهم ، اذ انهم في اعمالهم وميولهم أقرب في اتجاهاتهم الى العلماء — حتى العلماء الذين يخالفونهم في كل شيء — منهم الى غير العلماء — حتى لو كانوا يتفقون معهم في الدين والعقيدة السياسية والطبقة الاجتماعية . وهذا ما تعنيه كلمة « **حضارة** » .

ان انتشار الحضارة الأدبية أعم وأشمل . ومن الواضح أن الانسان حين ينتقل خلال المجتمع الثقافي من الفيزيائيين الى الادباء يجد في طريقه مختلف العواطف ، لكنني أعتقد أن عدم الفهم الذي يقابل به العلم يشمل معظم الحضارة الادبية . فهو يشمل التراث الادبي واصحاب التراث الذين اذا اتفقوا ان المستقبل للعلم ودوا لو أن هذا المستقبل لا يوجد ! ذلك أن الثقافة التقليدية تقلصت بشكل ملحوظ عندما بزغ فجر العلم وبدأ العلماء ينظمون حضارة العالم الغربي .

ان هذا الموقف السلبي خسارة لنا وللمجتمع ، خسارة للابداع وللثقافة وللحياة العملية . فالتكنيكيون يشكلون ربع المجتمع تقريباً . ومعظمهم دون الأربعين . ومن المؤسف أن تكون علاقتهم بالتراث ضئيلة الى هذا الحد ، ومع ذلك فانهم يستعملون الاصطلاحات الادبية بمعان أدق من استعمال الادباء لها . ومع ذلك فان لديهم فنون السمع والبصر ليتمتعوا بها ويتذوقوهـــا . كما ان لهم مشاركاتهم الاجتماعية والاخلاقية **لكن المشكلة هي انهم لا يحترمون الثقافة التقليدية كما يجب ، ولذلك فانهم يعانون نقصاً في المخيلة وفقراً في التصورات .**

ولكن ماذا عن الطرف الآخر ؟ إن معظم الأدباء مازالون يتظاهرون

بالاعتقاد ان التراث الحضاري هو كل الحضارة ، كأن لم تكن لاكتشاف نظام الطبيعة اهمية ما او نتائج ذات بال . او كأن لم يكن البناء العلمي لعالم الفيزياء الحديثة ، من حيث العمق والتركيب والدقة ، أجمل وأبرع ما أبدعه عقل الانسان. لكن المثقفين بتعاميهم عن انجازات العلم لايدرون أية خسارة تحيق بهم . إنهم لايبالون بأخبار العلماء الذين لم يقرأ احدهم أي اثر كلاسيكي، ولذلك فانهم يعتبرونهم اختصاصيين جهلة . **والحق ان اختصاصهم وجهلهم يثيران الذعر ، وغالباً ماسمعت فكاهات المثقفين عن جهل العلماء** ، وقد أغتاظ فأسأل المتكلم الأديب عن قانون التسارع ، وهو ألف باء الفيزياء ، فأواجه بصمت بارد يشابه صمت العالم حين أسأله : هل قرأت شيئاً لشكسبير ؟

يبدو اذن الا مجال لالتقاء الحضارتين ، ولعل بعض هذا الخلاف يعود الى إيماننا بضرورة التعليم الاختصاصي ، والى ميلنا الى بلورة الصيغ الجديدة في المجتمع الغربي بدافع العوامل الاقتصادية ، ولكن ذلك يعني اننا لانجعل الانقسام مرناً بل أكثر صلابة . لقد وضح الانفصال بين الحضارتين **منذ ثلاثين عاماً خلت ، لكنه يكاد اليوم يكون تاماً لأن العلماء الشبان يشعرون بأنهم جزء من حضارة صاعدة وأن الحضارة الاخرى آخذة بالانهيار ، بل لانهم واثقون من أنهم سيحصلون على عمل مربح ودخل مرتفع !!**

قد يكون هذا الانفصال ناتجاً عن أسباب اجتماعية وتاريخية ، وقد يعود في بعض أسبابه الى اختلاف نوعي النشاط العقلي في طبيعتها ، لكن السبب الرئيسي يعود الى ان مثقفي اوروبا الغربية لم يحاولوا ، اويريدوا ، اويستطيعوا ان يفهموا الثورة الصناعية ، بل ان يقبلوها . يصدق هذا الحكم على مثقفي بريطانيا التي كانت اول من ادخل تلك الثورة على المجتمع ، كما يصدق على الولايات المتحدة أوروسيا لقد تسللت تلك الثورة دون ان يلاحظها احد ، وأصبحت فجأة أهم انقلاب في تاريخ الانسانية منذ اكتشاف الزراعة ، لكن الثقافة التقليدية لم تلاحظ ذلك ،

وحين لاحظت لم تعجب بما رأت . على ان هذا لا يعني ان تلك الثقافة لم تنتفع بذلك التطور ، فقد أخذت كامل حصتها من ثروة انكلترا في القرن التاسع عشر لكنها كانت تزداد تجريداً كلما ازدادت غنى . لقد ساعدت هذه الثقافة على تعليم الشبان فن ادارة الامبراطوريات ، لكنها لم تهيئهم لفهم ذلك التطور ولم تشارك به أبداً ، وتركت صناعة ذلك القرن رهناً للظروف ولذكاء رجال الاعمال . وقد قابل **الكتاب من امثال ثورو وامرسون ولورنس ، التطور الصناعي بفزع مخجل ، وجربوا انواع الخيال ليعبروا عن صرخات الرعب التي أطلقوها .** ومن النادر أن نعثر على كاتب ذي أهمية استطاع أن يتخيل ما وراء الـــداخن والشوارع الخلفية من ازدهار للحياة التي تفتح أبوابها للفقراء والمعدمين . لقد **حاول ذلك بعض** كبار القصصيين الروسيين . لكن الكاتب **العالمي الذي فهم الثورة الصناعية** هو هنريك **ابسن في كهولته .**

والحقيقة النهائية هي أن التصنيع هو الأمل الوحيد للفقراء . وقد يكون من الممتع لأحدنا ان يجلس بهدوء ليعلن ان قيم الحياة المادية ليست أمراً مقبولاً لديه

إن رفض الحياة الصناعية هو اختيار فردي . ولذلك فان لك ملء الحق أن تجعل من نفسك أديباً يستوحي الغابات ويتجول فيها . لكنك إذا لم تصحب معك غذاء جيداً فسوف ترى أبناءك يموتون في سن الطفولة وهم يتمتعون براحة الامية والجهل الابدي . ولكني لن آخذ رأيك بعين الاعتبار إذا فرضت موقفك على الآخرين ، وخاصة اذا كانوا لا يتمتعون بحرية الاختيار . مع العلم أننا نعرف مسبقاً ماهو اختيارهم ، فحيثما وجد الفقراء الفرصة فسوف يسعون الى المصانع والشركات لتأخـذ منهم مازيد عن حاجتها .

لقد فرضت الظروف على جدي ان يترك المدرسة في العاشرة ومع ذلك واصل تثقيف نفسه حتى أصبح نموذجاً من رجال القرن التاسع عشر . وكنا ـ نحن احفاده ـ ننظر اليه نظرتنا الى رجل أجهده العمل دون ان يحصل على

مايقابله من نجاح . وإن لم يبد عليه انه يشعر بذلك . ولهذا لم يحمل أي حقد على العالم الذي لم يتح له فرصته ، بل كان يشعر بفخر وكبرياء رغم علمه بأنه خائب ولم يفعل الكثير . ولعل شعوره بالرضى يعود إلى انه كان يقارن نفسه بجده الذي كان عاملا زراعياً مهملا بين وحل الحقول ، ولا يعرف القراءة والكتابة .

وبناء على هذا المثال فان التطور الصناعي يبدو مختلفاً تمام الاختلاف بحسب زاوية النظر التي تقيسه ، من مصنع راق او من الحياة التي سبقتها . والسؤال الوحيد الذي يسأل : كيف نحسن الحياة ضمن هذه الثورة . ان الاقطار المتقدمة في الصناعة قد حققت لنفسها مكتسبات هذه الصناعة : زيادة السكان مع امكان اشباع بطونهم بسبب العلوم التطبيقية والعلوم الطبية المتقدمة . ثم تعميم القراءة والكتابة لأن الصناعة لا تسير بدونها فالصحة والطعام والثقافة جاءت مع مجيء **التطور الصناعي الى الفقراء والاغنياء سواء بسواء . ومع ذلك فهل فهمنا كيف حدث ذلك ؟ وهل بدأنا نستوعب التطور الصناعي القديم لنكون اهـلا للتطور العلمي الحديث ؟**



الصواريخ والأقمار الصنعية

كتاب أصدرته وزارة الثقافة والارشاد القومي هذا الشهر .

تأليف المهندس وجيه السمان

يعالج هذا الكتاب موضوع فتح الفضاء على يد الانسان، ويعرض شتى الوسائل التي استعان بها العلماء والمهندسون للوصول الى الفضاء وعديد المحاولات التي كان نصيبها الفشل الى أن تكللت المساعي بالنجاح في هذه الاعوام الاخيرة.

لقد ظل الانسان ، منذ فجر التاريخ ، يلهج بالطيران وبالافلات من قيد الجاذبية ، ويحلم بالوصول الى الكواكب . وانتقلت هذه الاحلام على أقلام القصاصين وألسنة الشعراء خلال العصور الطويلة ، الى أن آن الأوان، وبلغ تقدم العلم والتكنيك مرحلة سمحت في النصف الأول من هذا القرن بتحقيق حلم الطيران في الهواء، كما مكنت من وضع الأسس العلمية الصحيحة لملاحة الفضاء ، وجاءت بداية النصف الثاني فتحقق حلم السفر الى الفضاء .

من البديهي أن عملاً جريئاً كالسيطرة على الجاذبية سيطرة تامة ، يفوق كل ماحققه الانسان منذ فجر المدنية ، ويطرح على بساط البحث عدداً ضخماً من المشاكل العلمية والفنية كانت الحضارة عاجزة عن حلها قبل عهد قريب . ولولا التقدم العلمي المتسارع ، الذي أصبح يخطو في كل يوم خطوات العمالقة ، ولولا تركيز الحكومات الكبيرة لجهودها على هذا الموضوع وتقديمها الاعتمادات المالية بسخاء متزايد وتعبئتها لخيرة الأدمغة له ، ولولا التسابق والتنافس القائم بين عملاقي الشرق والغرب ، لما أتت ملاحة الفضاء أكلها بمثل هذه السرعة ، فسبقت كل نبوءات المتفائلين ..

— من مقدمة الكتاب —

أهمية الكشف الأثري
في علم التاريخ

بقلم : جبرائيل سعادة

علم الاثار يحيا من اجل غيره ، انه يفكر في العلوم الاخرى اكثر مما يفكر في نفسه ، انه يعتبر النتائج التي يصل اليها جسراً تمر عليه بعض العلوم للوصول الى المعرفة.

نحن نحيـــا ، دون شك ، في عصر بدأت تظهر فيه بوضوح العلاقات الوثيقة بين مختلف مجالات العلم . فأولئك الذين يودون مثلا ان يطلقوا انسانا الى الفضـاء يدركون ان عليهم الاستفادة من معطيات الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والطب ... الخ ... وعلم الاثار هو أكثر العلوم ارتباطا بعدد كبير من العلوم الاخرى ومن بينها : فن البناء وتجميل المدن وعلم اللغات والجيولوجيا والانتروبولوجيا والاتنولوجيـــا والطوبوغرافيا بالاضافة الى اللاهوت والادب والفن ، وأوثق هذه الروابط هي تلك التي تجمعه بعلم التاريخ فهو يعطيه اكثر

مما يأخذ منه . ومع ان علم الاثار يرى احيـــانا في المؤرخ دليلا يقوده في بعض تحرياته ، الا ان المؤرخ ، كما سنرى في هذا البحث ، يستفيد دائما من تحريات علم الآثار وحفرياته .

وبما ان مكاسب العلوم التاريخية من علم الاثار تختلف حسب مراحل تطور البشرية فسنوجز في استعراض هذه المراحل بقدر مايسمح لنا حدود مقال في مجلة ، وسنتجاوز المعلومات المتعلقة بتكوين الارض وظهور الانسان لانهـــا مرتبطة بالجيولوجيا وعلم أصل الانسان أكثر من ارتباطها بعلم الاثار ، لنبدأ بحثنـــا من عصور ماقبل التاريخ أي اعتبارا من ظهور الادوات الاولى التي استعملها الانسان .

عصر ماقبل التاريخ : تطلق عبارة ماقبل التاريخ على الحقبة الطويلة الممتدة من مطلع العصر الحجري الى بدء استعمال الكتابة ، اي من ٥٠٠٠٠٠ ١٢٥ تقريبا الى ٣٥٠٠ قبل الميلاد . وفي حوالي ١٨٦٠ م ، بدأ العلماء يعتبرون بعض قطع الصوان كأقدم أثر لاولى ادوات استعملها الانسان . ومنذ ذلك الحين أخذت التحريات عن عصر ماقبل التاريخ تتقدم دون توقف ولا تزال الابحاث الجارية في هذا السبيل تقدم للمؤرخ معلومات واسعة عن البشرية قبل اختراع الكتـــابة ويمكننا القول بان المؤرخ كان الى ماقبل هذه التحريات في جهل تام بهذه الحقبة من تاريخ العالم . فأصبح بأمكانه على ضوء المعلومات الناتجة عن دراسة الادوات المكتشفة من الصوان والعظام والفخار البدائي ، ان يكتب تاريخ الانسان القديم بالرغم من عدم وجود نصوص مكتوبة لديه او آثار مبـــان ضخمة للسكن . وهكذا انفتح أمامه عالم جديد . ويمكن القول ان التاريخ مدين لعلم الاثار بكل ماسجله عن هذه العصور البعيدة[1] .

(١) راجع ر. مارت : «الحرف البدائية في السلم والحرب» ، تاريخ العالم ، القاهرة ١٩٤٨ ، الجزء الاول صفحة ٢٥٣ الى ٣١٤ .

العصور القديمة : نطلق هذا الاسم على الحقبة الواقعة مابين تاريخ بدء استعمال الكتابة عام ٣٥٠٠ وبين القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو التاريخ التقريبي لبداية المدنية اليونانية ، وتضم هذه الحقبة من الزمن المراحل الثلاث مما نسميه العصر البرونزي والقسم الاول من العصر الحديدي .

ماهي المراجع عن العصور القديمة التي كان يستند اليها المؤرخ قبل الا كتشافات الاثرية ؟.. كان هنالك التوراة الا ان معظم حوادثه محصورة في فلسطين وقد اتى عرضا على ذكر بعض ماحدث في مصر والعراق وسورية الشمالية . وعلاوة على ذلك ، فقد ترك لنا المؤلفون اليونان والرومان بعض المعلومات عن العصور القديمة غير ان هؤلاء الكتاب جاؤوا متأخرين عدة قرون عن الزمن الذي كتبوا عنه ، أضف الى ذلك ان اليونان كانوا يعملون على الاقلال من أهمية المدنيات التي سبقت مدنيتهم مما يشكك احيانا في نزاهة اخبارهم .

أتى علم الآثار وبدأت اكتشافاته تنجد المؤرخ في محاولاته تبديد الظلمات التي تكتنف العصور القديمة . في عام ١٧٩٨ رافقت نابليون في حملته على مصر ، بعثه علمية افتتحت التحريات عن آثار وادي النيل بشكل منظم . وحوالي منتصف القرن التاسع عشر دشنت الحفريات التي قام بها في العراق كل من « بوتا ولايار » التنقيبات الاثرية في بلاد مابين النهرين . وفي عام ١٨٦١ بدأ العالم «أرنست رونان» يقوم بحفريات على الساحل السوري ، وفي عام ١٨٧٠ قام العالم الروسي الاصل «شليمان» بتحرياته في حصارليك — في تركيا — عن آثار مدينة طروادة الشهيرة فلفت بذلك أنظار الاوساط العلمية الى الحضارة الايجية . ومن ثم أخذت التنقيبات الاثرية تتوسع في أماكن مختلفة من العالم (١) .

---

(١) فيما يتعلق بتاريخ التنقيبات الاثرية ، راجع : (W. F. Albright : « From the Stone Age to Christianity » New York , 1957 , p . 25 à 81) .

وفي القرن العشرين وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى بدأنا نجد علماء من جنسيات مختلفة يقومون بحفريات دورية في عدة بلاد من حوض البحر الابيض المتوسط . ومما يبعث على الارتياح انه بعد الحرب العالمية الثانية بدأ منقبون سوريون وعراقيون ومصريون يساهمون في الكشف عن الآثار المدفونة في ارض بلادهم . ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة ان المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية ، بتوجيه مديرها الدكتور سليم عبد الحق ، قد قامت بنفسها ودون مساعدة أي عالم أجنبي ، بحفريات في مواقع مختلفة من سورية (١) .

وهكذا بدأت الارض تكشف عن المدن المندثرة ،ويقول العالم أندره بارو : « في هذه الاراضي القفرة ، تقدم المنقبون وتحت معاولهم أخذت الحضارات القديمة تظهر من جديد . وكنا نظنها مائتة بينما كانت راقدة فقط . ففي العراق انحسرت الارض عن عدة مدن شهيرة وعادت آثار « بابل » العظيمة التي نقب عنها الالمان و « نينوى » التي أجرى الفرنسيون فيها حفريات و « أور » التي كشف عنها الانكليز ، و « نيبور » التي فتش الامير كيون عن أنقاضها . جميع هذه المدن عادت لترى الشمس بعد رقاد دام آلاف السنين تحت الارض (٢) .

وفي سورية اطلت مدينة ماري العظيمة من تحت رمال الصحراء وعلى الشاطىء مازالت اوغاريت تكشف للعالم عن ثرواتها التي لا تنضب (٣) .

---

(١) راجع بهذا الخصوص « حفريات مديرية الآثار العامة » الحوليات الاثرية السورية ، المجلد الاول ، صفحة ١٥٣ الى ١٦٧ .

(٢) راجع بخصوص حفريات بلاد ما بين النهرين : (Soend Aage :« The Antiquity of Iraq» Copenhague , 1956 .

(٣) راجع بخصوص حفريات سورية : الامير جعفر الحسني « الحفريات الاثرية في سورية خلال نصف قرن » الحوليات الاثرية ، المجلد الاول ، صفحة ٧١ الى ٧٥ ، وسليم عبد الحق « سورية ارض عربية تطفح بروائع الآثار » الحوليات ، المجلد السابع ، صفحة ٨ الى ٢٤ ، وابو الفرج العش « آثارنا » دمشق ١٩٦٠ .

وفي مصر بدأت قبور وادي الملوك تكشف عن كنوزها ، وظهرت معابد الاقصر والكرنك بعد تنظيفها وترميمها بأروع مظهر (١) .

علم الآثار هو الذي رفع الستار اذن عن القرون الغابرة ، فظهرت من عالم النسيان شعوب مجهولة وبدأت بعض المشاكل العلمية تجد حلولا لها . كان المؤرخون، مثلا، في حيرة من أمر الشعب الحثي المذكور عرضاً في التوراة دون ان تكون لديهم معلومات عنه فاذا بالحفريات التي أجريت في تركيا وسورية الشمالية اوبالنصوص المكتشفة في عدة مواقع اثرية تعرفنا الى امبراطورية عظيمة لعبت دوراً هاماً في الماضي البعيد وهي الامبراطورية الحثية . كما ان الحفريات التي جرت في جزيرة كريت في مطلع القرن الحالي ، ساعدت المؤرخين على حل مشكلة أصل الحضارة اليونانية كما ان البحث عن أصل العرب، يوجه انظار الاوساط العلمية الى آثار اليمن (٢) .

ومما يزيد في اهمية الاكتشافات المتعلقة بالعصور القديمة ، ظهور عدد كبير من الوثائق المكتوبة في اماكن مختلفة . فأخذت النصوص المسمارية المحفورة على لوحات فخارية ، التي وجدت في العراق وتركيا وسورية ، والنصوص الهيروغليفية المنقوشة على المباني القديمة في مصر ، تحدث انقلاباً في معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم ، قبل هذه الاكتشافات ، وعندما كان المؤرخ يريد ان يبحث عن حوادث الالف الثاني والالف الاول قبل الميلاد كان مضطراً ان يستند الى التوراة او الى المؤلفين اليونان والرومان الذين عاشوا بعد هذه الحوادث بزمن طويل كما ذكرنا . أما اليوم ، وبفضل الاكتشافات الاثرية ، فقد اصبح المؤرخ يستند الى وثائق مكتوبة

(١) راجع بخصوص الاعمال الاثرية في مصر : Pierre Montet « Isis ou à la Recherche de l'Egypte Ensevelie » , 1956 .

(٢) راجع كامل عباد « التنقيب عن آثار اليمن » الحوليات الاثرية ، المجلد الاول صفحة ٧٦ الى ٩٤

ومعاصرة للحوادث التي يتحدث عنها . ان نصوص نينوي ونيبور في العراق ، ونصوص ماري ورأس الشمرة في سورية ، ونصوص بوغازكوي في تركيا ، ورسائل تل العمارنة ونصوص المباني القائمة في مصر ، تشكل وثائق ذات أهمية كبرى يستطيع المؤرخ ان يأخذ منها معلومات وافية عن العصور القديمة . ومن جهة اخرى نستطيع القول ان لهذه الوثائق صفة خاصة تجعلها اكثر امانة لمعرفة العصور القديمة من المؤلفات التي كتبت بعدها ، لان هذه النصوص ليست كتب تاريخ بل رسائل من ملك الى ملك ومعاهدات بين دولة ودولة وعقود بين افراد وصلوات وقصائد وقرارات رسمية ، وبمعنى آخر هي عبارة عن تاريخ حي ، انها تشبه مذكرات دون فيها العالم القديم ، يوما بعد يوم ، أفكاره وأعماله وأمانيه . وهكذا تمكن المؤرخ بفضل علم الاثار ، ان يتصل بشكل مباشر بشعوب الشرق القديم . كان السومريون والبابليون والكنعانيون والحثيون والاراميون والايجيون بالنسبة له عبارة عن اسماء جامدة فأصبحت شعوبا حية يعرف المؤرخ عاداتها وديانتها وأنظمتها وأدبها وفنونها وحياتها اليومية . فعلم الاثار كان الباب الواسع الذي مكن المؤرخ من دخول عالم الحضارات الكبيرة التي عرفها الشرق القديم ، وصح ماقاله بهذا الصدد العالم الاثري الانكليزي فلندرز بتري : لم يعد الماضي مقصورا على ما كتبه اليهود واليونان والرومان الاقدمون ، فقد أزيح النقاب عن الاسانيد الاصيلة لعالم أقدم من هذا واصبحت آلاف السنين كالامس القريب بفضل بقاء الكلمات التي سطرتها هذه العصور . لقد أدركنا ان ثمة وسائل جديدة لدراسة الماضي (١) » .

العصور الكلاسيكية : نعطي هذا الاسم لتلك المرحلة من تاريخ البشرية التي شاهدت الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية والتي تمتد من عام ٧٧٦

(١) راجع فلندرز بتري : الكشف عن الماضي المجهول ، تاريخ العالم ، القاهرة ١٩٤٨ الجزء الاول ، صفحة ٢٢-٢٣ .

قبل الميلاد وهو تاريخ الالعاب الاولمبية الاولى الى عام ٣٩٥ ميلادي وهو تاريخ انقسام الامبراطورية الرومانية الى شطرين : شرقي وغربي .

ان هذه المرحلة هي نسبياً أقرب الينا من المرحلة السابقة ، لها مؤرخوها العديدون ، والمؤرخ الذي يريد اليوم الاهتمام بهـــا يستطيع ان يراجع المؤلفين اليونان والرومان الذين تحدثوا عنها . غير ان علم الاثار تمكن ايضا فيما يتعلق بهذه العصور ، ان يقدم المؤرخ معلومات جديدة .

في مؤلفات اليونان والرومان نواقص عديدة ، وأحيانا بعض التناقضات ، ومن جهة اخرى نراهـــا مرارا لاتتحدث بشيء عن قسم كبير من بلاد البحر المتوسط التي تأثرت بالحضارة اليونانية فاذا حاولنا مثلا التفتيش في مؤلفات اليونان والرومان عن معلومات تتعلق بسورية في العصور الكلاسيكية لانجد سوى ٢٠٠ الى ٣٠٠ صفحة لهذه المرحلة التي دامت ألف سنة تقريبا .

لذلك كان لابد من الرجوع الى علم الاثار لسد الثغرات وتبديد كل ماهو غامض ، وبعبارة اخرى لنجعل معلوماتنا عن هذه المرحلة الهـــامة أكثر واقعية وحيوية . وهنا ايضا نجد نشاطا واسع النطاق للتنقيب الاثري ، فقد جرت حفريات في اليونان وفي ايطاليا وغيرها من بلاد حوض المتوسط التي لمستها بجناحها مايسمونه بالمعجزة اليونانية ، كما وابتدأت دراسة الابنية الكلاسيكية القائمـــة على وجه الارض . وكل هذه الاعمال اظهرت مباني جديدة وقطعاً فنية وكتابات وقطعاً من العملة أمنت للمؤرخ معلومات وافرة عن العصور الكلاسيكية .

فأذا ما اردنا ان نأخذ مثلا عن هذه الاعمال في سورية ، نستطيع القول ان دراسة العملة اليونانية والرومانية التي ظهرت على طول الشاطىء السوري ، مكنت العلماء من معرفة امور هامة عن تاريخ مدن هذا الشاطىء .

وكذلك فأن دراسة الكتابات التي ظهرت في تدمر والاثار المختلفة التي اخرجتها من الارض الحفريات التي أجراها في هذا المكان علمـــاء سويسريون

وفرنسيون وبولونيون وسوريون هي التي سمحت بمعرفة تاريخ مدينة زنوبيا مع كثير من التفاصيل [1] .

القرون الوسطى : هي المرحلة التي تتراوح بين سنة ٣٩٥ ميلادية وسنة ١٤٥٣ ، تاريخ فتح القسطنطينية . في شرقنا تضم القرون الوسطى :العصر البيزنطي والفتح العربي والحروب الصليبية وعهد المماليك . والدور الذي يلعبه علم الاثار لمعرفة القرون الوسطى يشبه الدور الذي لعبه بالنسبة للعصور الكلاسيكية التي تكلمنا عنها آنفا ، فالمؤرخ هنا ايضا يستطيع ان يستند الى المؤرخين الذين عاصروا هذه المرحلة من التاريخ . هنالك مؤرخون بيزنطيون ومؤرخون عرب ومؤرخون صليبيون تكلموا مطولا عن الحوادث التي جرت في تلك العصور الا ان علم الاثار استطاع بدوره ان يسد الثغرات الموجودة في مؤلفات هؤلاء المؤرخين ويضيف اليها معلومات جديدة تبحث عن دراسة الابنية والاثار التي خلفتها هذه العصور . وسنكتفي بسرد بعض الامثلة مأخوذة عن الاعمال الاثرية المتعلقة بالقرون الوسطى ، والتي جرت في شرقنا .

ان الحفريات التي جرت في مدينة الكوفه في العراق والتي اظهرت قصرا يعود بنيانه لعهد القائد العربي سعد بن أبي وقاص ، فتحت لنا آفاقا جديدة في معرفة فجر الاسلام [2] .

كما ان الحفريات التي جرت في الرقة ،لاسيما اذا استؤنفت في المستقبل،ستلقي ضوءا على الايام التي كان يقضيها في سورية من حين لآخر الخليفة هارون الرشيد [3] .

---

(١) راجع الحوليات الاثرية السورية ، المجلد الاول . صفحة ٥٨ الى ٧٠ ، المجلد الثاني ، صفحة ٧ الى ٥٠ ، المجلد الثالث ، صفحة ١٤٤ الى ١٤٨ والمجلد السابع ، صفحة ٢٥ الى ٥٢ وصفحة ٢٢٧ الى ٢٣٦ وصفحة ٢٣٩ الى ٢٥٤ .

(٢) راجع مقالنا : المؤتمر الثاني للآثار العربية، الحوليات الاثرية، المجلد السابع صفحة ٢٧١ .

(٣) راجع نسيب صليبي : حفريات الرقة ، الحوليات الاثرية ، المجلد الخامس ، صفحة ٦٩ الى ٧٦ والمجلد السادس ، صفحة ٢٥ الى ٤٠ .

وكذلك فان دراسة بعض الابنية في سورية ، كقصر الحير الشهير ، تعطينا معلومات هامة عن الحضارة الاموية التي لانعلم عنها الا القليل لاسيا وان اكثر المؤرخين العرب القدماء هم من العصر العباسي وكانوا في اغلب الاحيان لايريدون ابراز الحضارة الاموية (١) .

ومن جهة اخرى نستطيع ان نقول ان دراسة قلاع العصور الوسطى التي لاتزال قائمة في بلادنا ، تعطي المؤرخ معلومات هامة عن هذا العصر ، فالذي يقوم مثلا بدراسة قلعة صهيون اوقلعة برزية يتمكن من معرفة عبقرية صلاح الدين الايوبي العسكرية أكثر ممن يطالع انباء حملات هذا القائد في مؤلفات ابن الاثير وابن شداد .

وقد سمحت الاكتشافات والتحريات الاثرية ايضا بقراءة كثير من الكتابات العربية التي اعطت المؤرخ معلومات هامة (٢) .

من الثابت الآن اننا تمكنا من معرفة أمور كثيرة عن تاريخ مدننا بواسطة علم الآثار وهذا ماحدث مثلا في سورية بخصوص تاريخ دمشق وحلب وحمص (٣) .

ولن نتحدث عن العهد العثماني والعصور الحديثة لأن مهمة علم الآثار تصبح أقل فعالية وربما غير قائمة ، كلما اقتربنا من الايام التي نعيشها .

---

(١) راجع سليم عبد الحق : اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، الحوليات ، المجلد الاول ، صفحة ٥ الى ٥٧ .

(٢) راجع بصورة خاصة الكتابات العربية المنشورة من قبل المستشرقين ماكس فان برشيم وأرنست هرزفلد والتي اصدرها المعهد الفرنسي للآثار في القاهرة .

(٣) انظر لائحة المراجع المتعلقة بآثار دمشق في مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد الثالث ، صفحة ٤٩ ، راجع ايضاً : عبد القادر ريحاوي : « الابنية الاثرية في دمشق » الحوليات ، المجلد السابع صفحة ١٢٥ الى ١٣٦ والمجلد الثامن التاسع صفحة ٦٧ الى ٧٤ ، عدنان البني « قلعة دمشق » ، الحوليات ، المجلد الرابع الخامس صفحة ٣٠ الى ٣٦ . وبخصوص حلب ، راجع سامي الدهان « آثار حلب ومؤرخها » الحوليات ، المجلد الاول صفحة ٢٠٥ الى ٢٢٥ وكتاب فيصل الصيرفي بالفرنسية عن قلعة حلب . وبخصوص حمص ، راجع سليم عبد الحق « مدينة حمص وآثارها » الحوليات ، المجلد العاشر صفحة ٥ الى ٣٤ .

هذا عرض سريع للخدمات التي اسداها علم الآثار للتاريخ ، وقد أصبح منهله الغني الفياض وخاصة عندما يتعلق الموضوع بتاريخ العصور الموغلة في القدم.

وعلم الآثار لا يشكل فقط مصدراً جديداً للمعلومات التاريخية ، ولكنه اصبح ايضاً ذا تأثير قوي على نفسية المؤرخ كما سنحاول اختصار ذلك في النقاط الآتية:

١ – **علم الآثار** بتوسيعه افق المؤرخ يلقنه التواضع . فقد وضح للمؤرخ اليوم ان المدنيات تموت. وقبل الاكتشافات الأثرية كان يعتقد ان التاريخ تطور دائم. ولولا علم الآثار لكان المؤرخ فخوراً بقرنه العشرين يعتقد ان مدنيتنا الحاضرة نهاية طبيعية للعصور الوسطى الاقطاعية ، ولعصر النهضة ، ولثورة سياسية في القرن الثامن عشر . لكن بفضل هذا العلم وجد ان مدنيتنا الحاضرة بناطحات سحابها وصواريخها يمكن ان تنقرض بدورها كما انقرضت المدنية البابلية والمدنية الرومانية ان نظرة عالم الآثار الى الكون تختلف عن نظرة بقية البشر ، فهو واقف على تطور الخليقة منذ العصر الحجري الى عصر الذرة الحالي ، وهذه النظرة نقلها الى المؤرخ ويمكن القول ان الكثير من الأخطاء التي يقع فيها عالمنا اليوم كان من الممكن تلافيها لو أمكن لعالم الآثار أو المؤرخ ان يقول كلمته امام الهيئات العليا التي تتولى اليوم شئون العالم .

٢ – **وعلم الآثار غذى عند المؤرخ النزاهة العلمية.** فلو أن المؤرخ اكتفى بمعلومات المؤرخين السابقين لكان عرضة لتأثير المؤلفين الاسرائيليين الذين يجورون في حكمهم على الكنعانيين ، ولتأثير المؤلفين اليونانيين الذين كتبوا أشياء مغرضة عن البابليين والمصريين والسوريين ، ولتأثير الكتاب العباسيين في رأيهم ضد العصر الأموي . اما الآن فالمؤرخ يعلم ، بفضل الابحاث الاثرية ان من سبقوه من المؤرخين كثيراً ما غشوه ، فالجدران المتداعية لا تعرف الكذب واللوحات الفخارية أقل تشويهاً للحقيقة من أوراقنا المطبوعة . وبالرجوع الى هذه النصوص والآثار عرف المؤرخ ان الكنعانيين اخترعوا الابجدية ، وان شعوب مابين النهرين

والمصريين والسوريين هي مصدر المدنية اليونانية، وان الامويين بنوا مدنية كبرى. لقد اصبح المؤرخ حذراً ينتظر منا اكتشافات المنقبين تأكيداً لما تعلمه في الكتب.

٣ – **ان علم الآثار علم المؤرخ حب الاجيال الغابرة**، فهو باتصاله المباشر الوثيق مع الشعوب القديمة تمكن من أن يلمس بيده ويرى بعينه، اذا صح هذا التعبير، حياة الاقدمين. كانت كتب التاريخ حاجزاً بين القدماء وبيننا، أما الآن وقد ازيح النقاب فاننا نحدق بهم وجهاً لوجه، دون وسيط. **انهم يقصون علينا باحرف مسمارية الحوادث المتواضعة من حياتهم اليومية. انهم يتلون علينا بأحرف هيروغليفية قصائدهم وصلواتهم**، وعندما نراهم يعرفون همومنا وأحلامنا، آمالنا وآلامنا لا نستطيع إلا ان نكن لهم كل محبة بالرغم من العصور التي تفصل بيننا. ان علم الآثار اوجد نظرة جديدة للكون والحياة والانسان.

نأمل ان نكون قد استطعنا في هذا المقال ان نبين كل الخدمات التي قدمها علم الآثار لعلم التاريخ، لقد اتيح لنا مراراً ان نشاهد علماء يقومون بحفريات فكنا نرى المنقب واقفاً غير مكترث بالتعب والغبار بالقرب من خندق يعمل العمال فيه بكل نشاط وهمة، وهو يترقب قطعة فخار يخرجها معول لعامل من باطن الارض، وقد لاحظنا ان العالم في تلك اللحظة لا يفكر بالصحف التي سوف تذيع نبأ اكتشافه، ولا بزملائه الذين ينقبون في اماكن اخرى، ولا بمدير المتحف الذي سوف يضم الكنوز التي سيظهرها للوجود.. بل كنا نراه يفكر بالمؤرخين الذين ينتظرون وراء مكاتبهم في اماكن مختلفة من المعمورة، اخبار حفرياته. ان علم الاثار خادم امين للتاريخ، ويظهر اننا وصلنا الى المرحلة التي توجب علينا ان نكتب التاريخ لا بالقلم بل بالمعول.

●

الكتّاب والموضوعات

الآداب

من أمين نخلة

المناديل

مناديل أهل الحبّ ، في لوعة النوى
فدى لطفها كلُّ الأطــالس والوردِ !

أمينة أسرار العيون ، فانّهـــا
تكفكف دمع البين ، والشّوق،والفقد .

ألامسها : خفيّفٌ من اللـمس ، واتّئدْ ،
ففي طيّها أشواق خـــدٍّ الى خدّ .

وإن كان في تلك الدموع وحيدة
لفرحة عينٍ ، فهي في غربة المهدِ ...

من الأثر البـاقي لهـــا في مكانها
يُشمُّ زمان الوصل ، أو فرحة الوعدِ .

(*) من النفحات الشعرية « الجديدة » للشاعر العربي الكبير الاستاذ امين نخلة .

الزهرة الأولى

في الربيع الجديد

هـــذه الزهرة التي   سبقت موكب الزَّهَرْ !
فهي باللَّون ، والشَّذا ،   حملت أطيب الخـــبرْ .

كان كالسّر بدؤهـــا ،   ومن الوهم بيتُهـــا
ولهـــا قصَّةٌ ، إذا   شئتِ منّي رويتُهـا .

في خفـــاء ومهلة ،   هيّأ الخصب أمرهـا .
ثمّ مـا كان أن رأت   مقلة الشمس سرّهـا .

فاذا الأمر قـــد بدا ،   وإذا السَّاق ، والوَرقْ .
يالريَّـان حسنهـا   من فريدٍ ، ومن نَسَقْ !

ولقـــد أشغلت بهـا   مقلة الشمس من شغَفْ .
كم رعتهـا ، وراقبت   كمَّها النَّضْر في تَرَفْ !

فشكى الخصبُ أنّها   سبقت أمسِ ركبَهُ .
زعم الذنب للهـــوى ،   والهوى كان ذنبَـــه !

فاقبليهـــا هـــديّةً   من بهاءٍ ندٍ ، وطيبْ ،
والمسيها لـكي ترى   أنهـا في حمىً خصيبْ ...

عالم الصورة (١)

« إن كرامة الانسان
تكمن في الفكر »
« باسكال »

الدكتور ابراهيم الكيلاني

— ١ —

تقوم حضارتنا الحالية على فلسفة بسيطة هي : ان الانسان محب للحياة ، حريص على البقاء والخلود ، ولكن بقاءه على وجه البسيطة قصير الأمد ، وليس من حيلة في دفع الموت وإطالة الحياة الى مالانهاية ، فوجب اذن ان يقنع بالأمر المحتوم ، وأن يقوم با كثر مايمكن من الاعمال ، وأن يستمتع بأكثر مايمكن من اللذائذ والمتع الجسدية والروحية بأقصى سرعة ممكنة ، وحدّ أدنى من الجهد .

من هذه النظرة الى الوجود نشأت مشكلة السرعة التي اوجدتها الآلة وماتجره في موكبها من مخترعات ضوئية وصوتية طبعت الحضارة المعاصرة بطابعها العميق ، فغيرت من

(١) المقصود بذلك الصورة الفوتوغرافية والسينمائية والتلفزيونية بوجه عام .

عقلية انسان القرن العشرين ، ونمط تفكيره ، وسلوكه المعاشي ، وتصرفاته الخلقية والنفسية بل وثقافته الأساسية .

إن شيوع الصورة كأداة تعبيرية ، وتغلغلها في حياة الانسان المعاصر مظهر من مظاهر هذه السرعة ، فقد كتب عليه ان يواجه الصورة في كل مكان ، في الصحف والمجلات والكتب والشوارع والبيوت وفي كل ظرف من ظروف حياته اليومية ، حتى اصبح هذا الفيض من الصور عاملاً من عوامل تفكك الفكر ، وتبديد الملكات ، وتشريد الانتباه ، والصرف عن التأمل والتركيز .

قال احد الصحفيين الغربيين يصف هذا المدّ الصوري : « إني استيقظ في السابعة صباحاً ، فأمدّ يدي الى المذياع مستطلعاً الاخبار ، وفي اثناء ذلك ألقي نظرة عجلى على عناوين الصحف المطبوعة باحرف ضخمة تلطم العين ، كما انظر الى الصور ، فهي تؤكد ماقاله المذيع اثناء حلاقتي ذقني ، فأرجيء قراءة المقـــالات الى فرصة أخرى ، ثم اتجه نحو الترام فاذا الشارع مليء بالاعلانات ، كما تحمل سيارات الركوب والنقل التي تتقدمني لوحات اعلانية وصوراً كبيرة ذوات ألوان حادة وخاطفة ، وهاهي ذي سيارات صممت هياكلها على اشكال زجاجة او انبوب او علبة تدعو الى أنواع من المشروبات او الادوية او المستحضرات الطبية . ثم انحدر بعد ذلك الى الترام الارضي « المترو » فتواجهني هناك في الاروقة والمحطات والحافلات نفسها اعلانات مصورة من جميع الانواع والحجوم ، وأمامي ركاب كثيرون يطالعون المجلات المصورة ، الجدية منهـا والهزلية ، فتبدو على وجوههم وشفاههم انعكاسات وابتسامات معينة ، يقلبون الصفحات بسرعة قافزين من صورة الى صورة ، كأن عقولهم شاشة تحمل الصور دون ان تراها او تحتفظ بها ، ثم تظهر بين المحطات حروف كبيرة ترقص في الظلام ، إنه اعلان ذو لونين اصفر وازرق لأحـــد المستحضرات الطبية او السلع التجارية ، وأصل الى مكتبي ، فأجـد أن اصدقائي الذين يقضون عطلتهم الصيفية قد بعثوا لي من اماكنهم بطـــاقات مصورة ، فهي

معلقة على شباك البريد تنتظرني ، ثم تدق الساعة مؤذنة بوقت الغذاء ، فادخل المقهى المجاور ، إن جهاز التلفزيون يعمل ، فألعب البلياردو بعين وأرقب بالاخرى صور الحوادث اليومية على الشاشة حتى اذا بلغت الساعة السادسة ، وكان الجو صحواً عزمت على العودة الى بيتي مشياً على القدمين ، فأشهد في طريقي واجهات المخازن وهي شبيهة بلوحات فنية حقيقية ، فأقف امام واجهة مكتبة عرضت فيها الكتب ذوات الغُلف الملونة أو المصورة ، فأتصفح بعضها فهو كثير الصور ، ثم اقلب مجموعات من « الالبومات » المصورة كتب مقدماتها اعضاء المجامع العلمية الرصناء، حتى اذا هبط الظلام استيقظت الاعلانات الضوئية فهاهي ذي زجاجة المياه المعدنية المشهورة ترقص بخفة على الجدار .. ثم اركب ترام الاوبرا فتتجلى امام ناظري عشرات الواجهات التي تدعو فيما تدعو اليه زيارة المعارض المقامة في المتاحف العامة والخاصة ، ثم .. انهي يومي في السينما ! » .

— ٢ —

كان الانسان في ادوار ماقبل التاريخ يعيش باحساسه وشعوره ، يشعر بالاشياء ويعبر عنها بالرمز والاشارة كما نرى ذلك في كتابات المصريين القدامى على جدران الكهوف والمعابد ، فقد كانوا يعتمدون على الرموز الحسية في التعبير عن جملة مجردة ، اوفكرة سبق تأليفها اوتكوينها فيمنطقة الادراك ، ثم انتقل الانسان الى مرحلة ثانية حاول فيها السيطرة على إحساسه مستعيناً بذكائه وقواه العاقلة ليستنبط من شعوره المبهم افكاراً حسية .. فولدت الكلمة،واصبح كلامه مفهوماً، واستطاع البشر ان يتفاهموا ، وقامت الحضارات على الفكرة التي تحتويها الكلمة ، ثم جاءت الطباعة فعجلت من هذا التطور ، فنعم الانسان زمناً مديداً بحضارة الكتاب المطبوع ، وما لبثت هذه الحضارة أن اصيبت منذ مطلع هذا القرن بالكلال بفعل المخترعات والمكتشفات الصوتية والضوئية والصورية حتى كاد يغلب فيها المسموع والمرئي على المكتوب والمقروء ، فصار على الانسان الحديث لكي يفهم

سواه من الناس مراده بسرعة أن يلجأ أكثر فأكثر الى الصورة مسوقاً الى ذلك بدواعي السرعة والسهولة اللتين تأتلفان وروح حضارتنا المادية الآلية ، وذلك أن الفكر الانساني يعمل بشكل متلاحق ، وعليه اذا أراد التعبير عن فكرة ان يجمع الكلمات ، وأن يبني الجمل ، وأن يرصفها بشكل منطقي معقول ثم يدفعها بعد ذلك حتى نهايتها لتأدية المراد ، ولا يتم ذلك كله إلا بعملية عقلية معقدة ، في حين أن الصورة ذات طابع اجمالي ، استيعابي ، فوري ، تفرغ محتواها التعبيري دفعة واحدة ، محدثة في الناظر اليها صدمة ، تختلف قوة وضعفاً ، وقد ثبت للباحثين ان الحضارة الحالية تتجه في سيرها المتسارع نحو مرحلة إحلال الانعكاس محل التفكير ، والحس مكان الفكرة ، والاشارات والرموز والمصطلحات مكان الكلام (١) ، وفي هذا يكمن الخطر الذي يهدد هذه الحضارة في كيانها الروحي، وتراثها الانساني .

— ٣ —

إن المكان الذي تحتله الصورة في حياة الانسان المعاصر آخذ في الامتداد والتوسع ، تشهد بذلك وسائل الثقافة والاعلام من صحف ومجلات وكتب التي اخذت تفسح للصورة ، بمناسبة وغير مناسبة ، مجالاً يجعل منها مادة رئيسية ، حتى إن الصور لتستقل في كثير من المنشورات عن النص ، لتقوم بدورها الاغرائي الجذاب حيناً ، والمثير حيناً آخر ، فكأني بأرباب الاعلام قد لحظوا مواطن الضعف

---

(١) مثال طريف على ذلك : كانوا في الماضي يكتبون على صنابير المغاسل عبارتي : Eau Froide , Eau chaude ثم تطورت الحال فاكتفوا بوضع حرفين F. C. للدلالة على الماء البارد والماء الساخن ، ثم امعنوا في الرمزية فوضعوا لوناً احمر للدلالة على الساخن وازرق على البارد . وكذلك قل في الاشارات والمصطلحات الدولية لارشاد السيارات على الطرق ، فقد ابتدأت بالجمل وانتهت بالاضواء الملونة والرموز . حتى كاد يخضع الانسان المعاصر في عملية الرمز لنظرية الانعكاس المشروط Reflex Conditionne التي وضعها بافلوف .

فأرادوا استغلال سلبية الانسان المعاصر ، المتعب ، المكدود الذهن والاعصاب، وعرفوا ان مشاهدته هذه الكمية الهائلة من الصور ، الثابتة والمتحركة ، التي تنتجها السينما والتلفزيون والمصورات المتنوعة قد جعلت من الصورة غذاء روحياً ضرورياً لا غنى له عنه ، ولا يستطيع تمثل سواه . وفي الحق فان الصورة لم تعد في إطار حياتنا الثقافية وسيلة تفسير ، وشرح،وايضاح، بل غاية الى المعرفة ، فقد كان الكتاب الى زمن قريب ، اي قبل أن تعرف الصورة هذا الرواج الجنوني ، الناقل الوحيد لعصارة فكر الانسان وتجاربه وسط حضارة بنيت على الكلام وتقديس النص ، ولم يكن يخطر ببـال اكثر الناس تشاؤماً من مستقبل الانسانية انه سيضحى بالنص من اجل الصورة ، وأنه في سبيل اطلاع الانسان واعلامه بسرعة سيجعل النص في خدمة الصورة او تكملة لها ، وبعبارة اخرى ان الكتاب سيغدو غرضاً للنظر لا للقراءة . إن مثل هذا التطور قد أثر في تركيب الانسان الذهني ، وعدل من نمط تفكيره ، لأن الصورة في حد ذاتها تجعلنا نعيش وسط رؤية مبسطة، وهي وإن احدثت فينا صدمة تحرك ركودنا الحسي والنفسي ، او ولدت شعوراً يختلف ضعفاً وعنفاً ، او تفكيراً يتفاوت وضوحاً او غموضاً ، فان هذه الحالات الثلاث تظل سطحية ، عديمة الجدوى اذا لم يقم العقل بمعونـة النص المكتوب بتحديدها وتدقيقها وتثبيتها في الاطار الادراكي الذي منه تنبثق المقابلة، والترجيح، والنقد ، وغير ذلك من خصائص العقل والمعرفة ، في حين ان الصورة تنزع دوماً بحكم وظيفتها وتسهيلها عملية الامتصاص ، الى ان تكون ثقافة مجردة من عنصر التناقض والمفارقات ، تفرض وجودها بطريقة تأكيدية ، إثباتية ، اجماعيـة ، مكتفية بذاتها دونما حاجة الى تحليل، على أنها تظل في نزعتها الاستقلالية الاستبدادية جزئية لا كلية ، ومها بلغت من الاتقان والروعة فلا غنى لها عن النص، لأنها بحاجة الى أن توضع في زمانها، فهي لحظة من تطور صوري اونحتي او هندسي لا بد له من التعبير الانشائي يظهر خصائصه واهميته وفائدته ويسوغ وجوده وينير سبل الاستمتاع به.

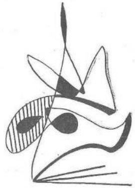
كانت الصورة اليدوية في الماضي مخصصة للاطفـال والأميين ، ولم يكن الناس يعيرونها اهتماماً ، وكان الرسام في حرصه على تصوير الواقع لم يكن ليعطي عنه سوى فكرة تقريبية ، يراه المشاهد من خلال شخصية الفنان ، وتصوراته وقدرته الفنية ، وعمله التكنيكي ، فالصورة والخيال يستقيان من ينبوع واحد الى ان ظهر التصوير الفوتوغرافي الذي يلتقط الواقع ، وتوهم الناس ان ليس هناك مشابهة بين الشيء والصورة بل مطابقة ، فنالت الصورة الشمسية ثقة ومجـــداً لم تنلها الصورة اليدوية ، وذلك لمسايرتها ركب الحضارة ، وقدرتها على تقريب البعيد ، وزيادة مساحة الرؤية زيادة هائلة ، واستطاعتها اصطياد الواقع وتجميده في انسيابه الزماني والمكاني ، وضبط المرئيات في دقائقها وتفاصيلها . فاذا كانت هذه الفضائل صحيحة فان تصوير الواقع يحتاج الى شيء من التحليل ، اذ ليس المصور والحقيقة سواء ، وليس ما يطبع على شبكة العين وما يسجل على الورق شيئاً واحداً ، وانما نقبل ذلك بدافع من عادة تحملنا على التسليم بحقيقة الظلال والخطوط المنعكسة على مساحة مسطحة معينة ، بل قد نذهب بعيداً فنقول ان كل صورة شمسية متقنة وموفقة خيانة للواقع ، فاذا كان دور الورقة السلبية لا يتعدى تسجيل ما تلقـاه امامها عند فتح عدسة الآلة المصورة ، فان هناك عنصراً هامـــاً في العملية هو الانسان الذي يخرج الصورة ويحدد الزوايا والشروط المكانية والضوئية والجمالية التي يجب ان يلتقط فيهـــا الصورة ، وكلما عظم دور الوسيط ، وأكد وجوده اختلف نصيب الصورة من النجاح او الاخفاق ، اذ ليست الصورة منظراً مجرداً فحسب بل رؤية خاصة ، وعملاً يختص به هذا الكائن المعقد المؤلف المزدوج من المصور والآلة ، وعلى هذا وان كانت الصورة ذاتية الى حد ما ، فهي في الواقع اقرب الى التجريد ، وتشبه من زاوية الواقع التصميم الهندسي المصغر بالنسبة للبناء الكامل الذي لا بد لنا من التخيل لكي نراه على حقيقته ، ومهما يكن من شيء فانه يستحيل على

الصورة ان تنوب في اي حال من الاحوال مناب الاصل المادي ، ومع ذلك فهذا ما يحدث بالفعل .

وان اخوف ما يخافه المفكرون الحريصون على سلامة القيم الفكرية وصيانتها من العبث والضياع ان يؤدي رواج الصورة وامتدادها في مجالات الثقافة والاعلام الى تزييف الرؤية ، والانحراف بالانسان المعاصر الى عالم صوري،وهمي ، يجد فيه اشباعاً لكسله العقلي وارادته السلبية ، وراحة من القراءة وليدة الجهد والعمل الايجابي،وقناعة بفقر عالمنا الحقيقي وما يحويه من جمال وروعة وتعقيد وغرائب ، عالم يصبح فيه النظر اداة تعرف يتوصل اليه بالواسطة،لامعرفة يصل اليها عن طريق الاكتشاف الذاتي .

والخلاصة فان انصار الفكر جزعون من طغيان الصورة على النص لأن المصورات لا تعطي المطالع والرائي سوى نشوة وقتية تبعده عن القراءة ، ينبوع الثقافة الحقيقية .

ولعلّ من الخير في هذا المجال الدعوة الى الوقوف موقفاً وسطاً ينجم عنه توازن بين الصورة والنص ، اي بين ما يسر العين ويغذي العقل .



في الأدب المهجري

بقلم : نظير زيتون

كان الطغيان الحميدي العثماني شراً على البلدان العربية التي فتحت جفونها وتثاءبت وغطت بعد سبات عميق على بلجة النهضة الحضارية والعلمية التي بزغت في الغرب ، ثم أخذت تتدفق موجات النور تحمل في ثناياها أشعة الحرية والانطلاق الفكري والعرفان .

ولكن هذا الطغيان الحميدي الرهيب تفتح عن حسنة واحدة ، عادت بالخير كل الخير على سورية ولبنان وفلسطين ، ذلك أنه حمل مئات الالوف من أبناء هذه الاقطار العربية على الهجرة الى العالم الجديد ، يدفعهم الطموح والمضاء والعصامية الى التحرر من البؤس والحرمان والخمول والطغيان ، وهي أعدى أعداء الانسان ، ومجلبة الاستكانة والهوان ، فاستطاع هؤلاء المغتربون الرواد الشجعان ، أن يؤسسوا بفضل ما حملوه في صدورهم من ايمان ، وأحلام نضيرة الجنان ، وفي سواعدهم من بأس وجلد على مقارعة الشدائد والحدثان ، وما انبث في نفوسهم من وميض أمل ريان ، وهمم شامخة لماحة الالوان ، وخلق عربي كريم الأصول والأفنان ، وما ترهره في قلوبهم من ينابيع خير واحسان ، وما التمع في أذهانهم من حضارة عريقة عميقة الجذور سامقة الاغصان ، **نقول استطاع هؤلاء** المغتربون الماهدون الفرسان ، أن ينشئوا لوطنهم العربي ،

وقد اقتحموا المجهول المستعصي على مطايا الاقدام المصاول السهران ، وعزائم الرواد الشجعان ، وساروا يفتحون بالاخلاق الحسان ، والمزايا التي تفتحت عن الحب والريحان . لا بالسيف والطعان أو رعاية دولة أو سلطان . في عـــالم جديد غريب الوجه واللسان ، مستفحل العنفوان . **نقول استطاعوا ان** ينشئوا للوطن العربي دولة راسخة الاركان باذخة البنيان ، شامخة الشعار والعنوان . خشعت بين يديها التيجان . وتضاءلت أمامها الشهبان ، وتغنى بها السماكان . وآيتها انه وثبة مجد لغسان . وامتداد ظليل جليل لفتوحات عدنان وقحطان ..

ولولا الطغيان الحميدي العثماني المسخوط لما كانت هـذه الهجرة الميمونة المذهبة الخيوط ، العريضة الخطوط ، الشمخرة المتعالية بحرفها المعجم والمنقوط ، يكفيها فضلاً ، وقد كانت في بادىء الامر تخرطاً مرادفاً للقنوط . وتورطاً في بحر محلولك الشطوط ، يكفيها فضلاً انهـا كشفت عن عصامية السوريين ومواهبهم وعن اصالة في شمائلهم ومناقبهم . وعن تسام في غاياتهم ومطـالبهم ، وعن الحر العتيق في عناصرهم ومذاهبهم ، وعن الفكر الخلاق يتلألأ في مواكبهم ..

وحسبهم فضلاً ، وقد كانوا أشبـاه أميين ، أنهم رافقوا أرقى الشعوب فمـا تخلفوا ولا تقهقروا . وكافحوا في أقسى الميادين ، فمـا لانت عزائمهم ولا تذمروا . **بل ثابروا وذللوا الصعاب وانتصروا** . فاذا الفكر كرمهم ، والصدر صدرهم ، والذكر ذكرهم ، **والخير خيرهم . والامر أمرهم** ، وهم الذين ارتادوا العالم الجديد بائسين محرومين ، مهزولين مغمورين . **مخشوشنين متجلفين . يحملون الفاقة متعثرين** . وأين ما كانوا عليه من سهد ودعة ، **وما صـــاروا اليه من مجد ورفعة** .

وحسبهم أنهم كانوا لسورية والعروبة رسلاً وسفراء . وأبناء أوفياء ، **وصوفيين سمحاء أنقياء** . وغطارفة خاضوا معارك العلياء ، ورفعوا لسورية العربية في أرض الغربة أزهى لواء ، وحسروا عن حر وجهها في مواكب الامم فاذا العبقرية والمضاء ، واذا النبل والضياء .

ولقد أحبوا وطنهم وكل ما يمت الى وطنهم ، أشد الحب ورفدوه . وأكاد أقول انهم عبدوه . وقدسوه ومجدوه . وتساموا به وأيدوه ، فكان صلاتهم ، وكان نشيدهم الذي أنشدوه .، وقد طالما تسابقوا الى نصرته وأمدوه . وغضبوا لغضبتـــه وسندوه . وما أكثر ما نذروا له وحشدوه . وما أغزر ما فاضت به قلوبهم وأكفهم إذ ذكروه فعضدوه . وقدموا له الاضاحي ليسعدوه ويسودوه .. لا يسألون ثواباً ولا غنماً ولا شكوراً . وانمـا حبهم الصوفي كان عليهم نذراً منذوراً .

واني لا أخشى مبالغـة اذا قلت ان مجموع ما انصب في سورية من

ثروات ابنائها المغتربين في غضون السنوات الخمس والستين الاخيرة يقدر بألفي مليون دولار ، وذلك بمعدل ثلاثين مليون دولار سنوياً ، وبالتالي بنسبة ستة آلاف دولار للمغترب الواحد ، وهو الحد الادنى ..

ومع ان الهجرة الى العالم الجديد انقطعت منذ خمس عشرة سنة تقريباً . ولحق سائر أعضاء الأسر بأربابها في المهاجر ، فلا تزال ألوف العائلات تتلقى المساعدات المالية السخية ، من الأنسباء المغتربين . وهذه الارقام وحدها وهي غيض من فيض ووشل من بحر ، تدلنا على ضخامة الثروات الطائلة التي جناها السوريون في مهاجرهم ، أما اخوانهم اللبنانيون وعددهم ، وثرواتهم ومراقدهم ، فأضعاف مضاعفة . ودفقات عطائهم متواصلة مترادفة ..

فتبارك هذا الطغيان التركي ، هذا الاضطهاد الذي أهاب بالسوريين ودفعهم الى الهجرة ، وان من الشر ما هو خير وان من العسر ما هو يسر ...

* * *

ولولا هذا الطغيان ، ما تفتحت الاذهان والأعيان . ولا سمت الى المجد عزائم الشجعان على جناح البطولة والايمان . ولا ركزنا علماً خفاقاً رفافاً في أقصى البلدان ، حيث وثبنا وانطلقنا وأرخينا لفتوحاتنا العنان ، وجرينا جياداً مجلية في كل ميدان . وانتظمنا زغاريد تيه في أفواه الغواني الحسان . وتناثرنا عقوداً في أجياد الفضل والاحسان . وتألقنا فراقد سراوة تنافس الثريا والميزان ..

لولا هذا الطغيان ، ما نشرنا رسالة النباهة والطموح والعمران ، ولا صاغ لنا التاريخ الحديث ملحمة البطولة الخارقة مرصعة بالجواهر والعقيان . ولا اختالت في اكنافنا عذارى المعالي وجررت أذيالها زهواً على وجه الزمان . ساخرة بأساطير اليونان والرومان . غازية «اولب» الآلهة الخصيان ...

هذه واحدة ، واخرى ، وهي العجب كل العجب لولا الاستبداد والطغيان ما قام للادب العربي تحت سماء اميركه سوق وسلطان . يتبارى فيها صيابة من نوابغ الفرسان . على المذاكي العتاق من مجنحات الفكر والخيال والوجدان في آفاق الابداع والامراع والافتنان . ويا لها من أندلس جديدة تساقى فيها المحاميد الندمان ، كؤوس الفصحى طافحة بخمرة البيان ، من منثور ترقرق في سطوره سلسبيل الجنان . وتأرجت أفانينه بأنسام لفان . وتبلجت في بلاغته روائع سحبان ، ومنظوم كأفواف الفجر بتهاويل الالوان ، وغنمة الربيع في نيسان ، وأحلام العذارى والفتيان ، في فوحة ذكية من نفحات الدنان ، وصبوة زكية كأناشيد سليمان . فاذا الأدب العربي

في عرس ومهرجان . وقد خلع الاطمار ومزق الاكفان ، وحطم الاوثان ، ونفض غبار الجمود واستحم بالنور والريحان ونسج من شعاع الالهام مطرفه والطيلسان ، وتجلى بالعقل فتهادى المشرقان ، وترنح الجديدان ..

ويا عزة الفصحى المفتونة الألحان ، يشع جمالها فيغمر العقل والجنان ، وبعذب نميرها فيرتوي الظمآن . وتطيب قطوفها فيشبع الغرثان ، وتسفر عن مفاتنها فيذهل الناظران ، وتفوح رياها فاذا الروض معطر الاردان ، والطل زنابق وسوسان ، وكم تلفت البدر بعين الهائم السهران ، وكم أصغى الليل بفرحة الطروب النشوان .

انه الادب المهجري ، انه أدبنا الظعان ، يطل على دنيا العرب ويقرع أبواب بيروت ودمشق والقاهرة وبغداد . ويزورها مضيافاً معطاءوفي العين نهم السغبان وفي القلب توق وخفقان وفي اليد كنوز خالدات رجحت في كفة الميزان ، وشالت أمامها كفة الذهبان . هذا الادب المهجري هو هدية الاخوان للاخوان . وتحية الخلان للخلان . وعطية الروح الهائم الحنان . فاضت شهداً على القرطاس واللسان . انه رسالة الحنين الحنان . وقبلة الحب والوجد على خد الوطن العربي الفتان ..

بلى ، وانه الدمعة السخية التي سالت قريضاً في المحاجر . والزفرة الخضراء التي نضرت بياناً في الصدور والخواطر . والصبابة العذراء التي رشت النور ابداعاً في المحابر ، والنغوة الحلوة الحنون التي ترددت نشيداً في الحناجر . والزأرة المضرية التي ترامت اصداؤها ناراً في صدر الاستعمار الماكر المكابر . أجل انه كبرياء الفصحى التي انطلقت عبقرية الانغام والمزاهر ، عربية المحاسر والمشاعر والأواصر ...

أتقولون اني بالغت وأسرفت وغاليت بالادب العربي المهجري ، وذهبت بوصفه مذهب الغزل والحمد ، لا مذهب الدراسة والنقد ، ووقفت منه موقف المتشبب بحبيبته البثينة الحسناء ، فلا تقع عينيه منها على غير الفتنة والرواء ، وكان الاجدر موقف المتبصرين الحصفاء واني خلعت عليه من البذاخة والفخامة ثوباً فضفاضاً طويل الذيول ، يخترق وشيه الابصار والعقول . وتغنيت به تغني العاشق المتبول ، فهلا تدبرت ما تقول ..

لا والله ، ما بالغت ولا اسرفت ولا تغزلت كمن على عينه غشاوة ، او كمن عقا به من نهاوة . واذا كنت قد بالغت في اعجابي بمن خفروا ذمام العربية وغاروا على حرمتها وعرضها .

وأسسوا لها في ربض غير ربضها . وفي حي الفصحى تنبت وتزكو وتبسق في ارض غير ارضها ، وفي روض غير روضها . وفي حوض غير حوضها . فاذا قطوفها دانيات واذا ثمارها شهيات .

واذا كنت قد اسرفت ففي كلفي وولوعي بالضاد ؛ تنشأ يتيمة مهزولة بين الاضداد ، نائية عن الاباء والاجداد ، فلا عين ترعاها ولا يد تسدد خطاها ، ولا قلب يهفو الى شذاها ، ولا حبيب يبادلها هواها ويشاركها في رواها . ولا خفقة أمل تمرح في حناياها ، ولا بسمة عطف تسقي الياسمين في محياها . ولا دولة ترمقها وتتبناهـــا . بل يكاد يزدريها كل من رآها ، وينصرف عنها من كان بروحه ولسانه اباها واخاهـــا ، وتكاد اليتيمة الحسناء تفقد حجاها ، وتخفض من جناح رفعتها وعلاها ، واحسرة اليتيمة الغريبة ويا غصتها في منفاها ، ويالغيوم المتلبدة تحجب سناها ..

كانت هذه حال الضاد يوم حطت الرحال على الشاطيء البعيد ، عبر بحر الظلمات العنيد ، بين اقوام بيض وسود وهنود ، تنطق الضـاد ولا من يبدى ولا من يعيد ، وبرطنون ، فتستزيد ولا تستفيد . وهي في واد وهم في واد ، وما اعسر لقاء الاضداد ، وعناق الجبال والوهاد ..

ولكن هذه اليتيمة الغريبة التي رمتها الاقدار في ارض قصية غريبة الوجه واللســـان ، احتضنها اولئك المغتربون الذين كانوا اشباه امين . احتضنوها وأحبوها وعلقوا بها متنافسين . انها ليست باليتيمة ، انها روح من روحهم ودم من دمهم . وكل من كلهم ، هي الام وهم الابناء ، وهي في مذهبهم الالف والياء ، والانوار والافياء . ولها العزة والعلياء . وما كانوا الا البنين البررة الاوفياء . .

ونشأت تلك اليتيمة البائسة في اكناف المغتربين اشبـاه الاميين ، كما تنشأ الآلهة في الاساطير . واية اسطورة اعجب واغرب من ان يترعرع الادب العربي في ظلال المغتربين الذين نزحوا عن الوطن معوزين محرومين . سعياً وراء الرزق وترفيـع الحـال ، كادحين في سبيل الحياة والمال ، يكرهون النفس على ما تضيق به النفس من مشقات وتقتير ، وسعي قاس مرير ، ودأب على العمل موصول بالتفكير والتحرير والتغرير . واقتحام المجهول العسير ..؟

أية اسطورة أبدع وأروع من ان يتفجر الادب العربي عموداً من نور ، في صميم الديجور ، ويزكو ويمرع في ارض مجلدة الصخور ، أصلدت وتعبست واذا انبسطت فمن صعاب ووعور .

اية اسطورة اروع من ان يتفجر هذا الادب حيث لا يستنبط ماء ، ولا تهطل للعروبة دمعة من سماء . وحيث لا صدى لنــــداء ، ولا سجع

لورقاء ، ولا وتر لعود وغناء . فاذا أنشدت فكان الاذن صماء ، واذا ابدعت فكأن العين عمياء .

ولكن الادب العربي قهر الصخر وتبجس . لم يضرب بعصا موسى ، ولكن تفتق النبوغ وتنفس . وتلمس طريقه وتحسس ، وشاء له الابداع ان يترأس ، وان كان في ارضه على نصيب من الغبن الابخس ...

فهل هناك بعد هذا من يتهمني باني اسرفت وغاليت . واطنبت واطريت ، وافرطت وتغنيت ، على غير هدى في ما رويت وأديت ؟

وما أجمله اسرافاً مشكوراً ، في حبي لامتي ولغتي ، وأعظم به افراطاً مبروراً ، في اعجابي باخوتنا وابنائنا المغتربين الذين استحدثوا للفصحى أدباً رائعاً جديداً ، سار فاتحاً ولا عكاز ، حاملاً نفحة من الاعجاز . وعبقرية الطراز ، وثراء الركاز ، واكرم به اطناباً مأجوراً ، حين اتغنى بلغة القرآن ، وقد ارتفع لواؤها متألقاً خفاقاً ، يغزو أجواء غريبة وآفاقاً ، وينصب عرشاً ورواقاً ، فاذا كوثرها يجري متدفقاً رقراقاً ، متهللاً مرحباً مشتاقاً . واذا نورها يفيض جمالا دفاقاً ، وخيراً دهاقا . حين كانت العربية في اوطانها تجتر أمجاداً عتاقا . وتطوي في غياهب الجمود كنوزاً واوراقا ، وتلطم خدها ثكلى متيمة حزناً واشفاقا ، وتندب ساهمة عصراً ألاقاً . وجناحاً كان محلقاً سباقاً ..

فهل في هذا الحب اسراف . أم في هذا الاسراف ، اقساط وانصاف ؟ ولقد حان لنا ان ننصف المغتربين وقد تناسيناهم . وان نؤرخ لهم معتزين بمآثرهم ومزاياهم ومن منا لا يعتز ويتيه حينا يرى علم العروبة في ارض الغربة القصية مشرعا منصوبا . وكأنه قدر كان في الغيب مكتوبا . فانجلت صحائفه غيوثاً وأخصاباً وطيوبا .

* * *

والصحيح ان ولادة الادب العربي في ارض اجنبية غريبة كل الغربة عن العربية لغةودولة وجذورا ثقافية . وبروزه في بيئة شبه اميه وترعرعه في ظلال الاسواق التجارية ، وصخب الآلات الصناعية ، وسطوة التيارات المادية . هذه الولادة الاعجوبة ، وهذا الحمل من الرماد . تذكرنا بقصة فينكس او عنقاء مغرب الاسطورية . فهذا الطائر الخرافي الذي يموت متلظياً بحرارة الشمس ، لايلبث وقد استحال رمادا ان ينبعث من رماده نفسه ويولدهولادة جديدة . والسوري ومثله شقيقه اللبناني ، وقد اغتربا ونزحا عن الوطن وهما في حال تشبه الرماد ، ماعتما ان ولدا في مهاجرهما الاميركية ولادة جديدة ، ولادة روح وقلب وفكر ، ولادة مادة وجسد وحركة . فكان لنا من عطاء الروح والفكر والقلب ، ثروات باذخات خالدات ، لايعدلها عطاء المادة

والجسد والحركة من فتوحات باهرات في ميادين التجارة والمال والصناعات . ذلك بأن عطاءالروح والفكر والقلب هو تراث حلال للعربية ، لاتنازعها فيه دولة اجنبية ، اما العطاء الثاني فتراث منصهر حتما بعد حين في الثروات الاميركية .

* * *

ولنا بعد هذا ان نتساءل : ماهو السر في ولادة الادب العربي المهجري ، وما هي العوامل التي أدت الى تفجر مواهب المغتربين الادبية الفكرية ، وكيف تهذبت ملكاتهم وانصقلت ، فاتيح لمن لم يدرس العروض والقوافي ، ان ينظم ويجيد ، ولمن لم يدرس الصرف والنحو ان يكتب وينشيء ، ويشيد ، ولمن لم يستوعب من الثقافة الا بعض حروفها ان يؤلف ويصنف ، ولمن اذا قرأوا سطرا لحن اعرابا،وضم في الشكل حيث الفتح،وفتح حيث الكسر،وحرك حيث السكون. حتى اذا كتب مقالا او قصة او فصلا من فصول الادب،جرى جوادا ولاعثار.وصفا لغة ولاغبار؟

اذا قلنا ان الشعر مصدره السليقة او الملكة ، فهل في ضبط حركات القوافي بين رفع ونصب وخفض سليقة او ملكة ؟

الحقيقة اننا لانستطيع ان نعلل هذه الظاهرة الغريبة تعليلا علميا مقبولا . ولابد لنا من الاعتراف بعجزنا عن تفسير هذه الخارقة بما يرضي العقل . انها امام معجزة نحار في الكشف عن اسرارها ، وماعلينا الا ان نرضى بالولادة على غموضها ، اما كيف تكون الجنين ، فخارقة لاينقضي عجبنا منها .

لوشئت لسميت نفرا من كبار شعرائنا المهجريين لايعرف العروض ، ولايعرف النحو .

ولو شئت لسميت نفرا من كبار كتابنا المهجريين لايحسن القراءة ولاضبط الشكل .

هؤلاء كلهم ماعاشوا بين الاعراب في الخيام ، ولاعاصروا الجاهلية وصدر الاسلام ، حينا كانت الالسن معصومة من اللحن والخطأ ، تجري بطبيعتها على سنن الفصاحة والبيان.ولكنهم عاصروا الحكم العثماني في سورية ولبنان ، حيث تفرعت من اللغة الفصحى لهجات عامية متعددة متباعدة حينا متقاربة حينا ، ولايندر ان تسمع في البلد الواحد نفسه ، لهجات عامية مختلفة منشأها الاختلاط بالاجانب وفطانة العامة وتفننهم في الوضع والاشتقاق وتلوين التعبير .

ولو شئت ايضا لسميت نفرا من الصحافيين المهجريين الذين قطفوا من علوم اللغة العربية العربية أدنى ماتصل اليه اليد والجهد مع هذا مارسوا الكتابة وبرعوا فيها وكانوا في مهنتهم الصحفية ناجحين .

ولاشك ان هؤلاء الشعراء والكتاب والصحفيين من أشباه المتعلمين كانوا يحملون مواهب فياضة كالذكاء الفطري وقوة الذاكرة والاستظهار والملكة الادبية والفكرية ، وادمان المطالعة والتبحر والاستقصاء والاسترشاد بمن كانوا فوقهم علما وفهما . فاستقامت اقلامهم واستتب لهم نصيب من البيان .

وكان لجو اميركة الفسيح الطليق المشرق ، اثره البليغ في تفجر مواهب هؤلاء المتأدبين الناشئين الذين استطاعوا ان يضعوا مدرسة جديدة للادب العربي ، وان يكونوا خلاقين لاوراقين ، في حين انه لم يفز واحد منهم بشهادة مدرسية أو تلقى اكثر من الدروس الابتدائية.

فالفكر لايزكو ويمرع في ظلال الطغيان والكبت وقمع الحريات ، بل تتصوح ازهاره وينطفيء نوره وتهمد ناره ، وكم وأد قمع الحريات من عبقريات وانطلاقات ، وكم سلب الشعوب من ملكات ، وثروات ونهضات والنظام الاستبدادي الذي يفرض على السكوت القسور ، في تأله مخمور مغرور او نوعا معينا من الوان الفكر يسد على منافذ النور ويقود خطاي في مسلك معين تنبو عنه عيني والحق البصير يحدده لي بسلطانه وطغيانه المرير انما يسلبني اعز ما يفخر به الانسان ، وأغلى ماتتنافس فيه الشعوب والاوطان قال عمر بن الخطاب « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » وماأجدرنا بعد هذا ان نقول « متى استعبدتم الفكر وقد خلقه الله حرا » طليق الجناح اصيل السنام والعلياء ، يرتاد الارض والسماء ، ويتفجر جمالا وضياء ، وينطاد صعداً ويؤوب بخير العطاء ؟

* * *

— ٢ —

ولنعد الى موضوعنا ، ففي اميركة لقي المغتربون من الوان الحريات اكثر مما كانوا ينشدون ، وكانت هذه الحريات في بلاد لاتنضب ثرواتها الطبيعية ، ولاتأفل نجوم فتوحاتها الفكرية والسياسية والاجتماعية ، ولاتكفهر سماحة انظمتها الدستورية الديمقراطية ، كانت هذه الحريات وهذه الثروات وهذه الفتوحات الى جانب ترف الطبيعة وبذاختها وكبريائها ، معراجا لادباء المهجر ، ففي تلك البقاع كحلوا عيونهم بفسحات من الجمال لاعهد لهم بها . وايقظت خواطرهم ومضات من الخير مماألفوها . وقرعت في جوانحهم دقات من نواقيس الانسانية ماسمعوها . وتذوقوا من خمرة الحب نشوة ماعهدوها . وفاضت في قلوبهم واذهانهم انوار ماشهدوها . وتفتحت لهم الحياة عن مباهج ومفاتن ومااردوها ، وكأنهم رأوا الله كبيراً ، كبيراً كبيراً ، اكبر كثيراً مما تخيلوه ، وعظيما ، عظيما ، عظيما اعظم كثيرا مما تمثلوه . وجليلا ، جليلا جليلا . أجل كثيرا مما تأملوه . ورحيما ، رحيما ، رحيما ، ارحم كثيرا مما تأولوه ، وإن الله الذي

غرقوه في ظلال الظلم والطغيان . محجوبا بالضباب والدخان . من الله الذي استطارت اضواؤه في المهجر الغرنيق الريان ، فلألأت الاكوان . .

وقد انعكست صور فتانة من هذه الانطلاقات على الادب المهجري الذي تغنى بالحرية والكرامة القومية ، والمثل الانسانية ، والمفاتن الروحية والطبيعية والذهنية . والانتفاضات العبقرية على أجنحة الكلمة النورانية . فصاغ الروائع الفكرية والطرائف الادبية ، والبدائع الشعرية والملاحم البطولية ، واستوحى الرؤى الصوفية ، والقوافي الغنائية والتأملات الفلسفية والوجدانية ونشد دعة الخير الهطلاء ، كوثرية . ودفقة الحب الجلاء ، سنية . وروضة الجمال الغناء ، عبهرية . وبلجة الحق الزهراء ، مثالية . وغنى آهـة الحنين الهدباء ، مهجة تتلظى بنارها القدسية . - في قريض كأنه أخذة سحرية - . وبيان تهادت حروفه العسجدية .

وكان يقف الى جانب المتأدبين الناشئين ، نفر من المتعلمين والاعلام العاملين ، ممن استكملوا معدات الكتابة والنظم ، وتبحروا في اللغة والبيان ، أو تخرجوا في الجامعات ، ولكن معظم هؤلاء المثقفين والكتاب المتضلعين ، وسواهم من حملة الشهادات العليا ، قلما تأثروا بالجو المهجري ، فكراً وتعبيراً وأسلوباً . ففخامة العبارة لم ترافقها فخامة الفكر ، وبراعة الانشاء لم تجانسها براعة الاسلوب ، والشعر في نظرهم ضبط اللغة والوزن والقافية ، ولا غرابة بعد هذا ان يتقدمهم من كانوا ناشئين ، وان يسبقهم من كانوا متأدبين . ولم يشذ منهم إلا الندرة . ولكنهم على كل حال كان لهم نصيب وافر في رعاية الادب المهجري الجديد الذي استنكروه في أول الامر ، ثم أخذوا يتذوقونه شيئاً فشيئاً فمالوا اليه واستظرفوه . ولكنهم لم يستطيعوا أن يجروا في ميدانه ويجاروه . وهذا يعني ان الصراع بين القديم والجديد نشأ في المهاجر الاميركية قبل ان ينشأ في مصر حيث دارت المناظرات العنيفة بين الرافعي واتباعه ، وطه حسين واشياعه وبين الازهريين المحافظين وجماعة المجددين وذلك في أوائل العقد الثالث من هذا القرن . ثم انتقل الصراع الى سائر الاوطان العربية ولا يزال قائماً . وان تخللته مهادنات تطول وتقصر ، وسيظل هذا الصراع مستمراً ما دام هناك ما يسمى ذوقاً حديثاً أو جديداً ، وفهماً جديداً . وذوقاً قديماً وفهماً قديماً . مع ان الابداع كما دلنا الواقع لا يرتبط بزمان ، ولا تصدمه عقبات القوافي والاوزان وقواعد البلاغة والبيان ، ولا يستورد استيراداً ، وان كان يقتبس اقتباساً في بعض الاحيان .

ولقد كان امين الريحاني رائد الادب المهجري : كان صوته اول صوت مهجري دوى في الاوطان العربية . ولا شك انه كان مبدعاً كل الابداع ، مجدداً فكراً واسلوباً وتعبيراً . ولعله اول من عالج الشعر المنثور باللغة العربية ، لم يكن مستنبطاً ولكنه كان محتذياً مقتفياً آثار بعض الشعراء الاميركانيين . ولم يكن أمين الريحاني من الخارجين على قواعد اللغة العربية ومقاييسها

في البلاغة والبيان ، بل كان حريصاً على سلامة اللغة ونصاعتها مع هذا ثار على اوزان الشعر العربي لانها تحمل الناظم على التكلف والتعمل ، فلجأ في التعبير عن سوانحه وتأملاته الى ما يسمى الشعر المنثور ، لانه اوسع صدراً ، واسلس قياداً وأسهل تناولا ، ولا ندري كيف تتسع الاوزان والقوافي لالوف من عباقرة الشعر العربي قديماً وحديثاً ويضيق بها صدر الريحاني وهو الفكر النيّر والاديب الالمعي ، ولعله آثر الاسهل الاعزل على الاكمل الافضل . واذا كان الريحاني قد صدف عن الوزن فهو لم يصدف عن الايقاع الموسيقي فتقيد به في سجعات يأتي بهـــا طوراً صاغرة سافرة واخرى نافرة عاثرة .

ثم برزت مجلة الفنون التي اصدرها الشاعر الناثر المحلق نسيب عريضة (حمص) قبل الحرب العالمية الاولى وكانت فتحاً عظيماً في الادب العربي ، او هي حجر الاساس في الادب العربي الجديد الذي بزغ نوره اول ما بزغ في نيويورك التي نزح اليها عدد كبير من المثقفين السوريين واللبنانيين خلافاً لسائر العواصم الاميركية ، فأنت تستطيع ان تقع على عشرات من الادباء الذين تثقفوا أو صقلوا مواهبهم ونبغوا في اميركا اللاتينية وخصوصاً في سان باولو وريودي جانيرو وبونس ايرس وسواها ، ولكن يصعب أن تقع في الولايات المتحدة على كاتب او شاعر تأدب وصقل مواهبه فيها ، اذ كان يحمل معه من وطنه كل معدات الكتابة والنظم .

وكانت مجلة (الفنون) مجلة الادباء المهجريين المجددين وأعـلام الادب المهجري الرفيع مثل جبران ونعيمة وأبو ماضي ورشيد أيوب ووليم كاتسفليس والريحاني واحوط وندره حداد وأمين مشرق وعبد المسيح حداد صاحب السائح وسواهم . ونحن لا نستطيع أن ننكر أن هؤلاء المهجريين تأثروا بالثقافة الاجنبية وانهلوا من مواردها اي انهم اضـــافوا الى ثقافتهم العربية ثقافة غربية .

فنسيب عريضة وميخائيل نعيمة على ثقافتها العربية الواسعة تــأثرا بالأدب الروسي واقتبسا منه ، والآخرون غلبت عليهم الثقافة الانكليزية ، فـكان ذلك التوالد المدهش الذي صبدماً زكياً جديداً في الأدب العربي فأينعت ثماره . وغردت أطياره . وتألقت اقماره.

ومن هذه العناصر تألفت الرابطة القلمية الشهيرة ، التي كانت ولادتها حدثاً أدبياً رائعاً ، وفتحاً عظيماً ذائعاً ، في تاريخ الادب الحديث واتجاهاته وفنونه . فقد كان بروحه ومرماه ومعناه ادب ابداع وتجديد وثورة على الجمود والتقليد . وتجانس الطارف والتليد .

ولكن المحافظين الذين نظروا الى الحرف مادة ، وقاعدة ، لم يستسيغوا هذا الادب الحي الجديد فحملوا عليه ، ورفع لواء الحملة نعوم مكرزل صاحب جريدة الهدى

النيويوركية وهي اوسع الصحف المهجرية انتشاراً وابعدها نفوذاً واغزرها مادة . وكان نعوم مكرزل عنيفاً في حملاته على الرابطة القلمية وأدبها ، يهجنه ويذمه ويجرده من كل محاسنه ، وكثيراً ما كان يتهكم بالرابطة القلمية ، فيدعوها الرابطة الالية . . ولا شك انه كان للخصومات الشخصية أكبر الاثر في هذه الحملات المتحاملة الظالمة . كان نعوم مكرزل كاتباً كبيراً قديراً فخم العبارة ، بارع الاشارة، متضلعاً من اللغة العربية، ولكن « يومياته » طويت بعد وفاته فما جرى حرف منها على لسان، ولا سعى وراءها مجانة عن بلاغة وبيان. ولا وزنها نقادة في ميزان، وكأنها كتبت لتطوى ، وغرست لتذوى، على حين ان ادب الرابطة القلمية، جاب الامصار . وتناقله الكبار والصغار ، وخلب العقول والابصار . وجلس ملكاً على اريكة من نضار . يحف به جلال واكبار .

وفي المهجر البرازيلي نفسه ثار المحافظون كما قلنا على الادب المهجري الجديد الذي جاءهم غازيا من الرابطة القلمية النيويوركية ، كانوا يقولون لكل جديد طلاوة ، اما ادب نيويورك ففيه رخاوة ورغاوة .. واذا سألتهم ما معنى الرغاوة ؟ اجابوا هي بلغة ادباء نيويورك — الرغاء — اي صوت البعير والضبع والنعام ، والصغير اذا بكى واشتكى ... اي ان ادباء الرابطة يعبثون باللغة ويتصرفون في الالفاظ على غير معناها ... وهذا تحامل قبيح . فهل سلم البلغاء وفحول الشعراء ، من الوقوع في اخطاء لغوية ؟

وكان لجبران خليل جبران نسيب في البرازيل يكلف به أشد الكلف ويراه عبقري العصر . وقد شاقه يوماً ان يسمع رأي المفكر العربي الحر والعلامة الكبير الدكتور خليل سعادة ، فدعاه الى منزله وأدب له مأدبة حافلة ضمت نخبة من رجال القلم ، انفق على المأدبة بسخاء ، ليسمع كلمة ثناء . وبينما كانوا يتناولون الطعام التفت صاحب الدعوة الى الدكتور خليل وقال — ما سألناك عن رأيك في جبران ومؤلفاته — فصرخ الحضور : جبران نابغة عبقري ، وتناول احدهم كأسه وقال : هلموا نشرب نخبه ، فشرب الجميع كؤوسهم وقوفاً . وبعد ما جلسوا التفت صاحب الدعوة الى الدكتور خليل وسأله : وانت ماذا تقول ؟ فتجاهل السؤال ولم يشأ ان يرد . فاعاد الكرة والحف ، فاجاب الدكتور ستسمع رأيي بعد الانتهاء من الطعام ، كي لايؤخذ بالمثل العامي — طعمي التم بتستحي العين ...

وبعدما انتقلوا الى البهو تكرر السؤال ، وكانت الضيافة قد انتهت ، فقال الدكتور خليل اسمع يافلان . . كان استاذنا في الطب في الكلية الاميركية ببيروت يكتب وصفة الدواء (الروشيته) على ثلاثة انواع ، فنوع يقرأه هو ويقرأه الصيدلي أيضا ، ونوع يقرأه هو ، اما الصيدلي فيتعذر

عليه قراءته . ونوع تتعذر قراءته على الطبيب نفسه وعلى الصيدلي معاً ، وصاحبنا جبران في مؤلفاته من طراز استاذنا في كلية الطب .

وكثيراً ماعكف المحافظون الذين حذقوا فن التنقيب عن القواعد والالفاظ ، على النقد اللغوي والبياني على غير طائل ، وكان زعيم هؤلاء المحافظين في البرازيل جورج مسره ، تعاطى الصحافة والتجارة في باريس ثم نزح الى البرازيل وجمع بين الضرتين ، وارتاد النجعتين ، فما وقع من الكلاء على ما يملأ قبضتين ، كان كاتبا بارعا غزير المادة ، شديد الكلف بالنقد اللغوي ، وكنا نحمد له غيرته على العربية لو تنزه في نقده وتجرد من حقد . طارد الشعر فلم يظفر بغير الوزن والقافية ، ثم يقدم منظوماته مثالا يحتذى للشعراء المهجريين ولكنه اقتنع بعد حملاته الطويلة القاسية بأن الادب المهجري الجديد كان فتحا رائعا في الادب العربي .

فالمحافظون في الاميركتين كانوا ينظرون شزراً الى الادب المهجري ويحاولون بكل ماأوتوه من الوسائل ان يجتثوه ويقطعوه من اصوله ، فما افلحوا ، بل نما وزكا وبسقت غصونه مثقلات بدواني القطوف ، ترحب نفحاتها الضيوف ، وتبسط لهم ظلالها وفي الثغر هنوف وفي الصدر حنان هتوف .

ثم انتقلت هذه المعركة بين القديم والجديد من الاميركتين الى الاوطان العربية وكان الادب المهجري قد ذاع وردّدته الافواه، وتعصب له قوم وانكره آخرون. ولم يسلم الشعر المهجري وعناصره كما قلنا لبنانية وسورية من حملات بعض اللبنانيين كصلاح لبكي مثلا في كتابه «لبنان الشاعر» وكانت آخر الحملات على الشعر المهجري تلك التي شنها عزيز اباظة وجماعته في مصر على اثر المحاضرات النفيسة التي القاها جورج صيدح في معهد الدراسات العليا ، فتصدينا للرد عليهم ، وفندنا ما ضبطوا فيه وخلطوا . ولعل كتاب جورج صيدح «ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية» اثمن ما قدمه مغترب الى وطنه من عطاء الروح والفكر والقلب.

ولنعد الى موضوعنا بعد هذا الاستطراد الذي اقتضاه الموضوع ، فنحن عندما نعني بدراسة الادب المهجري يجب علينا ان نعني ايضا بدراسة البيئة المهجرية العربية التي نشأ فيها هذا الادب وترعرع . والحديث عنه يقودنا حتما الى الحديث عن المغتربين ، لان الصلة بين الادب المهجري والمغتربين وثيقة كل الوثاقة لا تنفصم عراها . وقد حدثنا القراء في مستهل المقال عن جوالينا وفتوحاتها العمرانية والصناعية والتجارية ، بعدما عاشت من الحرمان المادي والفكري في وطنها ضروربا والوانا.

ولعلنا لانغالي اذا قلنا ان الفضل في بروز المواهب الادبية والفكرية والشعرية التي قام عليها ادبنا المهجري في اميركة اللاتينية لانغالي اذاقلنا ان الفضل يعود الى تلك البيئة المهجرية شبه الامية

فهي التي شجعت وكشفت عن المواهب ، وهي التي مهدت للشاعر والكاتب والخطيب ، وهي التي فجرت ــ الكلمة ــ في افواه الموهوبين غير المصقولين ، وهي التي قفبت لتعثر على مناجم الفكر ، وهي التي قادت الشاعر الى لحنه وقافيته ، والكاتب الى قرطاسه ويراعته ، والخطيب الى نبرته وسجعته ، والمفكر الى كتابه وروايته ، لولا تشجيع هذه البيئة شبه الامية ، بل قل لولا مجاعتها الفكرية الاجتماعية التي حملتها من الوطن ، بعدحرمان طويل الزمن ، لانطوت تلك المواهب وانطوى معها حدث تاريخي ادبي جليل .

فقد عكفت هذه الجوالي شبه الامية منذ حات في موطنها الجديد على تأسيس الجمعيات والاندية والمدارس واقامة الحفلات التمثيلية والغنائية والادبية ورصد ريعها للاعمال الخيرية في الوطن والمهجر . وكانت تفتقر الى خطباء وشعراء وعناصر فنية اخرى ، وتبحث عنهم في كل وجه تتوسم فيه شيئاً من الموهبة ، فما ان تبلغ فجر القرن العشرين ، حتى كان المسرح العربي في سان باولو وعواصم اميركية اخرى مزدهراً ، وحتى كان المنبر العربي حافلا وحتى كان الغناء العربي يدغدغ آذان النجوم . والصوت العربي يشق عنان اسماء الاميركية !... فكانت هذه الحفلات المتوالية مدرسة عمليـــة للتدريب والتثقيف وصقل المواهب .

وكان الفضل كل الفضل لتلك المجاعة الفكرية والاجتماعية التي اهابت بالبيئة المهجوية شبه الامية وحملتها على نشدان مايشبع روحها الجائع وقلبها الظامىء ، وعلى البحث عمن يأتيها بزاد الفكر والقلب والروح ، وعمن يدفع شر الحرمان المرهق في نفس تطمح الى الافضل والامثل ، والامنع والارفع . واني لا اظلم المغتربين من سوريين ولبنانيين ، اذا قلت ان الحمصيين هم الذين حملوا لواء النهضة الاجتماعيـــة ، وهم الذين هيأوا لجوالينا تلك الحفلات الادبية والتمثيلية والفنية وهم الذين كشفوا عن المواهب وشجعوا اصحابها ، فكانت العنــــاصر الحمصية (الخبز والخمر) وكهنة الهيكل في كل مشروع اجتماعي او وطني او ادبي . ولو اتيح لي المجال لافردت لمآثرهم كتابا برأسه .

واذاكان الحمصيون ، وعلى الاخص في البرازيل وسائر اقطـــــار اميركة اللاتينية ، قد حملوا لواء النهضة الاجتماعية ، فالانصاف يدفعنا الى الاعتراف بفضل اللبنانيين في انشاء الصحف والمدارس العربية ، وما كانت هذه الصحف ــ على هزلها في باديء امرها ــ لتنتشر وتزدهر ، لولا تلك المجاعة الفكرية والاجتماعية التي

كان يكابدها المغتربون بعد نزوحهم عن الوطن ، وما كان السوريون ومثلهم اللبنانيون يحسون هذه المجاعة المرهقة لو كانوا كأحد الشعوب البدائية التي قصرت مطالبها الحياتية على اللقمة والثوب والتلذذ الجسدي ، نعم ما كان مغتربونا الغطارفة يحسون مجاعة الفكر والقلب والروح ، لولا أنهم حلوا في اعماق نفوسهم حضارات عريقة راقية انطبعت آثارها في اذهانهم وقلوبهم وارواحهم ، بل ما اشبه نفس السوري بأرضه التي ازدحم في كل شبر منها تحفة وأثر خلاب ، وتاريخ وحديث مستطاب ، واضطجع في كل بقعة منها عمالقة فكر وغلاب ، وكواكب عبقرية وكتاب . واعلام فن وعمران وعجاب . وابطال انسانية ومروءة ومحراب . تطوف اشباحهم فيتدفق النور والملاب ، وتعلق الرؤى بالاهداب وتنطبع في النفس العربية السورية ، اسطورة شعب منجاب ، وآية تاريخ مخصاب .

هذا هو السوري حين يرهف حسه ، ويعرف نفسه ، ويقتبس لغده أمسه . وقد أتاح الاغتراب للعربي السوري رهافة الحس ومعرفـــة النفس ، وارداف الغد بالامس . فاستعلى بعد ضعة ، ورتع من المجد في بحبوحة وسعة ، ولا غرابة بعد هذا ان تقترن فتوحات المغتربين المادية الجبارة ، بفتوحاتهم الأدبية السيارة .

ونحن عندما نؤرخ للأدب المهجري فعلينا أن نشيد بذكر اولئك الصحفيين الرواد الذين صح فيهم القول ــ فضل جزيل وحال هزيل ــ فقد كانت جرائدهم مدرسة لهم وللمتأدبين الناشئين وللجالية أيضاً ، كما كانت الحفلات الادبية وسواهـا مدرسة لصقل المواهب من نحو ، ولتثقيف الجالية من نحو آخر . وكان الخطباء والشعراء يشتركون بمنثورهم ومنظومهم في هـــذه الحفلات متصوفين متصدقين ، قانعين بما يلاقون في أعماق نفوسهم من ارتياح ورضا وحسبهم انهم لبوا نداء الواجب ورغبات النفس والقلب ، ونالوا نصيبـــاً من شكر الجماهير ، وكانت هذه مغانمهم الكبرى ، بل كان هذا التطوع المجاني في بيئة مادية ، مدعاة الى التحرر من الملق والزلفى والتكلف **فأتسم الادب المهجري بميسم الصدق وهو من أبرز صفاته وحسناته . الادب المهجري أدب صادق ، غير منافق ولا مماذق انه أدب اخلاق ، لا أدب أوراق . انه ادب شعور وحس ، لا ادب تملق وفلس ، فلا يدمع الحرف حين لا يدمع الطرف ، ولا ينتفض المـــداد حين لا يرتعش الفؤاد ، ولا يضحك القلم حين يعتلج في الصدر الالم ، ولا يأنس القرطاس ، بما تنبو عنه الحواس ، ولا يسلس البيان ، حين لا ينبثق عن عقيدة وايمان ، انه أدب حب وجمال ، لا أدب مصـــانعة وابتذال ، واستدرار للأموال وتحسين الاحوال ...**

وقبل ان نختم هذا الفصل لا بد لنا من ان نتساءل : قلنا ان فرسان الادب المهجري هم سوريون ولبنانيون فلماذا انحصر فيهم وحدهم هذا الادب ، فما برز في المغتربين الفلسطينيين الذين لا يقلون عدداً عن السوريين ؟ أليس غريباً حقاً أننا لا نرى أديباً مهجريا من فلسطين ؟

وهناك سؤال آخر : في أقطار افريقية الغربية عشرات الالوف من المغتربين اللبنانيين وبضع مئات من السوريين فلماذا لم ينبغ بينهم أديب أو شاعر كما نبغ في الاميركيتين ؟

وهناك ما هو أعجب وأغرب ، فقد نزح الى مصر عشرات الالوف من المغتربين السوريين وعشرات الالوف من اللبنانيين ، وكانوا كلهم على قسط من العلم ، خلافاً لاخوانهم الذين أقاموا في الاميركيتين ، ولكننا لا نعثر بينهم على أديب نبغ في مصر نفسها ، ولا عبرة بصروف وغمر ومكاريوس وزيدان وزيادة والمطران ونقلا والغضبان واليازجي والحداد وزلزل والشميل وفرح انطون وثابت والجميل وغانم وسواهم من رجال الصحافة وأرباب الاقلام، فهؤلاء كلهم تأدبوا وتثقفوا في وطنهم نفسه، وكانوا كتاباً وشعراء وعلماء قبل ان ينزحوا الى مصر، فلا يصح الاحتجاج بهم .

ولماذا انطلقت مواهب المغتربين الفكرية والادبية في بيئة شبه امية، وفي اقطار غير عربية، ولم تنطلق هذه المواهب في قطر عربي كمصر مع ان مجال النبوغ متسع فيها بعكس البيئة الاميركية ؟

اننا نحار في تعليل هذا (العقم) كما نحار في تفسير (الخصب) المدهش الذي تفتحت عنه قرائح المغتربين في العالم الجديد ، وليس من الاسراف بعد هذا ان نعتز اشد الاعتزاز بتاريخنا العربي في الاميركيتين ، هذا التاريخ المشرق الذي ينتظر قلماً حاذقاً رهيفاً يزفه الى قراء العربية ، ملحمة رائعة ، في شبه اسطورة بارعة ساطعة ...

دور العقل والعاطفة في تراثنا الشعري

بقلم : أحمد الجنبري

الشعر ، في كل اللغات لا يعدو أن يكون فنا جميلا ، والفن الجميل عمل فكري وروحي يخرج من حيز القوة الى حيز الفعل بعد انفعالات متشابكة ، وتأثرات مشتركة ، تسهم فيها العاطفة ، كما يسهم العقل . لذلك كان من البديهي القول مبدئيا ان الفصل بين هذين العنصرين الهامين ، العقل والعاطفة امر غير ممكن وهدف غير علمي . واصل الشعر فكرة عابرة تخطر على البال ، ولكنها فكرة غير مجردة من عوامل اخرى تشذب منها وتهذبها وقد تزينها احيانا او تعقدها احيانا اخرى ، فهي ليست فكرة فحسب ، بل فكرة تضاف اليها عناصر اخرى هي التي تجعل منها مادة شعرية اوفنية ان اردت الاعم .

والعقل والعاطفة ، رغم اشتراكهما في تكوين الشعر فإنهما لا يشتركان بالتساوي ، بل يكون احدهما بطبيعة الامر

غالباً على آخر ، ومن هنا نشأ نوع من الشعر تظهر فيه المسحة العقلية وتبدو عليه الظاهرة الفكرية بدوا يغطي على ماسواه او يحجب اثره ، كما نشأ نوع آخر تغلب عليه العاطفة ، ويبتعد عن المظهر العقلي بعدا يكاد يجعله عاطفيا كله .

ونحن نعلم ان التفكير العقلي تفكير متزن يشتمل فيما يشتمل عليه ، المنطق السليم ، ولايخرج عن النظرة العاقلة الصحيحة ويكاد الشاعر العقلي يجعل من بيت الشعر مقدمة تعقبها نتيجة ، فهو يقدم لك الموضوع ثم يبدي رأيه كنتيجة حتمية وماعليك انت الا ان تأخذ هذه النتيجة على انها قاعدة لاتقبل الجدل لأن عقل الشاعر اتى بها .

اما العاطفة ، فاندفاع نفسي يشترك فيه الهوى والهيجان والميل وغيرها ، كل هذه تشترك فيما يسميه علماء النفس بالحياة العاطفية ، كما يسمون مظاهر العقل بالحياة العقلية ، وهذه العاطفة تكون على مقربة من العقل بحيث تشترك معه في كل مايتناوله من امور ، ولهذا فان الشعر العقلي يبدو مشوبا بالعاطفة ، كما يبدو الشعر العاطفي مكسوا بالعقل ، ولايمكن أن يعيش منفرداً عن احد هذين العنصرين ، او مستقلا باحدهما دون الآخر . على ان العقل ، وان كان مخلوقا مع خلقة الناس ، الا انه قد يبقى بدائيا فطريا اذا لم تؤثر فيه المؤثرات فتطوره وتنقله من حالة الى اخرى حسب الظروف والاحوال فعقل الطفل يكون طفلاً ، وعقل الرجل يكون اقرب الى الاكتمال ، مالم تكن هنالك عوامل عارضة تؤخر نموه من مرض او نقص طبيعي ، فاذا اكتمل الرجل « فيزيولوجيا » كان عقله متمشيا مع اكتمال بنيته ، ثم تأتي بعد ذلك امور طارئة خارجية في اغلب الاحيان ، تعمل على تطوير العقل واهم هذه الامور العلم والثقافة والاطلاع ، وهي امور تشحذ العقل وتطوره وتغذيه كما يتغذى الطفل ذاته ، وحينئذ نرى ان العقل قد اخذ يتطور في انتاجه تطورا يتناسب مع هذه الثقافة تناسباً طرديا .

والعاطفة ايضاً قد تولد بدائية ثم تتقدم ، ولكن تقدمها لايكون عن طريق الثقافة ، بل عن طريق التأثر المباشر بالمحيط ، او بالحياة الخاصة التي يحياها الانسان ، كما ان الفطرة ذاتها قد تؤثر في تضخم هذه العاطفة او ضمورها.

ومن البديهي بعد هذا أن يكون العقل والعاطفة قطبين يتبادلان القوة والضعف حسب الاشخاص ، وان كانا مشتركين دائماً وغير منفصلين .

وانظر الى ماقاله رينان في هذا الصدد « **انها حالة عقلية تتحد فيها عناصر الطبيعة الانسانية كافة في انتظام اعلى فاذا تحققت في الكاتب الانساني كونت الانسان الكامل** » ويقول بما يقرب من هذا المعنى جورج ماكولي تريفليان «**لاتتألف روح الشعر في تدوين التاريخ من خيال يطوف في الفضاء ، ولكنها تتألف** من خيال يقتفي اثر الحقيقة ويلصق بها ، **فعلم المؤرخ وبحثه يجسد ان الحقيقة** ، وخياله وفنه **يوضحان مدلولها** » .

فالعناصر تتحد ، في رأي رينان ، لتكوين الاثر الادبي او الفني ، وفي رأي تريفليان ، تتكون روح الشعر من خيال يقتفي اثر الحقيقة ، ويشترك في تكوينها العلم والبحث مع الخيال .

وكل شعر اذن لابد له من حقيقة وخيال أي لابد له من عقل وعاطفة .

بعد هذه المقدمة نستطيع ان نصل الى صلب البحث بالنسبة « لتراثنا الشعري واثر العقل والعاطفة فيه » فقد اتهم بعض الشعوبيين العرب بانهم بعيدون عن التفكير الجدّي ، وقد فرق هؤلاء المتعصبون الحاقدون بين العلوم العقلية والشعر ، فنفوا عن العرب اي أثر في الفلسفة وغيرها واختصوهم بالشعر وحده ، والذي يبدو من قولهم ان الشعر في رأيهم لايحتاج الى اعمال روية وكد ذهن وعقل وانظر الى قولهم « **ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة الا ما كان من الشعر**» وقد رد

الجاحظ على هذه التهمة بان « العرب قوم يعتمدون على الفطرة ، فهم مطبوعون غير متكلفين ، وليسوا كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله ».

ويقول **«اوليري»** مخالفاً ماص بنا « ان العربي الذي يعد مثلا او نموذجاً ، مادي ينظر الى الاشياء نظرة مادية وضيقة ، وليس لديه مجال للخيال والعواطف» ولكن هذه الاوصاف التي يختلف فيها المادح والقادح كلها لا تؤدي الى النتيجة المعقولة اذ ان النتيجة الصحيحة هي ان العرب كغيرهم من الأمم فيهم ناحيتهم العقلية ، وفيهم أيضاً ناحيتهم العاطفية ، والنسبة بين هذين العنصرين كما قلنا آنفاً مرتبطة بالشخص ذاته ، والصفة الغالبة هي المعتبرة .

والعرب ان اتهموا بالتقصير في الخيال ، فلم يؤلفوا القصص والاساطير ، فهم لم يقصروا في ميدان العاطفة وقد امتلأ الشعر العربي غزلاً وبكاء ووصفاً وذكريات ، والتياعاً وهياماً وكلها لا يمكن ان تصدر الا عن عاطفة متوفزة وشعور عميق دافق .

ولعل العربي في أول عهده قد كان بعيداً عن التعمق العقلي في الامور لأن طبيعته مبنية على سرعة الفهم ، والاكتفاء باللمحة الدالة والاشارة المفيدة ، ومن ذلك فقد كانت اكثر آثار العرب الفنية معتمدة على الارتجال الذي هو ميزتهم الكبرى في جاهليتهم وصدر اسلامهم وحتى هذه الايام .

ولم يكن العربي في جاهليته يشغل نفسه في تعليل الامور المحيطة به ، ولم يكن مهتما بالعلة والمعلول ومبدأ السببية ، بل كان يعلم مبدأ الامور التي تمخض عنها الطبيعة ، ثم يعرف نتائجها ، أما الرابطة بين هذا المبدأ وبين النتيجة فلم تكن تشغل له بالاً إلا بمقدار مايفهم النتيجة الواقعة . ولذلك التفت الى التعليل الارتجالي ، والتفكير المبني على الوهم والالهام دون اللجوء الى مايثبت صحة هذا الوهم والالهام ، ومنها نشأ عند العرب بعض الاساطير في جاهليتهم ، كما نعلم عن قصص الجن وغيرها في تاريخهم ولعل اغلب الامم في جاهليتها تكون على هذا الشكل وهذا سر وجود

الأدب الاسطوري عند اليونان ، ولهذا فان الشعر في العهد الجاهلي قد كان بعيداً عن التفلسف العميق والجهد العقلي وكان شعراً متألقاً خفيف الظل لأنه كان يعتمد على الخطرة الطارئة والحدس الفاجيء ، تخطر الخاطرة الشعرية على بال الشاعر فيتحدث عنها ويصف اثرها في نفسه ولكنه لا يعللها لك ، ومن هنا فان الشعراء في هذا العهد قد اخذوا بالأثر العاطفي ،فقد أحبوا كثيراً ،وذكروا الاحبة والمنازل، في بيت من الشعر كما فعل امرؤ القيس ، وهذا الاعتماد على الخاطرة العابرة هو مايرفع من شأن الفن ، وفي حين ان التعمق العقلي قد يحول في كثير من الاحيان دون اكتمال الفن وظهوره على الوجه الكامل .

على أن الجانب الذي يمكن ان تعثر فيه على الأثر العقلي في الشعر الجاهلي ظاهر في الحكم التي اوردت على لسان بعض الشعراء منهم وخاصة زهير ابن ابي سلمى ، الذي اعطانا بعض الدساتير الانسانية ، نتيجة لتجاربه وقد عاش ثمانين حولاً حتى سئم حياته ، ولكن هذه الدساتير لاتخرج عن كونها نظرات سطحية ترى النتائج فتصفها ولاتبين اسبابها ، وأنت تلحظ من غير شك هذه الحكمة التي يطالعك بها زهير بن ابي سلمى ، فترى فيها البساطة وعدم الشمول ، لأن من ابرز صفات العربي ان تكون نظرته مختصرة قاصرة على نواحي خاصة في المرئي ، وليست نظرة كلية تتحسس الدقائق وتبحث جاهدة عن التفاصيل . ولا ننسى ان النظرة الشاملة هي النظرة العقلية الصحيحة العلمية ، في حين ان النظرة التي تختار مايعجبها في المرئيات هي نظرة يعمل فيها الذوق اكثر مما يعمل العقل . ولهذا قال « **شارل بلات** » الاستاذ في الصوربون : يعتري القارىء بصورة عامة الملل عند قراءة الآثار العربية مهما كان موضوعها وعنوانها مغربين لأن بريق الالفاظ يعجز عن اخفاء عنصر الفكر تارة ، أو أن هذا الفكر ، على الرغم من غناه ، يسكب في قالب مستكره بعيد عن الرشاقة تارة اخرى (١) .»

(١) كتاب الجاحظ ترجمة الدكتور ابراهيم كيلاني .

وللوهلة الاولى نستطيع ان نقر ان الشعر الجاهلي شعر عاطفي في اكثره لأن الحياة البسيطة ، كحياة البادية لا يكون فيها مجال للتعقيد الفكري والتعمق العقلي ، مادام العلم غير موجود ، والثقافة مفقودة إلا ما كان من بعض الشعر المتداول ، وبعض الاساطير وقصص الجنّ التي تعمل فيها العاطفة اكثر من العقل، والعلم والثقافة هما من ادوات العقل لأن العقل يوجدهما وهما بدورهما يغذيان هذا العقل فالعلم والعقل قطبان يتبادلان النفع والعمل ، واختصار العلم في البادية العربية في العهد الجاهلي ادى الى ان يكون دور العقل في الشعر دوراً بسيطاً ، كما رأينا في حكم زهير بن ابي سلمى ، وفي بعض امثال النابغة الذبياني ولبيد بن ربيعة وهم من كبار رجال المعلقات ، ولعل مايثبت ضعف دور العقل في الشعر الجاهلي هذه الآراء التي تنسب لبعض الناقدين في المقارنة بين شعراء المعلقات وأيهم أشعر فيكون الجواب : فلان اذا طرب وفلان اذا رهب وفلان اذا رغب الى آخر ذلك من الأوصاف والنعوت التي تتناول الاعصاب وتتعلق بالظاهرات النفسية العاطفية ، ومن الطبيعي ان الطرب والرهبة والرغبة كلها ادوات تشتق عن العاطفة وليس للعقل فيها عمل كبير ، هذا اذا لم نقرر انها ، على العكس ، تضعف من شأن العقل وتؤدي الى اضطراب التفكير .

على حين ان العمل العقلي يتطلب هدوءاً واطمئناناً ليمكن الاستنباط والتعمق في مظاهر الحياة والطبيعة . وهذه البساطة التي تلوح على الشعر العربي هي مصدر الجمال فيه ، فالعربي كثير التنقل في افكاره، يعتوره الملل اذا استمر في سبيل واحدة، لأنه يكره الحياة الرتيبة . ولأن طبيعة عيشه الصحراوي قائمة على التنقل من مكان لآخر انتجاعاً للكلأ وللراحة، ومن هنا فان القصيدة العربية وخاصة في العصر الجاهلي، لا تسير على الترتيب المنطقي، ولا هي مترابطة ترابطاً عقلياً لا يمكن فصمه او زحزحته، بل على العكس فان القصيدة في هذا الشعر يمكن التأخير والتقديم بين ابياتها وكثيراً ما يمكن تبديل الاشطار بين بيت وآخر دون ان يختل المعنى اختلالا كبيراً.

على ان هذه الصفة ـ عدم الترابط العقلي والمنطقي ـ في القصيدة العربية تشمل الشعر العربي كله ولهذا وجدنا ان النقد الموجه الى هذه الناحية في الشعر العربي نقد خاطىء غير صحيح لأنه موجه الى الطبيعة العربية لاالى الشعرالعربي، ولعل القارىء يذكر ان الاستاذ **العقاد حمل على شوقي** حملة مغرضة في نقد قصائده لأنها مفككة المنطق لا تؤلف وحدة واحدة ، وقد ضرب على ذلك مثلا قصيدة الشاعر في رثائه **للزعيم مصطفى كامل** ، ومطلعها :

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني

فقرأ القصيدة من الاسفل الى الاعلى ومن الاعلى الى الاسفل دون ان يجد فرقاً كبيراً بين القراءتين وهذا التفكك كما قلنا ليس عيباً عند شوقي ، وليس من الضرورة المبرمة ان يكون شعرنا العربي مثلا او شبيهاً او قريباً لأي شعر من أشعار الامم الاخرى ، وكل بيت عند الشاعر العربي أو كل شطرة ، تؤلف فكرة مستقلة ، وهذه طبيعة في الشعر لا يمكن تبديلها إلا تقليداً . فالطبيعة الشاعرة العربية ، طبيعة تعتمد على الذوق ، والعاطفة والحس المرهف ، اكثر مما تعتمد على التنظيم العقلي المنطقي والتسلسل الفكري الذي يبعدنا عن الجو الفني اللطيف ، ويزجنا في جو متعب ، و « بعض العقل عقال » كما يقول المتنبي . و « الشعر لمح تكفي اشارته » كما يقول البحتري ؛ وامرؤ القيس في رأينا يمثل هذا الشعر ، الشعر الجاهلي البسيط العاطفي ، فقد تغزل الشاعر ووصف ، وشكا جور الزمان وفراق الاحباب والديار ، كل ذلك في شعر يصعب ان تجد فيه اثر المنطق ، واقرأ له مثلاً وصف الليل :

وليل كموج البحر ارخى سدوله — علي بانواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه — واردف اعجازا وناء بكلكل
الا ايها الليل الطويل الا انجل — بصبح وماالاصباح منك بامثل

واقرأ له رثاء نفسه :

ويسارب مكروب كورت وراءه
وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا
وما خلت تبريح الحياة كما أرى
تضيق ذراعي أن أقوم فالبسا

وهكذا تجد سيد الشعراء الجاهليين في غزله وفي بكائه وفي وصفه، وحتى في حكمته، مسوقاً بالعاطفة مندفعاً وراءها، لا يهمه اخرج كلامه منطقياً ام لا، لأنه يمثل البدوي الصحراوي الذي شغل قلبه بالحسان الغيد وبالطبيعة الجميلة المغرية فنسي نفسه وعقله والتفت الى ما تهديه اليه عيناه الشاعرتان بجمال الوجود ولا بد استكمالاً للموضوع من ان اسير بك في خط بياني يعرج بنا نحو العقل تارة ونحو العاطفة كرة اخرى وانا ضمين لك ان يكون هذا الخط اكثر انعراجاً نحو العاطفة، بل ان انحناءه نحو العقل لنادر جداً.

ولو انحدرنا من امرىء القيس الى صدر الاسلام، لوجدنا ان العاطفة هي كل شيء، ولا ننسى بهذه المناسبة العاطفة الدينية التي زرعها الدين الحنيف الجديد والتي الهبت الشعور، واقامت العرب واقعدتهم واججت عاطفتهم، ومما لا شك فيه ان التفكير السامي الذي جاء به الاسلام قد كان ارفع مستوى واعلى منالاً من العقلية العربية الساذجة في تلك الايام. ولهذا فان العاطفة قد كانت الحادث الاول الذي اندفع وراءه العرب يؤيدون صاحب الرسالة الجديدة، ولقد خفت صوت الشعر ردحاً من الزمن في ايام النبي — ص — بسبب انصراف الناس الى الجهاد والعبادة، ولأن الشعر قد كان اداة هجوم في يد المشركين، ولكن الدين الجديد ما كاد يستقر حتى تحركت العبقريات الشعرية وظهر على مسرح الشعر الثلاثي العظيم جرير والفرزدق والاخطل، ويتبع هؤلاء عدد من الشعراء الذين ينضوون تحت هذه المدارس الثلاث، والتحم الخصوم وتبادل الشعراء الفخر والهجاء فكانت

المعركة الادبية الخالدة ، وكان وقودها العاطفة القلبية التي لم يفثأ من وقدتها الدين الجديد رغم تشدده في كبح جماحها والحد من نشاطها .

وجاء بعد هؤلاء الشعراء ، شعراء العاطفة المعروفون وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة ، والعذريون من امثال جميل وكثير وابن الملوح وقيس لبنى الى آخر هذه السلسلة التي تحدثت عن العاطفة العربية الساذجة الصادقة . لقد تحدثت عن الحب حديثاً ملوءه الدمع والشوق والضنى ، ولم يكن في كل هـــذا الشعر ، على روعته وجلاله ، اثر من المنطق العقلي ، الا ما يجعله كلاما مفهوما ، ولقد سيطرت العاطفة على هذه الفترة من الحياة الادبية العربية سيطرة تامة .

واسمع لقول جميل :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة ... بوادي القرى اني اذن لسعيد
يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... واي جهـــاد غيرهن اريد
لـكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيـــد

انه يقلب المفاهيم العقلية الى آراء عاطفية بعيدة عن التعليل المنطقي فاذا قيل لجميل جاهد فان الجهاد فضيلة . قال : ان الجهـــاد الصحيح هو ما كان بين الغادات الحسان ، يروح الرجل بينهن ويجيء حتى اذا قتل ، قتل شهيداً ، كمن استشهد في المعارك والفتوح ، ويلاحظ القارىء ان هذا الشاعر قد عاش في صدر الدولة الاموية ،والاسلام قريب عهد بالعرب .

وهذا مجنون ليلى يقول حين يذكر ليلى :

اصلّي فما ادري اذا ما ذكرتها ... اثنتين صليت الضحى ام ثمانيا

لقد احال معنى دينياً جدياً ، هو معنى الصلاة ، وما فيه من تقوى وورع، الى معنى يفيض بالعاطفة فاذا ذكر حبيبته نسي صلاته مندفعاً وراء الخيال المأمول، وان في ذلك كما ترى،لعاطفة مغرقة تترك العقل جانباً وتدع الفكر هملا لا وزن له.

وخذ نواحي الحياة الاخرى فقد تأثرت كلها بالاسلام ، ولكن هذا الاثر قد اخذ يزول شيئاً فشيئاً في العهد الاموي ، وراحت الحياة الجدية تضعف كلما بعد العهد بالاسلام ، حتى لقد اورد الاستاذ احمدامين في « فجر الاسلام » ان « كثيراً من شباب بني امية وبعض شباب بني هاشم كانوا يعيشون عيشة هي الى الجاهلية اقرب منها الى الاسلام ، شراب وصيد وغزل ، كيزيد بن معاوية وصحبه ، وهذه الحياة لا نستطيع ان نسميها الا حياة عاطفية لا تتفق مع العقل والمنطق في كثير او قليل . والشعر الذي ينبثق عن هذه الطباع الاصيلة عند العرب ، شعر عاطفي محض لا يأتيه العقل الا لماماً ولا يطوف به المنطق الا من بعيد . حتى يروى عن يزيد بن معاوية انه استشهد ببيت من الشعر بعد ضرب المدينة وهذا البيت قاله احد الشعراء المشركين يوم احد يذكر المسلمين يوم بدر وانهم اي المشركون انتقموا منهم واخذوا ثأرهم ، والبيت مشهور وهو :

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

واشياخ يزيد هم اقرباؤه المقتولون ببدر : عتبة والوليد وشيبة وغيرهم ، والخزرج يمثلون الانصار الذين حاربوا الى جانب النبي في وقعة بدر .

لقد نسي يزيد انه خليفة مسلم ، واندفع وراء عصبيته الاموية الجاهليـة وليست العصبية الا لونا من الوان العاطفة لا يعمل العقل في اثنائها الا قليلا . وهذه العصبية هي التي اوحت لجرير والفرزدق والاخطل ونصيب والراعي وغيرهم ممن التزموا جانب القبيلة، اهاجيهم واماديحهم ونقائضهم، وكلها تنضح بالشعر العاطفي الخالص.

ويسير بنا الخط البياني الى مطلع العهد العبـاسي ، لنرى ان الامر تبدل فجأة وقد دخل عنصر غريب في الثقافة العربية ، دخلت اللغـة الفارسية على يد الحركة العباسية التي اعتمدت الفرس ولم تعتمد العرب ، وجاءت العرب ثقافات جديدة ، من فارسية ويونانية وهندية ، ومعنى هذا ان عنصرا ثقافيا قد دخل في الشعر وكان بشار وابونواس زعيمين في هذه المعركة ، واسمع بشارا كيف يقول :

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولاتجعل الشورى عليك غضاضةً فريش الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف امسك الغل اختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم

فهنا مقررات عقلية منطقية مكسوة بغلالة رقيقة من الشعر لاتكاد تستر ماوراءها ، وهنا مقدمات،فهو ينهاك عن ان تجعل الشورى غضاضة عليك، كمقدمة للفكرة ، لأن النتيجة ، أن ريش الخوافي قوة للقوادم ... الخ وهويقول ايضا :

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا اوصل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

القضية ذات مقدمة ونتيجة ، فانك ان عاتبت صديقك في كل امر ، نفر منك ولم تلق صديقا بعده ، ولهذا فان عليك ان تعيش وحيدا ، او ان تحتمل من صديقك بعض هفواته لتستطيع العيش وإياه .

فالامور هنا متسلسلة منطقية ، تبدأ بالمقدمة وتنتهي الى النتيجة المعقولةالتي لا نتيجة غيرها . في حين ان الشعر الجاهلي العاطفي او الاموي غير هذا ، فان المقدمات هناك ، ان وجدت مقدمات يمكن ان تكون لها نتائج كثيرة متناقضة لاترابط بينها لانها مبنية على منطق العواطف لامنطق العقل .

ويسير الخط البياني سيرة اخرى ليبلغ بنا ابا تمام والمتنبيوابا العلاء ، وعند هؤلاء يبدو العقل واضحا والمنطق جليا ، فان الثقافات الجديدة الغربية قدتوضحت عن طريق الترجمة وتمثلها العرب واصبحت آثارهـــا بادية في مذاهبهم الفلسفية والدينية ، ونشأت الفرق العقلية من معتزلة الى قدرية الى مرجئة الى باطنية مختلفة الاسباب والفروع ، وكل هذه الظواهر قد بدت آثارها على شعر هؤلاءالشعراء الثلاثة الذين يمثلون العصر الذهبي للشعر العباسي .

فابوتمام قليلا ماكانت تجره العاطفة فتخرجه عن منطقه الشعري وتعليله الفني للامور التي كان يتناولها وقد زادت نسبة العقل عند المتنبي الذي كان يقيس

الامور بمقياس عقلي محض ، والشواهد على ذلك مبثوثه في ديوان هذين الشاعرين واشير بصورة خاصة الى هذه الحكم الرائعة التي جرت على لسانيها ولعلك تصل الى النتيجة التي قدمتها لك اذا قارنت بين هذين الشاعرين والشاعر البحتري ،اذن **لوجدت البون شاسعاً . فالبحتري شاعر عاطفي ، تأخذ به فلا يتفلت منها الا بشق النفس ، ولعل ابا العلاء قد عبر عن هذه المقارنة ، بين العقل والعاطفة عند هؤلاء الشعراء الثلاثة : حين تحدث عنهم فسمي شعر البحتري « عبث الوليد » على حين سمى شعر ابي تمام « ذكرى حبيب » وشعر المتنبي « معجز احمد » ولايخفى ان العبث اشبه بعمل الاطفال وهم كلهم عاطفة تتحرك .**

ولكن هذا لايمنع من ان يكون عند ابي تمام لون من العاطفة الشاعرة بالنسبة للمتنبي ، الذي كانت عاطفته مختصرة الا في بعض المواطن التي تشوق بها لسيف الدولة اوهجا كافورا ، فقد صدر بها عن عاطفة صادقة فارقت العقل قليلا.

اما الشاعر العاقل ، ان صح هذا التعبير ، فهو ابو العلاء ، ولعل هذا الشاعر اقرب الى الفلسفة منه الى الشعر ، بل ان مادة الشعر عنده لقليلة جدا .

وقد اشتهر بعدد من القصائد لا تتجاوز اصابع اليد عدا ، وببعض الابيات التي جرت مجرى الامثال، وكلها امثال عقلية ، لم تتحدث عن عاطفة، حتى اذا اراد الحديث عن العاطفة كبا به جواده كبوة قوية ارجعته الى عقله ومنطقه السليمين .

بهذا نجد ان خط الشعر العربي قد كان ميالا الى العاطفة في اكثر انحرافاته والتواءاته ، لأن العربي بطبيعة نفسه عاطفي ، يحب ان يدرك الامور ارتجالا ، ولا يدركها تعمقا وتبحراً ، ولعل هذه الصفة من اقوى الاسباب التي اضعفت عند العرب قوة الاختراع في كل شيء ، ولعلها ايضا من اقوى الاسباب التي تجعلك وانت تقرأ الشعر العربي تحس كأنك انت قائله ، لانه من ارفع انواع الشعر التي تتجاوب مع الانفس وتتآلف مع القلوب .

●

أقسم أمام طفل

قصة بقلم : ألفة ادلبي

ألقيت على عاتقي ذات صباح مهمة شاقة عسيرة ، وكان لا بد لي أن أقوم بها مهما كلفني الأمر ، فليس من السهل علي أبداً أن أتوانى عن تحقيق أمنية امرأة على فراش الموت، كانت قد بعثت إلي بمن يرجوني أن أقنع ابنتها — وهي أعز صديقة علي — لتذهب الى المستشفى وتودع أمها التي تحتضر!.. وكانت الصلات قد انقطعت بين صديقتي هذه وأمها منذ افترقت عن أبيها وتزوجت برجل آخر .

وكنت أخشى أن يبوء مسعاي بالفشل ، فأنا أعرف صديقتي سعاد عنيدة ، متشبثة برأيها الى أبعد حد ، لا تطيق أن يتدخل أحد في شؤونها — مهما تكن منزلته أثيرة لديها — ولا سيما فيما يتعلق بمشكلاتها مع أمها. وقد وقع ما كنت أحذره، فقد رفضت سعاد بادىء الأمر وساطتي مما جعلني أثور عليها

وأقول لها بشيء من التأنيب : ما كنت أحسبك قاسية الى هذا الحد !... أؤكد لك انك ستندمين على تصرفك هذا ، بل ستبكين ندماً ..، ولكن حين لا ينفع الندم ، ولا يجدي البكاء !...

ورغم ما قلته لها تظل سعاد قاعدة أمامي جامدة القسمات ، لا يبدو على وجهها شيء من اضطراب أو حزن ، وترد علي ببرود ولا مبالاة : لن أذهب ... لاتتعبي نفسك أكثر مما أتعبتها .. قلت لك إنني اعتبر أمي ميتة منذ زمن بعيد ، منذ أصرت على الطلاق من أبي لتتزوج من ذلك الرجل التافه !.. كنت أتوقع لها هذه النهاية المؤلمة ، وقد جاءت أسرع مما كنت انتظر !.. سمعت انه تخلى عنها ، وهاجر الى اميركا دون ان يهتم بأمرها ، أو بأمر الجنين الذي في أحشائها . انها الآن تلقى جزاءها .. وقد حزنت عليها مافيه الكفاية منذأقدمت على ماأقدمت عليه ، وقد بلي حزني في طيات نفسي كما تبلى أحزان كل الناس إذا ماعدا عليها الزمن ، فلماذا جئتني أنت الآن تريدين أن تبعثي احزاني من جديد ؟؟.

وينفتح علينا باب الغرفة قبل أن أرد عليها ، ويظهر أبوسعاد بقامته المديدة المهيبة ، كان ممتقع الوجه ، تختلج أجفانه خلف نظارتيه كأنه يحاول تبريردموعه. كان واضحاً انه سمع حوارنا . ويلتفت الى سعاد ويقول لها بصوت خفيض مضطرب فيه لهجة عتاب وتأنيب : سعاد !... يجب ان تذهبي يابنتي الى حيث تدعوك صديقتك ..

ثم ينفتل بسرعة ، ويدخل غرفته ويوصد الباب خلفه كأنه يخشى أن يتبعه أحد .

قلت لسعاد : لايجوز لك أن تعصي أباك أبداً . كم هو رجل نبيل ... أما انت فما أدري ماأقوله عنك ...

وتمتثل سعاد لكلامي ، فتسير أمامي مستسلمة دون أن تنبس بكلمة . ولما

ركبنا السيارة لاحظت انها تعاني حرجاً شديداً . كانت صامتة ينضح وجهها عرقاً ، وتتلاحق أنفاسها كمن أصيب بحمى طارئة . وقبل أن نصل بقليل تلتفت الي وتقول : أحقاً انها تموت كما تزعمين ؟؟ انني لا أريد أن أصدق ذلك . هذه حيلة منك قد اصطنعتها كي تجمعي بيننا بعد فرقتنا الطويلة .

قلت لها : أقسم لك ان خالك جاءني هذا الصباح ، وقال لي : ان امك أصيبت بحمى بعد الولادة ، وقد قطع الطبيب كل أمل من شفائها . وكانت تهذي طول الليل ، وتطلب رؤيتك بالحاح ، فما أن اشرق الصباح حتى هرع خالك الي يرجوني ان اقنعك بالمجيء اليها .

قالت : ماأصعب هذا اللقاء علي .وراحت تفرك يداً بيدمن شدةاضطرابها، ورحت أهون عليها الأمر ماستطعت .

ولما وصلنا المستشفى كان بهوه خالياً الا من بعض ممرضات كن منهمكات باعمالهن مايكدن يظهرن حتى يختفين ثانية ، وكان خال سعاد واقفاً لصق أحد الجدران ، وقد أسند رأسه الى عارضة باب ، فما أن رآنا حتى قال كلمة واحدة خرجت من فمه كقذيفة : ماتت !... ويشير الى سعاد اشارة تفيد ان اخرجي ، أو اشمتي ماشاءت لك الشماتة ...

ويفاجئني الخبر فأجلس على احد المقاعد مذهولة ، بينما تظل سعاد واقفة مكانها ، كأن قدميها قد سمرتا بالأرض ، تنظر حولها بعينين مرتاعتين وقد بدت على وجهها مسحة من بلاهة . وفجأة تظهر امرأة خالها من خلف احد الابواب ، امرأة صغيرة الجسم ، مربدة السحنة ، تنم نظراتها عن خبث ولؤم .وتقف متحفزة على بعد خطوتين من سعاد ، وكأنها استطاعت في آخر لحظة أن تكبح جماح لؤمها فاكتفت بان قالت لها :

— أخيراً وصلت !... ياليتها لم تخلفك !...

ثم تلتفت الى زوجها وتقول له متحدية :

مشا كل اختك معقدة حيةً ميتةً !.. لم تعد تجوز عليها الا الرحمة ... قل لي ماذا قررت بشأن الطفل ؟؟ أقول لك لآخر مرة لن أدخله بيتي ، يكفيني ماألقاه من متاعب أولادي ، لسنا ملزمين به أبداً ..

ويقول لها زوجها : ماهذه المصيبة ياربي !، أتريدينني أن القيه على قارعة الطريق ؟ من أين لي أن أطول أباه ؟ ومن سيكفله إن لم أ كفله أنا ؟

وتلفظ سعاد كلمتين فقط توجهها الى امرأة خالها دون أي تمهيد :

هاتي الطفل ..

وكأن الكلمتين الصغيرتين قد حلتا الازمة المعقدة ، فينزاح الحزن قليلاً عن وجه الرجل ، وتتنفس امرأته بارتياح كمن تخلص من كابوس على صدره . ثم تذهب مسرعة وتغيب قليلاً ثم تعود حاملة الطفل على ذراعها ملفوفاً بقماط أبيض وقد أسدل على وجهه منديلاً شفافاً يدل على أنه مستغرق في نومه . وكانت تحمل بيدها الثانية صرة صغيرة قد جمعت فيها اشياءه ، وتعطيها الى سعادوهي تقول لها:

انه أخوك على كل حال ، وأنت أولى به من الجميع .

وتتناول سعاد الطفل كما يتناول الشيء !.. ثم تحمل الصرة وتتجه نحو الباب وهي تضرب الأرض بخطاها المضطربة . وقد تركتني دون ان تلتفت الي أو تطلب العون مني ، أنا التي أقنعتها بالمجيء ورافقتها الى المستشفى . وبدا لي تصرفها غريباً ، وقد فسرته بانها لاتريد ان يطلع أحد على ماسيجري بينها وبين أبيها إذا مافاجأته بالطفل . وصممت بعد ذلك ألا ازورها مالم تبادئني هي بالزيارة ، أو تطلب الي ذلك حتى لاأسبب لها حرجاً ، رغم اني كنت متلهفة على معرفة أخبارها.وبعد شهور قليلة تردني منها هذه الرسالة التي تقول لي فيها فيما تقوله :

كلما أويت الى فراشي استبد بي الأرق ، وراحت ذا كرتي تستعيد دقائق الامور التي كانت تجري في بيتنا منذ بدأت أعي الى يومي هذا فاذا الحقائق تتكشف لي عن أمور تذهلني وتخيفني ، لأن من الصعب علينا أن نحكم على أنفسنا في معركة

نخوضها ؛ ولكن عندما تنتهي المعركة وتصبح رهينة في طيات الزمن ، تتراءى لنا أحداثها من بعيد ، وتزداد وضوحاً كلما بعد بها العهد فنستطيع عندئذ ان نتجرد من ذاتنا الغابرة ، وان نحكم على انفسنا حكماً لا يبعد كثيراً عن الصحة . لقد انتهت معركتنا بموت امي .. بعد ان احتدمت في اسرتنا الصغيرة سنين طويلة ، لقد تبين لي اننا كنا ننسج مأساتنا بأيدينا ، ننسجها خيطاً خيطاً بتؤدة وحرص وروية ، دون أن نفطن بأننا سنكون الضحايا ... وكنت - ويا هول ما كنت - أقبض على الخيوط بيدي ، وأوزعها كيفما شئت . وأحب الآن أن أشرح لك ذلك كله ففي شرحه راحة لي ، ووفاء لأمي . عندما كبرت قليلا كان لا بد - كلما رافقت أمي - ان تتردد أمامي جملة تقهرني وتحز في قلبي :

هذه ابنتك ؟؟ سبحان الله انها لا تشبهك أبداً ..

وأفهم أنهم يريدون أن يقولوا إنني لست جميلة كأمي ..

وتضحك أمي ضحكة هازئة وتقول :

انها صورة عن ابيها .. ثم تردف : وهي مثله ايضاً ذكية ، وتحب الدراسة.

وأدرك انها كانت تقول ذلك مراعاة لي . ولكن هذه المراعاة كانت تؤذيني وتزيد في المي ، وبالرغم عن صغر سني كانت لدي القدرة الكافية لأن أواري هذا الشعور في اعماق نفسي . ولكن مع الايام مالبث ان استحال حقداً وكرهاً لأمي . كم كنت أتمنى ان اكون جميلة مثلها !.. وأذكر أنني كثيراً ما كنت أجلس صامتة مكبوتة أتفرس في وجهها المشرق الجميل ، وأقارن بينه وبين وجهي ذي الانف الكبير ، و العينين الصغيرتين ، والبشرة الكالحة . فأشعر بالغيرة تلذع كبدي الصغير ، وبالحقد يملأ نفسي الغضة ، ولا أجد ما انفس به عن كبتي سوى أن أشاكس أمي . وكلما رأيتها منزعجة كنت أشعر بارتياح ، وأظل أمعن في استفزازها حتى أحملها على ضربي . وحينئذ لا بد ان ينتصر لي أبي فيقع بينهما من جراء ذلك خلاف شديد . كنت أراقبه فرحة شامتة .

وتستمر هذه الحال طيلة طفولتي ، حتى ينشأ شيء من النفور بيني وبين أمي . وكانت المسكينة بدافع من حنانها تحاول ان تمحوه ، بينا كنت أنا أثبت أصوله . ولما تخطيت الطفولة راحت مشا كستي لأمي تأخذ شكلاً آخر .

كنت قــد برزت في دراستي ، وبدأت تظهر علي بوادر ذكاء عجيب . وكان أبي فخوراً بي ، يقدمني لزملائه الأساتذة معتزاً بذكائي وثقافتي التي قلما يحصلها من كان في مثل عمري ، وكان يشركني بالأحاديث التي تدور بينهم . ولما استويت صبية رحت أطلب منه أن يدعو الى بيتنا أهل الفكر والأدب من رفاقه حتى أمست سهراتنا كندوات لايسمع فيها إلا أحاديث الادب والفن ، وقد تمتد أحياناً حتى منتصف الليل . وكانت أمي تجلس بيننا صامتة ، وكلما حاولت أن تشترك في بعض المناقشات ظهر جهلها جلياً ، وكنت ابتسم بخبث هازئة بها وأشعرها دائماً بأن لامكان لها بيننا . فكانت في اكثر الاحيان تنسحب الى غرفتها ، وتقعد وحدها مقهورة ، أو تستلقي على سريرها وحيدة تائهة ..

كنت أحب من حيث لا أشعر أن اثبت لأبي ولأمي وحتى لنفسي أيضاً بأن الجمال لا قيمة له اذا ما قورن بالذكاء والثقافة . وان الاناقة التي تستهلك معظم أوقات المرأة ما هي الا دلالة واضحة على تفاهتها . وكان أبي يؤيد رأيي دائماً . وكانت أمي مقابل ذلك تهزأ بحديثنا ، وتسخر بكل ما نراه جليلاً عظيماً . ويخيل الي الآن بان الثرثرة الفارغة التي كانت تضجرنا بها كلما رأتنا غارقين في كتبنا ما هي الا من قبيل الدفاع عن النفس ، ويظل هذا حالنا سنين طويلة حتى يأتي يوم تتسع فيه الشقة بيننا ، فتجد أمي نفسها كالغريبة في بيتها ، تجلس بيننا كالضائعة ، لاأحد يعيرها اهتماماً ، او يعمل برأيها . وليس من السهل أن تستسلم لمثل هذا الموقف امرأة معتدة بنفسها كأمي ، جميلة ، لا تزال في عز شبابها لم تتخط السادسة والثلاثين من العمر ، عندما تكون خارج بيتها تحاط بكل حفاوة واهتمام ، حتى اذا عادت اليه شعرت انها امرأة لا أهمية لها حتى تكاد تفقد ثقتها بنفسها . فليس عجباً اذن

ان ترغب بالخروج من البيت دائماً ابداً ، فكانت أحياناً تمضي السهرة في السينما ، او عند بعض صديقاتها بينما نظل أنا وأبي منهمكين بدراساتنا وندواتنا ، ويصبح غياب أمي عن البيت أمراً مألوفاً لدينا ، ويبدأ شيء من الجفاء واللامبالاة يسود حياتنا بالنسبة لأمي . وفي غمرة ذلك كله تتعـــرف على رجل هو قريب احدى صديقاتها لا تلبث أن تعجب به ، ويعجب بها ويفتتن بجمالها ، وكأنه قد أعاد اليها ثقتها بنفسها في سن هي أحوج ما تكون فيه الى تلك الثقة ، وأشعرها باهميتها التي فقدتها بيننا . فكان أن تشبثت به . وأصرت على الطلاق من أبي لتتزوج به .

أما أبي المسكين فكان كصبي مل دميته كما تمل الدمى ، فاهملها في ركن من بيته مطمئناً الى وجودها بقربه ، وانه يستطيع اللهو بها كلما عاودته الرغبة فيها. ولكن لما جاء غيره يسلبه اياها حلت في عينيه ، ويصعب عليه الأمر حتى يخيل اليه انه غير قادر على فراقها . وبالرغم من ذلك كله لم يستطع أن يفرض نفسه عليها. ويضطر ان يوافق على الطلاق مرغماً امام اصرارها الذي جرح كرامته ، وأهان رجولته !... وكان علي وحدي أن اداري آلامه ، وأهون عليه الأمر . فكنت اثور على تصرف أمي ، وأثبت له دائماً انهـــا امرأة تافهة غير جديرة لأن تكون زوجة لرجل مفكر مثقف مثله .

كنت لا أزال أخوض المعركة معصوبة العينين .. حتى إذا جاءت النهاية المريبة صحوت لنفسي ، وراحت تنزاح الستور أمام ناظري ستراً ستراً ..

أتذكرين موقفي يوم المستشفى ؟ لقد خيل الي في تلك اللحظة أن أمي كانت تلح على طلبي لتعهد الي بالطفل . ومنذ ذلك الحين راح يتحرك في اعماق نفسي شيء يوحي الي انني كنت وحدي المذنبة . ولما حملته الى بيتنا كان أبي يذرع الردهة جيئة وذهاباً ، من الباب الى الشباك ليطمئن على مصير أمي فما يزال يحفظ لها في قلبه شيئاً من العطف والحب . ولما رآني وقف مشدوها لحظة ثم قال : ويلك ماذا تحملين ؟؟..

قلت متحدية : أحمل أخي ! . . لقـــد ماتت أمي بعد أن عهدت إلي به ، لا بد لي أن أرعاه .

وأنفجر با كية ، ويزعق الصغير على ذراعي زعيقاً متواصلا مما يزيد في حرج الموقف .

فيهرول أبي الى غرفته كأنه يهرب منا وهو يقول :

افعلي ما تريدين ، ولكن اياك أن تريني وجهه ، أو تسمعيني صوتـه . . ثم يصفق الباب خلفه صفقة قوية تجيء كاحتجاج صارخ على تصرفي الوقح دون استشارته ، وأدرك أني أظلم أبي . فوجود الطفل بيننا سينغص عليه عيشه ، فهو ابن غريمه ، وابن المرأة التي تخلت عنه بعد عشرة عشرين سنة ، وعدا ذلك لا بـد ان يتقول الناس بما لا يليق به ، ووجود الطفل بيننا سيحول دون نسيان المأساة .

ولكن لا سبيل للتراجع أبداً .

وأختار للصغير أبعد غرفة عن غرفة أبي . ويبدأ يدب بيننا شيء من البرود والجفاء . أبي معتكف في غرفته بين كتبه وأوراقه لا يبرحـــا الا نادراً . وانا منصرفة للعناية بالصغير ، وللدراسة فما تبقى لي من الوقت . وراح يخيم على بيتنـا صمت كئيب لا يخدشه الازعيق الطفل بين كل حين وآخر كأنه يذكرنا بواقعنا كلما سهونا عنه . ولم تعد سهراتنا ندوات يؤمها أهل الفكر والادب كما كانت في الماضي الأمر الذي أضجر أمي . وكأن الاقدار شاءت أن تنتقم منا على يدي هـذا الصغير . وبالرغم عن ذلك كله بدأت أحبه ، وأجد في رعايته لذة لا مثيل لها في حياتي كنت أعود دائماً الى البيت متلهفة على رؤيته . وراح ينمو بسرعة غريبـة حتى غدا في بضعة شهور طفلا رائعاً . كنت أضعه في حجري وأتفرس في تقـاطيع وجهه المكلثمة ، وفي عينيه الواسعتين ، انه صورة مصغرة عن أمي ! . .

ترى لو ان هذا الشبه جاء في أنا اما كان تغير مجرى حياتنا ؟ ؟ ؟

كنت أتمنى أن تواتيني الشجاعة الكافية لأبسط هذه الحقائق أمام أبي

فلابد له أن ينفر لأمي ، وسيحب الطفل حتماً .. ولكنه سيديني أنا كما أدنت نفسي، ومن يدري . ربما كرهني ، وهذا مالاطاقة لي به .

بينما كانت هذه الفكرة تنخر في رأسي كسوسة دؤوب إذ يتناهى إلي بكاء الصغير وأتلكأ عنه قليلا . واذا البكاء ينقطع فجأة . وأقوم مسرعة لأتفقده . فاذا أبي قد سبقني الى غرفته . وأقف خلف الباب من حيث أراه ولايراني . وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيته يحمل الصغير — هو الذي كان لايريد أن يراه او يسمع صوته — ثم يهدهده بحنان واضح . ولكن الصغير لم يسكت ، فراح يؤرجحه على ذراعيه حتى اذا نام أعاده الى مهده بتؤدة ورفق ، ثم يروح يتأمله ، وفي نظراته عطف ولين ، ثم تنحدر دمعتان من عينيه يمسحها بأصابعه .. مسكين أبي ! .. أترينه يخجل بتسامحه وحنانه ؟ أيرى فيها خنوعاً وضعفاً ؟.

أين حقده المرير ؟ لقد ذاب كله في حلاة ابتسامة صغيرة على ثغر طفل بريء.

أين كبرياؤه وجبروته ؟ لقد تداعت كلها أمام طفولة هشة ضعيفة ..

لقد انهزم أمام طفل !..

لابد لي أن أمزق هذا الحجاب القائم بيننا .. وأقتحم عليه الغرفة، فيبتسم لي بخجل ، وألقي رأسي على كتفه ، ونجهش بالبكاء معاً !!..



الكتاب والموضوعات

- كيف نفهم بيكاسو ؟
فاتح المدرس

- ليوناردو دافنشي .. في روائعه
سعد صائب



الفنون

امسى بيكاسو اليوم خزافاً ، يقطن في « غولف جوان » في فرانسا ، ويزاول الرسم احياناً وآخر مجموعة ظهرت له صور بنساته الصغيرات . وهو في معمله الصغير يدير دولاب الأواني الفخارية ويرسم عليها ويشويها في فونه وتحتل اوانيه الخزفية واجهات ارقي محلات بيع القطع الفنية الحديثة .



كيف نفهم بيكاسو

بقلم : فاتح المدرس

لكي نفهم بيكاسو علينا بدراسة تاريخ الفنون الجميلة منذ فجر التاريخ بدءاً من الرسوم الموجودة في كهف « لاسكو » في فرانسا والذي يعود عصره الى العصر الجليدي الثالث اي منذ ثلاثين الف عام قبل الميلاد .

وهكذا نرى ان الصعوبة التي يلاقيها المثقف العادي ليست من السهولة بمكان .

ومن الواضح أن مقالاً في مجلة لايمكن ان يتسع لسرد الاحقاب الفنية التي زاولها الانسان وهو في سيره صعداً على سلم مدنيته عبر القرون حتى بيكاسو وعصره .

ففهم لوحة فنية رسمها بيكاسو ، او براك .او دلانوي يستوجب دراسة لكل حلقة من سلسلة التاريخ الفني .

وعندما نعلم ان بيكاسو ، فتح باب الحرية على مصراعيه امام الفنان المعاصر ندرك مدى عظمته واهميته فلقد أجمع النقاد على أن فتح باب الحرية كان استجابة صحيحة للتطور ، لأنه اضاف أحاسيس جديدة الى مجموعة ماسبق من الاحاسيس في تفهم تشكيل مرسوم او منحوت لفن الانسان المعاصر .

وهكذا نرى أنه لابد لفهم لوحة لرسام معاصر من البدء برأس النبع ، حتى نبلغ الدلتا حيث يهدر نهر الشعر البصري الذي يصب في بحر التاريخ الانساني الحافل بمجموع ماسبق من احاسيس مكتسبة ومشذبة على مر الدهور .

وقد قال الشاعر الفرنسي أبو لينير Appolinaire المعاصر لبيكاسو والذي زامله فترة طويلة في مطلع حياته الفنية ، معرفاً التطور العلمي غير المباشر الذي دخل حقل الفن وجرده من لبوسه التقليدي الشاعري ورفعه الى مرتبة حسية اسمى نضوجاً فقال : بامكاننا ان نقول ان الرياضيات بالنسبة للفن التشكيلي هي كالصرف والنحو بالنسبة للأديب .

اذن فالمشكلة لم تعد احاسيس سطحية يقلد بها صاحب الفن الطبيعة او الأشياء الماثلة ، لقد اصبح تخطيطاً ابداعياً وهذا ما اراده التكعيبيون من تحليلهم للشكل الموجود .

وكان الفنان التأثري والتعبيري يرى ان الفن انفجار حسي ، وقبسة نور على لوحة الالتقاط في حيز الفهم المعاصر . أي ان الانسان قد يعجب فجأة من رؤية شيء كان قد مر به الف مرة قبلاً ولم يلتفت اليه وذلك لتكامل عناصر الحركة والنور والتلوين في تلك اللحظة وبالنسبة ايضاً لاستعداد الفنان . اما بيكاسو ، فقد تناول المدرسة السيزانية (نسبة لسيزان الرسام) وطورها

تطويراً مدعاة للعجب كما ان تأثره بكلا المذهبين الوحوشي « الفوفيزم » والسريالزم « تجرد وراء مدى الواقع » اللذين جاء بالمذهب الأول منهما غوغان وبالثاني الشاعر بريتون وزملاؤه الرسامون اصحاب البيان السريالي المعروف .

كما ان ظهور بيكاسو أدى الى تمكين الفن التكعيبي من ان يطلق العنان للفنان كاندنسكي من عام ١٩١١ عندما رسم اول لوحة تجريدية ، ويقول بعض النقاد ان بيكاسو تأثر بوجود كاندنسكي فظهر بمذهبه التكعيبي ، **ولكن بالنسبة للتاريخ ككل ، فالأمر المهم هو ذلك الجو الحو الذي تناوله الفنان من حوله وعاش فيه وابدع .**

اعود الى صلب البحث فأقول :

ان لوحات الفنان المعاصر بابلو بيكاسو وان لاقت معارضة من اكثر النـــاس ، فالأمر يستوجب اهتمامنا ، لأن في فن بيكاسو جميـــع المراحل الفنية الحديثة القائمة على اسس من الماضي الحضاري للانسان .

فالفن الزنجي قد منح فناني اوروبا الوسطى الكثير من التأملات تحت ضوء تطورهم فشاهدوا في الماضي علاقة وثيقة بفن الغد ، وهكذا كانت التجريدية التي بشر بها كل من كاندنسكي وبيكاسو ومعاصريه فقد اصبحت فن اليوم والغد .

ولن نتحدث عن التجريدية طويلاً فانه بحث آخر لأن التجريدية تقوم على حذف الموضوع اطلاقاً . وان فن بيكاسو يحتوي على الكثير من الفن التشكيلي ان لم اقل انه باجمعه فن تشكيلي فالموضوع فيه واضح وان صعب على افهام بعض الناس من محبي الشكل الطبيعي .

ان ميلاد فن بيكاسو قد مهد له ما جاء قبلاً بدءاً من الرسام الاسباني غويا ولن نستطيع في هذا المقام التحدث عن غويا . كما ان في فن بيكاسو الكثير من المدرسة الرومانية الباذخة ، وليس هنا مجال البحث عنه . وان في فن بيكاسو فن الرسام فيـــلاسكيز ، وفن سيزان .. ولـكل من هؤلاء مذهبهم الذي يقوم على تقييم أحاسيس جديدة اضيفت الى مجمل احاسيس الانسان المعاصر آنذاك .

وهكذا نرى ان في المجتمع المعاصر من لا يريد تقبل التجديد لأنه يعيش في مفـــاهيم قرن سبق كما انه في القرن السابق وجد اناس لا يفهمون ــ او لم يحاولوا فهم فن فنانيهم المعاصرين ، وقد ألمحنا في مطلع هذا المقال الى ان متذوق اللوحة الفنية المعاصرة عليه أن يدرس تاريخ الفنون بدءاً من الرسوم الموجودة في كهف « لاسكو » ثم ينحدر الى فن ما بين النهرين ، ثم يدرس فن شعوب مايا والازتيك في اميركا الوسطى ، ومن ثمة يعود ليدرس الفن الفرعوني ، ثم الحثي واليوناني ومنها ينتقل للفن الهندي والصيني وفن شعب « البوليبونيز » شعب جزر المحيط الهادي

في تماثيلهم العجيبة حتى يبلغ الفن الفارسي القديم والأوسط ومنهما الى الفن البيزنطي والاسلامي وفن العصور الوسطى في اوروبا ثم الفن القوطي ، ومن ثمـــة ينطلق في دراسة عصر النهضة الايطالية في مطلع القرن الخامس عشر حتى يبلغ الكلاسيكية الحديثة ، فالرومانتيكية فالرمزية فالواقعية الحديثة ثم تأتي المذاهب الحديثة ..

فنراه يقرأ مانيه ومونيه وسيزان ورنوار اصحاب المذهبين : التأثيرية والتعبيرية .

ومن هذه الفترة تنطلق مذاهب الوحوشية (العودة الى الالوان البـــدائية) ، ثم تأتي المدارس التي تهم الفلسفة والسياسة معاً كالدادية والسريالية .

ولد بيـكاسو عام ١٨٨١ وفي عام ١٩٠٠ وهو في العشرين من عمره رسم اكثر مما ينتجه اي رسام معروف طوال حياته .. اتقن او زاول اكثر المدارس السابقــة ... ثم اضاف احساساً جديداً بالاشياء في مدرسته التي سماها احد النقاد الفرنسيين تهكمامنه واعتباطاً بالتكعيبية... وكان ذلك !. يقول بندتو كروتشه :

ان وظيفة العمل الفني هي التعبير عن شخصية الفنان باكملها .

وبما أن الفنان يمثل عصره بثقافته فاللوحة الموجودة هي جانب من ذلك العصر .

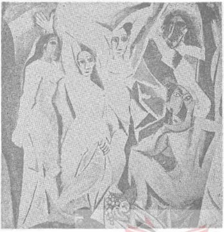
وعندما نرى ان بيكاسو وزملاءه يرسمون مواضيع منبثقة من قلب هذا العصر فمن المضحك ان تقيم اعمالهم دون دراسة لهم ولعصرهم .. ومن المؤلم ان اذكر ان الجحود الذي يلقاه الفن الحديث في الشرق يعني ان الشرق لازال يعيش في قرون بعيدة جـــداً عن القرن العشرين .. فبيكاسو حي واوروبا تدرسه في أكاديمياتها وتقتنيه في متاحفها ومن يسعـده الحظ بالحصول على لوحة من بيكاسو ؟

فمن هو هذا البيكاسو ؟..

لـكي نفهم بيكاسو جيداً علينا ان نأخذ هذا المثال :

خذ اية لوحة لبيكاسو او لغيره من الذين عاصروه ما بين عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٤٠ فقط واعرضها امام عشرين فناناً آخر يمثل كل منهم عهداً او اسلوباً أو مدرسة منذ فجر تاريخ الفنون اي منذ (٣٠٠٠٠) عام ماقبل الميلاد حتى يومنا هذا ، فانك لواجـــد اكثر الفنانين يستشفون من لوحة بيكاسو قبسات من الماضي السحيق حتى عصرنا هذا ، لأن بيكاسو استطاع التمكن من دراسة اللوحة من جميع وجوههـا الاستيتيكية وانه يهدف الى تطوير الاحاسيس والمفاهيم باستمرار .

ولكن لـكي نأخذ مثالا اضيق مجالا نقول : على متذوق فن بيكاسو وغيره من معاصريه ان يدرس المذاهب الفنية التي قادت الى بابلو بيكاسو .



فتيات الافينيون

بيكاسو

١٩٠٦ — ١٩٠٧



الطفل والحمامة

بيكاسو

مرحلة ماقبل التكعيبية
وتسمى المرحلة الزرقاء

١٩١٠

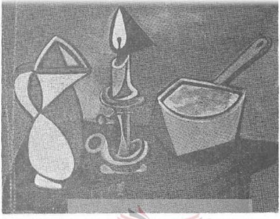
بانتهاء الفترة التي تبلور فيها المذهب **الوحوشي** (Fauvismo) لم تترك تاريخاً واضحاً لها أو نظريات جمالية معينة ، كل ما هنالك أنها أرادت أن تنظر الى الاشياء بعين جديدة وبألوان أكثر عنفاً ، كما أن أصحاب هذا المذهب لم يكونوا فيما بينهم جماعة رسومهم ذات معالم محددة بنظريات . وقد أعطى أحسن الأمثلة الرسالم ماتيس وألبرت ماركيه (١٨٧٥ ـ ١٩٤٧) وهنري مانغوين (١٨٧٤ ـ ١٩٤٣) وانضم اليهم راؤول دوفي وفان غوخ وعندما جاء جورج براك وبيكاسو (١٩٠٧) ولدت المدرسة التكعيبية .

على أن هذا المذهب بالذات لم تتحدد معالمه كل التحديد على الرغم من دعوة النقاد لتسميته عرضاً بالتكعيبية فقد كان يحمل في جذوره ميلاً نحو هندسة البناء والتزين وكلاهما ليس من الرسم ومفهومه الدقيق في شيء ، وهذا يعني ان مذهب التكعيبية بتحطيمه للشكل وتحليله للموضوع المرسوم فيزيولوجياً قد فتح أمام الرسامين باباً للحرية يصعب اغلاقه .

وأول مايلاحظه دارس المذاهب الأربعة : الرمزية ، والوحوشية ، والتكعيبية ، والسريالية انها حرب عوان بين المفهوم الكلاسيكي للموضوع الأدبي وبين الانطلاق من آثار اللون والحجم والحركة والمعنى فقد كانت تهدف هذه المدارس الفنية بصورة غامضة **لا شعورية** الى عالم يحدد المفاهيم التي تبين ماهية الفلسفة والأدب والموسيقى والرسم أو بكلمة صريحة كانت تهدف الى انقاذ فن الرسم من الضغط الأدبي والفلسفي فهل نجحت هذه المدارس ؟ لقد نجح منها في ذلك التكعيبية فقط وهي التي مهدت بدورها الى ظهور المذهب التجريدي الذي ساد خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها وظل يحاول بكل قوة ايجاد تأثيرات ديناميكية حيادية تخص حقلي الرسم والنحت وتفصلهما عن حقول الفلسفة والأدب والعلم وتعتبر الموسيقى من بين الفنون التي تحاول تحديد معالم ذاتها كما فعل الرسم المعاصر . إلا أن الموسيقى بحد ذاتها انتاج فني مجرد منذ بدء الخليقة ، وهي تحمل بذور التصوير في أمواجها وحركاتها الجمالية ، وهكذا نرى في دراستنا الآنية للمذهب التكعبي أن الفنون الجميلة تهدف إلى جمالية جديدة أو بعبارة صريحة تريد أن تقول : الفن غير الجمال .

نعود إلى المذهب التكعيبي والتكعيبية الحديثة التي زاولها بجد كل من بيكاسو وبراك .

في ١٩٠٧ عندما رسم بيكاسو أول لوحة تهدف الى تحليل الأشكال جاءت لوحته آنسات الافينون منطلقاً لمذهبه الجديد ، ولم تأت هذه اللوحة منه عفواً بل نتيجة دراسة طويلة



المرحلة التكعيبية الثانية

« طبيعة صامتة » لبيكاسو

عام ١٩٤٥ ويلاحظ فيها التخلي عن النزعة الهندسية

ونشاهد في هذه اللوحة ان التشكيل على اليد قد وضعا فيما بعد ولا ندري بالضبط متى وهكذا نفقد التاريخ الحقيقي لميلاد هذه اللوحة بالايام والشهور الا انها عرضت في ربيع ١٩٠٧ وعندما سئل بيكاسو عن التأثيرات الخارجية التي حفزته الى انتاج لوحة كهذه قال أنه شاهد لأول مرة تماثيل افريقية في قصر « تروكاديرو » في نفس العام (١٩٠٧) وقد اعتبر أحد النقاد الفنيين اللوحة آنذاك غير منتهية ، الا أن تأثير الفن الزنجي ، واضح في هذه اللوحة ، وكان الرسام ماتيس هو أول من لفت انتباه بيكاسو الى هذا الفن الافريقي في متحف اللوفر وهذا ما دفع بيكاسو الى سبيلين الاول التخلي عن مالايلزم من الايضاح الأدبي ، والثاني : عملية تحليل الحجم، وقد دفعت هذه الفكرة بالذات فيا بعد الرسامين المعاصرين وعلى رأسهم بول كلي الى التلميح بوجود الفن التجريدي . ونحن اذا تحرينا الاسس العميقة لكل ما ورد من المدارس نرى تأثيرات الفنان سيزان ومدرسته البيزانية . وان كانت لوحة آنسات الافينيون بالذات تعتبر أول تحرر صحيح من تأثيرات المذهب التأثري والتعبيري والرمزي ، وهذا ينطبق على انتاج اكثر الفنانين الذين ساهموا فيا بعد بتطوير المفهوم الجمالي للفن ودفعه بعيداً عن المقاييس الجمالية ذات الشاعرية الأدبية الجماعية .

وبدراستنا لأسس بيكاسو في حياته الفنية الاولى نرى انها قد تأثرت بالفن القوطي ، ورسوم القرن الخامس عشر الاسباني وخاصة رسوم الكريكو (El - Greco) وأخيراً رسوم المحدثين واهمهم تولوز لوتريك الذي تمسك بالمدرسة الوحوشية . وان كل هذه التأثيرات كانت في الحقيقة سطحية في نفس بيكاسو ، عدا تأثيرات الرسام سيزان فقد كانت عميقة ودائمة .

اذن : فعلى دارس بيكاسو ان يدرس سيزان قبلاً دراسة وافية .

فلوحات سيزان التي عرضت في صالون الخريف عام ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ومن جديد في « الصالون » عام ١٩٠٦ قد نشرت حولها موجة نقد عريضة وكانت تحوي كل منها ٥٦ لوحة . وبالتأكيد ان بيكاسو قد شاهدها ان لم يكن كلها فبعضها فاذا قارنا لوحة بيكاسو « آنسات الافنيون » بالكثير من لوحات المستحمات لسيزان ، لوضح لنا الاشتقاق الذي استخدمه بيكاسو في اتجاهه التحليلي الجديد . وان بيكاسو استخدم التركيب الهرمي لسيزان وعوضها في متوازيات

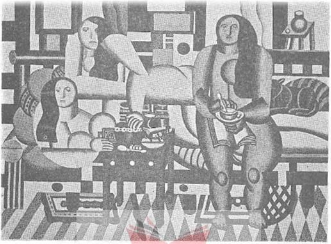


المرحلة التكعيبية

عام ١٩٢٠

القيثارة

بيكاسو



النساء الثلاث

لفرناند ليجير

ويلاحظ فيها اتجاه جديد يتأرجح
مابين الميكانيكية والنزعة التكعيبية — ١٩١٣

شاقولية ، ويكون بذلك قد دخل بيكاسو ساحة من الانشاءات الهندسية متخطياً الجمالية الشاعرية الى جمالية ابداعية ذات زخم شخصي يدفع الشكل نحو الحركة والتخلص من عناصره الادبية المبتذلة.

ان الاشتقاق والتشابه في الاسس مابين سيزان وبيكاسو ليسا بذي اهمية ، فالاهمية قد ركزها النقاد على فكرة بسيطة هي حاجة الفنان الغربي الى التطور ، في حلبة خلق مشتعلة ابداً ، ولم يجد الفنان آنذاك بداً من التأثر حتى بالفن الافريقي كلوحته المساة « الصداقة » الموجودة في متحف بوشكين للفن الحديث الغربي في موسكو ، وكان قد رسمها ١٩٠٨ . ويقول النقاد ان اهتمام بيكاسو بالفن الافريقي ، سببه العودة الى الجذور الفنية في الانسان ، ثم الانطلاق منها. وهذا عنصر ثان مهم لتفهم بيكاسو ودراسته على هذا الضوء .

فاهتمام النقاد بلوحة آنسات الافنيون ، كاهتمام مؤرخي حياة السيارة بأول سيارة وجدت. وهذا يعني ان هذه اللوحة ليست على جانب من الحقيقة الموجودة في لوحات بيكاسو إلا ان ادخال

العنصر الهندسي الذي ميز أسلوبية التكعيبيين عن سواهم اوجد المدرسة التكعيبية . لقد بدأ بيكاسو برسم هذه اللوحة عام ١٩٠٧ واكملها عام ١٩٠٩ في اسبانيا ، ويعتبر النقاد ان هذه الفترة كانت من اعظم السنين تحولا في حياة بيكاسو الفنيه وكانت ذات ضغط نفسي شديد عليه فقد كان كاستحالة الشرنقة الى فراشة .

اذن فالعنصر الهندسي كأساس في دراسة التكعيبية ، كانت نقطة انطلاق عظيمة لأن الخطوط الهندسية كانت في الماضي من دواعي سخرية دارس الفنون والجمهور بصورة عامة ، خاصة في رسم الانسان .

فهل كان بيكاسو يلج على غير وعي منه في حقول الفن التجريدي ؟

سؤال لابد للجواب عليه من موضوع آخر .

حالة ذهنية

الوداع

امبرتو بوتشيوني عام ١٩١١

من المذهب المستقبلي



« بابلو بيكاسو » « آ »

- ولد في « مالاقا » اسبانيا عام ١٨٨١ من اب رسام ، وبدأ يرسم وهو طفـــل صغير بالطباشير على الارض . درس في برشلونة ومدريد لغاية عام ١٩٠٠ .
- هاجر الى باريس بعد ان زارها مراراً وفي كل مرة زارها كان يشعر بتطور شـــديد لاتصاله بجماعة الشعر الحديث . وفي باريس درس على « رنوار » و« تولوز لوتريك » كان يعالج مواضيع واقعية يستلهمها من الكباريهات ، وحلبات سباق الخيل ، والفجر ، والمومسات .. كل هذا بينما يتابع دراسة « فالاسكيز » .
- ١٩٠٢ عاش في مرحلة من اللون الازرق فدعيت مجموعة لوحاته اذ ذاك بالمرحلة الزرقاء، كلها تشكيلات واقعية ليست غريبة عن روح فالاسكيز ويبدو ذلك من رسومه بالحبر الصيني وكانت هذه المرحلة مريرة ، حزينة ، ذات ضغط نفسي لايقاوم .
- ١٩٠٥ تطور ومر بمرحلة من اللون الوردي ، الا انه ظل في اساسه واقعيـــاً واقعية حزينة متفائلة .
- ١٩٠٦ ـ عندما عثر ماتيس على جمالية الفن الزنجي تداول طويلا في مرسم بيـــكاسو في Bateru - Lavoir في مونمارتر مع نقاد وشعراء معاصرين . عندها رسم بيكاسو لوحته الشهـيرة « آنسات الافينيون » وتعتبر مطلع المذهب التكعيبي . وبعدها عاد لفترة الى جبـــال البيرينه يتأمل مدرسته التي شاركه فيها كل من « براك » و « غرى » والنحات « مانولو » .

بيكاسو « ب »

- وقع بيكاسو على مرحلته الحرجة من رسم الوجوه بالمذهب التكعيبي ، ولكنه سرعان ما تخلص منها باهتمامه بمرحلة أعمق تحليلاً .
- ١٩١٢ ـــ عاد الى باريس وقطن مونبارناس وبدأ باسلوب « اللصق » وهو تطوير للتكعيبية ، وكان يعني جذرياً المزيد من التحرر في استعمال المواد ، وكان غوغان قد قال مرة كل المواد صالحة في الرسم .
- ١٩١٤ ـــ على حين غرة يترك التكعيبية ويهيم باسلوب «انجر» وهو نوع من الواقعية الحديثة ويستمر لغاية ١٩٢٠ .

● ١٩٢٠ ــ يتحول تماماً الى نوع من الرسم اطلق عليه « Pittura Pompijana » وبامكاننا تعريبها موقتاً الى عبارة « المدرسة الشموخية » وان كانت بالاصل مشتقة من المحيط الروماني الباذخ في بومبيي وتحمل الجو الوثني المتحرر من كل قيد ، في حجوم جماليه تعتمد على ابداعية الخطوط الكلاسيكية بصورة اطلاقية ، ورسومه لاجسادالرجال والنساء والثيران ككتل الغمام وانتفاخات الجبال في عالم باذخ شامخ .

بيكاسو « ج »

● ١٩٢٥ ــ تطور بابلو بيكاسو فجأة ، فمال الى المذهب السريالي الا انه اختلف مع بريتون ودالي وآرنست ليل السريالية في بياناتها الى العالم الادبي والسياسي .

● ١٩٣٧ ــ خلال الحرب الاهلية الاسبانية ، ولدت التكعيبية الحديثة ، بميلاد لوحته « غويرنيكا » Guernica قرية في منطقة الباسك ، هدمها الالمان الفاشيست في الحرب الاهلية.

لقد كانت هذه اللوحة وهي من اسلوب الطق ، بياناً لا لبس فيه بتأكيد المذهب التعكيبي .وان كانت هذه اللوحة المشهورة بالذات ليست على جانب عظيم من الأهمية الفنية من حيث التقنية في التكعيبية الحديثة ــ Neo cubism .

ويبدو هيامه لاشعورياً « بالآرابسك » وان عبارة « آورابسك » تعني في التصوير جمالية الخط الاسود اللانهائي الذي ازدهر ايضاً في اسبانيا ايام الاندلس. وان تطوير بيكاسو لمفهوم « الآرابسك » في سلم الحضارة الفنية للانسان عمل مأثور لبيكاسو الذهبي يعتبر من اعظم الفنانين الذين فتحوا بوابة الحرية في العمل الفني على مصراعيها وبيكاسو وريث لمدنية العرب الاندلسية.

بيكاسو « د »

● ١٩٤٠ ــ ظلت الوان بيكاسو في اشكاله القريبة من التجريد **دون ان يدري** تتمتع بجبور صارخ اللون ، ذات ايقاع عجيب ، وانحناءات خطية تناغمية عربية الجذور بعد ان احسن تطويرها .

وباقتراب بيكاسو من اتجاه القريب من التجريدية يعود لوجود الرسام **كاندنسكي** . وسيظل بيكاسو بيننا ذلك العملاق الشاعري ، يمثل الفن الحديث دون ان تقف المذاهب بحدودها امام مفهومه لمعنى حرية الانسان في خلقه الفني .كل هذا مع الحفاظ على انسانية طاغية الجمال . لقد اعطى عصره مع زملائه الكبار احاسيس جديدة تضاف الى تراث الانسانية من تطورها الدائم .

ليوناردو دافنشي في روائعه

بقلم : سعد صائب

« قد تنعم الطبيعة على اي انسان من آن لآخر ، بملكة الذكاء ، مشفوعة بجمال الطلعة ، وتمام الكفاءة ، حتى اذا ماقام بأمر جاء مهاباً مقدساً ، يفوق به من عداه دالاً بذلك على ان الذكاء هبة من الله ، وليس من تحصيل الانسان . وهكذا كان ليوناردو ، وفضلاً عن ذلك ، فانه كان جباراً في قدرته على قهر كل معضلة تعترضه وعلى التغلب عليها » .

فساري

الفنان والمؤرخ الايطالي

جال في خاطري منذ أمد أن أكتب في الفن ، يقيناً مني بأن ثمة واشجة تصل الأدب به ، وان الأدباء والفنانين ، ما انفكوا يتواصلون ويتعاونون ، اذ يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض ، يريدون بذلك تجديد الحياة ، ويبتغون نفع الناس . بل ان الفنانين انفسهم ، شدّ ما يأنسون بما يكتب الأدباء عنهم ، ويركنون إليه ، إنْ هم وثقوا بصدق ما يُكتب ، وتبينوا صوابه ، واتضحت لهم حقيقته . وانهم ليعرضون عمن حاد عن الطريق ، فاستمر على الضلال ، اوجار عن القصد ، او تمادى في الخطأ . .

وكنت ابذل قصاري جهدي في التعلق بالغاية التي لا يلحق قلمي التقصير عن بلوغها ، او اتعرض لمايجلب علي العناء إن لم احسن نفع ما اكتب ، لا في الادب ذاته فحسب ، بل وفي الفن ايضا ان تيسرت لي السبل . وهكذا اعمل فيه رويّتي ، لأنه احق ان اهب نفسي له ، كما وهبتها للأدب ، فألتفت إليها ، وأدنو منها ، ولا انحرف عنها ، مها تكن الاسباب ، اذ ليس يقدر أحد على معالجة الفن ، سوى الأديب المتشبث فيه ، المطّلع عليه الذي ظفر بقسط وافر من تذوقه . .

فلا يشتد اذن عجب الفنانين ، او يأخذهم الدهش ، ان تحدثت اليهم عن فنان منقطع النظير ، وعبقرية من عباقرة الفن ، وأعجوبة من عجائب عصر النهضة ، بل أعجوبة العصور كلها ، أجمع المؤرخون الثقاة ، على أنه كان ذكياً كفأ ، ثائراً على زهد العصور الوسطى ، ساخراً من الرهبان ، متكبراً « ينبذ العقائد التقليدية التحكمية ، ويعشق الجمال ، ويشغف بالطبيعة ويحرص على التجربة والاختبار » مارس الرياضة في طفولته ، فتقدم فيها ، وبز اقرانه ، ومال الى التصوير والنحت ، فبرع فيها براعة ادهشت « اندريا فيروشيو » فنان عصره فلم يتمالك ان احتضنه في مرسمه بفلورنسا ، وغذّى فيه هذا الميل ، ورعى تلك الموهبة ولست مغالياً اذا قلت ان ليوناردودفنشي (١٤٥٢ — ١٥١٩) كان رجلا عظيما ، لأنه كان في الواقع مصوراً ونحاتاً وموسيقياً ، ومهندساً وعلماً في الطبيعة والكيمياء ، كما كانت له مواهب جمة ، اذهلت معاصريه بعد ان اخذت بمجامع قلوبهم . ومن المرجح انه كان يكتب بيده اليسرى بادئاً من اليمين الى الشمال .. عاش ليوناردو بايطاليا في عصر النهضة الاوربية ، وولد قبل سنوات قليلة من مولد المصور « رفائيل »[1]

---

(١) « لم يعش رافائيل طويلاً اذ ولد **عام ١٤٨٣ وتوفي عام ١٥٢٠** وكانت عبقريته في التصوير قائمة على رشاقة الحركات ووضعها في محلها ، وتناسب الخطوط ، مع تناهي الالوان في اللطافة ، ولم يكن احد من بعده يقدر ان يشق غباره في تصوير العذراء ونعومة اهابها مع سيماء طهرها » .

وعمر بعده بسنوات طويلة أيضاً ، وبالرغم مما اتسق له من عديد المواهب ، فقد احتل التصوير بينها مكانة مرموقة ، وليس بعجيب ان نؤمن بانه كان أعظم مصور في عصره ، لم يجاره بفنه احد ، ولم يعرف له ند بين المصورين في مختلف العصور ، على كثرة ما اهتم به من اشياء لا تمت الى هذا الفن بصلة ، وبالرغم من انه لم يصور طوال حياته المديدة التي عاشها ، الا لوحات اربعا اولاها محفوظة في متحف «اللوفر» بباريس تمثل «جيوكندا أو موناليزا» وهي الزوجة الثالثة «لفرنشسكو دل جيوكندو» من كبار تجار فلورنسا .. امرأة وادعة في مقتبل العمر ورونق الشباب ، رسمها ليوناردو بين اصوات الموسيقى ونغماتها ، بعد ان اعدها لتسلية تلك السيدة الجميلة ، وهي جالسة للتصوير ، وتوجيه سمعها اليها ليرتسم على محياها ذلك المظهر الذي يتجلى فيها . ويقال انها بعد ان استهوت بصره ، واخذت بلبه ، وهفا اليها قلبه ، احبها حباً عذرياً ، فتحايل بالتصوير وبالموسيقى ، على ان يظل بقربها طويلا ، يتمتع برؤية جسمها الساحر الغض الذي يتدفق حياة وبقي على هذه الحـــال من عام (١٤٩٨ — ١٥٠٤) ... واذا ما تملينا هذه اللوحة الرائعة ، فثمة قوة خفية تجذبنا اليها ، تجسدها ابتسامة غامضة لا يدرك كنهها ، تتيه على محيا هذة السيدة ، فتترك نظرتنا اليها اثراً بهيجاً في نفوسنا ، ونطرب لها طربنا لنغم حلو ، فنشعر بحب عميق لهذه الابتسامة الحلوة ، التي ينال تأثيرها من عواطفنا منالاً كبيراً ، فنحس في دخيلتنا اننا دائمو الانجذاب اليها فتتوثق بيننا اواصر الالفة ، وتنشأ بيننا عاطفة متأتية من الوقار والرشاقة المتجليين في وجه « جيوكندا » ومن هذا الحنان الذي يتضح لنا ، بعد ان نلمس ما يختفي خلف ابتسامتها ، التي تحمل في تضاعيفها اشياء نحار في وصفها ، لعل ابرزها هذا التعبير الخفي ، الذي لا يبرح يخيم عليها ، وقد يبدو لنا من خلال هذه الابتسامة ان ثمة عذاباً خفياً ترزح « جيوكندا » تحت وطأته ، لا تعيه هي نفسها ، فتحس لدى رؤيتها ، وكأننا معلقون فوق الاشياء ، وفوق انفسنا فما يشبه الحلم ونشعر في آن واحد ، باننا مشدودون بها ، نأبى أن

نفارقها ، وان ثمة تعاطفاً وثيقاً ممزوجاً بالحب، يربط كلاً منا الى صاحبه،اوابتهاجاً يشيع فينا ، فيدخل اليها الهدوء والغبطة ، لقد بلغت هذه الابتسامة اقصى درجة من الرقة والعذوبة ، حتى لتكاد عذوبتها تكون ضرباً من السمو » وقد لوحظت حديثا على تلك الصورة معان لم يحلم بها ليوناردو وقت تصويرهـا ، فشبهت نظرة السيدة بنظرات ابي الهول في الغموض ، وقيل انها تنظر الينـــا نظرات التهكم والسخرية » .. واذا ما ملنا باعيننا فتأملنا يديها ، اذهلتنا دقة التصوير في يدهـا اليمنى ، بل خيل الينا كأن اليد ذاتها تبتسم،وان فيها ما في الوجه من خفر ووقار ورشاقة، بعد ان استطاعت ان تعكس انفعالات السيدة مثلما استطاع الوجه ان يعكسها..

وثمة اشياء جديرة بالملاحظة ، تضاف الى جمال هذا الاثر الرائع ، حسبنا ان ندلك عليها لتقف بنفسك على براعة ليوناردو ... انظر الى السيدة كيف افترقت عن المنظر ، لا بشكل مستو جامد ، بل كانسان حي ، ولعل موهبة ليونارد وقـــد تجلت لا في قدرته على جعل هذه السيدة حقيقة واقعة فحسب ، بل في معرفة التأثير الذي يشيعه النور، ويعكسه الظل ، كما تجلت براعته ايضاً ، في توزيع الاجزاء المضادة ، والاجزاء المظلمة في لوحته ، وحسبه ابداعاً انه اول فنان استخلص من هذا التأثير ، الجزء السعيد الذي توخاه ... امعن النظر في ارضية اللوحة Fonol du Table u أي الجزء الموجود خلف السيدة ، تر منظـــراً حوى ساقية وهضاباً وجبالاً شُماً ، ثم اغمض عينيك وافتحها على منظر واقعي من مناظر بلادك ، تدرك — لأول وهلة — انك لن ترى تلك الاشياء ، ولا تلك المناظر البعيدة او القريبة ، بالوضوح ذاته الذي تراه في هذه الصورة ، ومبعث ذلك كله الى الجو Air الذي وجد بينك وبين تلك الاجزاء . واذا ما امعنت النظر ثانية في هذا الجو الذي اتاحـــه لك ليوناردو ، وقعت على كثافة اللون في اغلب اجزائه ، وبدا لك القليل منه واضحاً جلياً ... لقد كان ليوناردو دفنشي مصوراً عظيماً ، اذ جعل المنظر في لوحته هذه ، يأخذ حقاً ، جواً من الضياع في الابعاد

كما كان اول مصور عرف كيف يعيد هذا التأثير ، فيجلوه لك ليستحوذ عليك .
يقول « **جان بول سارتر** » من المحتم انه لايوجد هناك قيم فنية مفروضة ، ولكن القيمة الوحيدة هي في تناسب اللوحة ، وفي العلاقة بين ارادة الخلق عند الفنان ، وبين النتيجة الظاهرة . وليس من شك في ان ليوناردو في تحفته الفنية هذه ، لم يفرض البتة قيماً ، ولم يجعل لاسلوبه المركتز فيها قضية فنية تستعصي على الحل وحسبه انه أجاد في تناسبها ، وبرع في ربطه بين ارادة خلقه ، وبين النتيجة المذهلة التي تبدو للعيان ، بل لقد جعل من اسلوبه ذاته ، صفة بارزة من صفات رؤياه ، وكشفاً لعالمه الباطني الذي زخر كيانه ، وافعم به وجوده والذي يشهده كل منا في هذه اللوحة ، وقد لايشهده الآخرون على حـــد تعبير « مارسيل بروست » .
هكذا سايرت هذه التحفة الفنية الخالدة ، في تعبيرها كل عصر ، وملكت مشاعر المتذوقين وخلبت ألباب النظارة بعد ان نفذت الى اغوار نفوسهم ، وتغلغلت الى اعمق عواطفهم وأدقها ، كما اوحت ابتسامتها الغامضة الفاتنة ، الكثير من الافكار والهمت العديد من الشعراء ، ففاضوا بروائع الشعر .. وثمة لوحة ثانية لليونارد ولم توضع في متحف ، او لعلهم بالغوا في العناية بها ، فصانوهـا في قبو بدير « سانتا ماريا دلغرازي » في ايطاليا ، بيد ان عنايتهم لم تجدهم نفعاً ، اذ كادت الرطوبة تأتي عليها فتمحوها محواً ، وهي من اجمل اللوحات في العالم ، رسمها ليوناردو في الجدار واتمها عام ١٩٤٧ ، وتدعى « العشاء السري La Cène » وهي اليوم محفوظة في متحف « ميلانو » يرى فيها السيد السيح مع حوارييه الاثني عشر ، وقد جلسوا حول مائدة مستطيلة. وتتجلى براعة ليوناردو في اختياره اللحظة التي بادر السيد المسيح حوارييه قائلاً : « ثمة فيكم من يخونني » . ترى ابوسعك ان تتخيل كيف ان فكرة خيانة سيدهم الاثير، ستغدو ـ بالنسبة اليهم ـ مرعبة مخيفة، وهم الذين عرفوه ابناً للرب ؟
لقد استطاع ليوناردو ان يُظهر في هذا الأثر الفني النـــادر ، تعبير ملامحهم ، ويبرز احاسيس ومشاعر كل منهم ، من خلال ما ارتسم على وجوههم ،

وماتبديه ايديهم من حركات ، في اللحظة ذاتها التي تبلغ كلماته اسماعهم . وليس من شك في ان اظهار أحاسيس انسان ومشاعره من الصعوبة بمكان ، فكيف بالتصوير ؟ اذ من الطبيعي ان يبدو عجز المصور عن ان ينطق اشخاصه مايشعرون به ، ولئن شاء ان يظهر هذه الاحاسيس او تلك المشاعر وجب ان يحدد الاشخاص الذين يفكرون بهذا الشيء او ذاك ... لقد زار ليوناردو أناساً صماً وبكماً ، ليرى عن كثب سلوكهم حين يكونون مأخوذين أو سعداء ، فزعين او غاضبين ، فاعانه ذلك عن طريق اشخاصه ، على ان يظهر ـ بكل دقة ـ امانة الابانة عن هذه الاحاسيس وتلك المشاعر التي شاء لهم،دون ان يدعهم يتحدثون كما انه «جعل رأس السيد المسيح تميل الى جنب وهو يتكلم في تواضع ، ليتفادى ثورة الخواطر لكلامه ... وليست هذه الصورة درة فنية فحسب،ولكنهادراسة نفسية عميقة، لما ينعكس على الوجوه من الشعور والصفات والخواطر ... وحسبك ان تنظر الى صورة رأس المسيح لتجد كثيراً من مثل تلك المعاني النفسية العميقة» .

ويحدثنا تاريخ الفن ان ليوناردو ما ان انهى تصوير هذه اللوحة بزمن قصير ، حتى بدأ التصوير ينفصل عن الدهان في الجدار ، مما حداه الى التصوير في دهان ناشف . ولا يغرب عن البال ، ان «ميكيل آنج[1]» وسواه من المصورين كانوا يرسمون لوحاتهم حين يكون الدهان هشاً رطباً ، فتنفذ الصورة في الدهان لتستقر فيه ، ومن المعلوم لدينا ان هذا الضرب من التصوير يدعى « الفريسك Frsque » وهو ماتعنيه الكلمة الايطالية « Frois هش » بيد ان ليوناردو لشدة تهمه

---

(١) ميكيل آنج مصور ونحات ومهندس وشاعر ايطالي ، ولد في « كابرس Capresse » بتوسكانيا عام ١٤٧٥ وتوفي عام ١٥٦٤ . ليس له نظير في سمو اصالته وعمق ادراكه ، وقوة عارضته ، وقد ادهش العالم بتنوع آثاره اكثر مما ادهشه بعظمة طباعها وسموها ، ولعل من ابرز اياته لوحته التي زين بها قبة كنيسة « القديس بطرس Saint pierre » في روما وتمثاله الشهير « موسى » .

الى التجديد وشغفه به ، لم يستعمل في لوحته « العشاء السري » ـــ لسوء الحظ ـــ طريقة الفريسك القديمة . وما كاد التصوير يزول عن كثير من الاماكن ، حتى اقبل بعض الفنانين ، ممن ليست لهم موهبة ليوناردو ولا ابداعه ، فجددوا اللوحة ، زاعمين انها تحتاج الى لمسات اضافية . ولقد عثر في نهاية عصر من العصور على قسم كبير من تصوير ليوناردو ، تناولته لمسات اولئك المصورين ، ثم عظمت المصيبة ، حين عوّل رهبان دير « سانتا ماريا دل غرازي » على فتح باب في جدار الغرفة ، فجاء الباب وسط القسم الاسفل من اللوحة تماماً . وطبيعي ان ضربات المعاول التي انهالوا بها ليفتحوا الباب ، قد زعزعت الصورة ، وذهبت بمحاسنهـــا ، وشوهت جمالها . وحين قاد نابليون ـــ بعد زمن طويل ـــ جحافله لغزو ايطاليا ، احتل لفيف من جنده غرفة « العشاء السري » وجعلوها مربضاً لخيلهم ، ولم يكتفوا بذلك بل مضوا يمرحون ويلعبون ، فيرمون اللوحة بأحذيتهم ، مستهدفين « يهوذا الاسخريوطي » الحواري الذي خان المسيح .

وهكذا عرا البلى ـــ على كر الايام ـــ هذه اللوحة الرائعة ، حتى كادت تمحى من الوجود ، بيد ان ايطالياً اريباً ، غيوراً على الفن ، اهتدى الى وسيلة يصون بها ماتبقى منها ، فأثبتها بشكل يصعب انتزاعها ، ولم يبرح يعالجهـــا ، حتى رتبها ، وأزال عنها ما اضيف اليها من لمسات ، وها هي ذي اليوم ، بفضل جهد هذا الايطالي الأريب ، احسن حالاً مما لم تكن عليه منذ قرون ... وفي حوالي سنة ١٥٠٢ صور ليوناردو لوحته المساة « العذراء والطفل والقديسة آن » وهي معروضة اليوم في متحف اللوفر ببـــاريس وقيل انه صورها في فرنسا وهو في خريف عمره . وربما اتمها له احد تلاميذه . وهي صورة طبق الاصل لفنه الخالد ، رغم اعادة تلوينها بيد غير ماهرة ، ومن عجب ان نرى فيها ، الابتسامة الغامضة الفاتنة ، التي اجاد تصويرهـــا على ثغر « جيوكندا » تعود ثانية الى ثغر القديسة « آن » التي اجاد تصوير رأسها ايما اجادة ، فكأن تياراً كهربائياً ينقل عاطفة الحب

من هذه القديسة ، الى العذراء فالطفل فالخروف الصغير ، كما ان تكوينه للصورة جاء متقناً ، وكأنه احكم وضع الاشكال كلها ، داخل شكل بيضي ...

وهكذا لم يبق في لعالم اليوم الا خمس لوحات اوست ابدعتها ريشة ليوناردو العظيم ، منها لوحة احبها العالم اجمع ، تدعى « العذراء فوق ذرى الصخور » يرى فيها المسيح الطفل وامه جالسين على الارض ، ومن حولهما القديس جان الصغير وملاك ، وقد بدوا وكأنهم في كهف اوداخل صخور مظلمة ، واننا لنلمح عبر هذه الصخور شلالاً يفيض بنور ازرق ، ونشهد اعشاباً خضراً ، وتتجلى عبقرية ليوناردو في هذه اللوحة ، ببراعته في اظهار العشب والزهر ، وهو مالم يعن الفنانون به من قبله ، او يلتفتوا اليه .

لقد قيل ان ثمة لوحة رسمها احد تلاميذه ويدعى « لويني Luini [١] » اسماها « زهرة » تمثل امرأة في ميعة الصبا وشرخ الشباب ، امسكت بيدها زهرة الحوض Ancolie » ونخال ان للنسوة اللواتي صوّرهن « لويني » مثل الابتسامة المقتضبة الخلابة التي اجاد ليوناردو تصويرها في « الجيوكندا » وبالرغم من ان « لويني » كان ابرع مصور في عصره ، بيد انه لم يوازِ في عظمته ، عظمة ليوناردو دفنشي الذي قلده « لويني فاجاد تقليده ، ولم يبلغ في الابداع شأو ذاك الفنان العظيم لقد ظلت « الجيوكندا » التحفة الفنية الفريدة ، التي يباهي بهـــا عصر النهضة ، والاثر الفني الرائع الذي يزهو به هذا العصر ، استقطب فيها ليوناردو زخم عواطفه وانفعالاته ، واودع فيها جملة حقائق منوّعة حيّة يفهمها ويفسرها ويشعر بها كل انسان ذوّاقة ، ما تجددت الاجيال وتنوّع الناس وذلك لعمري هو معنى الخلود كما يؤكد « لوبجي بيراندللو » . تُرى ... او ليست العبقرية شيئاً استثنائياً — كما قيل — خارجاً عن المألوف ؟ او ليست عبقرية ليوناردو دفنشي من هذا القبيل ؟.

---

(١) برناردين لويني Bernardine Luini مصور من مدرسة « ميـــلانو » ولد في « لوين Luine » بين عام ١٤٨٠ — ١٤٩٠ — وتوفي عام ١٥٣٢ تلمــذ على يد « ليوناردو دفنشي » وبرز في « الفريسك Fresque » وله عدة لوحات شهيرة فيه » .

مجلة المعرفة

مع

التيارات الفكرية

العربية والعالمية



١٢٢



سيكولوجيا الشعوب

آبيل ميروليو

عرض وتلخيص : أورخان ميسر

لقد اصبحت السيكولوجيا في الزمن المعاصر احد العلوم الحديثة التي تعتمد على الاساليب العلمية في الدرس والبحث والاستقصاء ، بينما كانت في الماضي جزءاً من الفلسفة وكانت ذات ابعاد محدودة تجعلها اقرب الى الابحاث الغيبية منها الى الابحاث الجدية ذات المناهج العلمية وهذا التطور الكبير في السيكولوجيا لم يحدث الا في خلال السنوات الثلاثين او الاربعين الأخيرة اي بعد ان تبلورت الفرويدية في وضعها الحالي عقب الدراسات الواسعة التي قام بها الاختصاصيون في اوروبا وامريكا حول مختلف النواحي التي تضمنتها الفرويدية .

وكعلم حديث متطور كان لابد للسيكولوجيا من ان تنقسم الى فروع ، لكل فرع حدوده وخصائصه واساليبه ومناهجه ولو ان كل هذه الفروع تقوم على اسس وقواعد واحدة كما هو الأمر في الطب مثلاً . وكنتيجة لهذا الانقسام والتخصص صار هناك فرع يعرف بـ« سيكولوجيا الشعوب » هدفه الكشف عن العوامل الكامنة وراء نشاط الانسان كمجموعة وليس كفرد .

ويعتبر الاستاذ آيل ميروليو ، وهو مدير معهد علم الاجتماع بالهافر ، مرجعاً في الدراسات التي تتعلق بعلم الاجتماع من جهة وبنشأة الشعوب وتطورها من جهة اخرى . ويساعد الأستاذ ميروليو في ابحاثه ودراساته رصيده الغني في السيكولوجيا العامة والاتنولوجيا والانتروبولوجيا واستطاع في كتابه المسمى « سيكولوجيا الشعوب » ان يقدم دراسة واضحة موجزة مبسطة عن تاريخ هذا العلم عند عدد من الشعوب وان يقدم عرضاً فيه كل التوفيق العلمي لأهم المعضلات التي يعالجها هذا العلم في الزمن الحديث.

يبدأ الاستاذ ميروليو بحثه بالتركيز حول وجود فئتين من الدراسات في سيكولوجيا الشعوب: فئة تتناول الشعب بصورة عامة وتعالجه كمجموعة بشرية لها خصائصها الشاملة وقوانينها الخاصة التي تختلف فيها عن القوانين المتعلقة بسيكولوجيا الفرد ، وفئة ثانية ترمي الى تناول جميع شعوب الأرض، الواحد بعد الآخر ، بمعالجات مستقلة أملاً في الاتجاه الى نتائج كلية عن النوع البشري الذي يعيش في قارات ومناطق واقاليم مختلفة كمجموعات مستقلة استقلالاً نسبياً . اما مايدعو اصحاب دراسات الفئة الثانية الى القول بذلك فهو اعتقادهم بان لكل شعب ، بالاضافة الى القوانين العامة التي يمكن اتخاذها كمرتكزات رئيسية في سيكولوجيا الشعوب ، حصيلة من المعطيات السلوكية انتهت اليه نتيجة للتفاعل القائم بينه وبين مختلف نواحي البيئة الخاصة التي يحيا فيها وكذلك يتجه لأحداث تاريخية خاصة قد ولدت عنده استجابات معينة للمؤثرات الخارجية تختلف عن الاستجابات التي نشأت عند شعب آخر ، وبعبارة اخرى ، ان تجربة ومعاناة كل شعب على حدة ليست ذات تجربة ومعاناة شعب آخر . وهذه الحقيقة تنتهي الى استنتاج يقول بوجوب الدراسات الجزئية في سيكولوجيا الشعوب .

غير ان الاستاذ ميروليو يصل في أمر هذين

الاتجاهين الى نتيجة تطابقية « سانتيز » ويؤمن ونفها بضرورة الأخذ بكلا الاتجاهين معاً اذ يقول: « في وسعنا الآن ان ندرك ما كان يمكن فقده لو اننا ظللنا ملتصقين منذ البداية بالابحاث المتعلقة بالسؤال التالي : ما الشعب ؟ هذا السؤال الذي لابد من الالتقاء به دائماً . غير ان هدفنا هو ارتقاء الشعوب جميعها ، من صغيرة وكبيرة ،هذه الشعوب التي تحمل اسماً وتتمسك به بصورة عامة.. إلا ان هناك فارقاً بين الجغرافيا السيكولوجية وسيكولوجيا الشعوب بالذات ، إذ ان من واجب الثانية ان تستقصي بعدي الزمان والمكان .»

وبعد ان ينتهي الى هذه النتيجة التطابقية التي يعتبرها مدخلا أساسياً في سيكولوجيا الشعوب ينتقل الى استعراض المراحل التاريخية التي مر بها هذا العلم في ادواره غير المتكاملة ، معتبراً – كما فعل المؤلف التاريخي والاجتماعي المعروف جورج هاردي – هيرودوت اليوناني الذي قام بمحاولات ناجحة في تدوين التاريخ الرائد الاول في ميدان سيكولوجيا الشعوب ، وفي اعتبار ميروليو ان هيرودوت لم يقتصر نشاطه الفكري على التحقيق في الامزجة الفردية للشعوب انما تعدى ذلك الى مجالات التحقيق والتصنيف لامزجة الشعوب وفق التأثيرات البيولوجية والتأثيرات الفيزيائية والجيو – فيزيائية ، ويستعرض ميروليو فيما يستعرض من تاريخ هذا العالم او من المراحل التي مر بها عبر الزمن الذي بدأ بهيرودوت أسماء اخرى يعطي اصحابها قيماً فكرية كبيرة على اعتبار كونهم من اولئك القلائل الذين استطاعوا ان يساهموا في بناء هيكل قويم لسيكولوجيا الشعوب . ويتبنى ميروليو ، من حيث هذه الناحية ، آراء جورج هاردي تبنياً كاملا ويردد معه قوله ان ماتم بحثه وتحقيقه في الماضي حول سلوك الجماهير والشعوب كان «امراً لايمكن تجاهله تجاهلا كاملاً » . وهنا التقاء كامل بينه وبين هاردي الذي اقتبس منه هذا القول وتبناه. اما بالنسبة للبعض الآخر من المفكرين اليونانيين الذي قاموا أيضاً بمحاولات ناجحة في تدوين بعض الاحداث التاريخية ، فان ميروليو يعتقد ان بوسيديد وديموستينوس وافلاطون وارسطو هم في طليعة رجال الفكر الاوائل الذين وضعوا في بناء سيكولوجيا الشعوب لبنات صلبة في اماكن صحيحة من الكيان العام للبناء . ويقلل ميروليو في استعراضه التاريخي هذا من اهمية الرومان في هذا المجال ويعتبرهم فيه اقصر باعاً من الاغريق وذلك لأن افكارهم المادية او النفعية كانت تصرفهم عن الفكر او حول العالم المجرد » .

ولم يكن في وسع ميروليو ان يتجاهل العطاء العربي في هذا الميدان . لم يكن في وسعه ان يتعامى عن ابن خلدون الذي ضمن مقدمته بدايات طيبة لنظريات قيمة عن الشعوب ونشأتها وتطورها إلا انه قصر في ايفاء ابن خلدون حقه اذ اكتفى بالاشارة اليه ، رغم الالحاح الفكري الذي وجد نفسه منساقاً الى الاستجابة له ، اشارة فيها كثير من التجاهل العلمي او المنطقي لأمور لايمكن تجاهلها بمثل هذه السهولة . لم يغفل ميروليو في معرض حديثه عن ابن خلدون اكثر من اعرابه عن تناغم من هاردي واكثر من القول ان الباحث في علم الاجتماع الذي تطور بعضه ليصبح سيكولوجيا الشعوب «يجد نفسه بصورة حتمية مع ابن خلدون الذي

يتضمن انتاجه قوانين ومبادىء الجغرافية النفسية » .

ان هذا لاشك اعتراف واضح بعبقرية ابن خلدون ، الا انه اعتراف عابر مقصود او غير مقصود لا يمكن ان يبرر في المنطق العلمي بالنسبة لباحث من مستوى ميروليو ، او حتى هاردي الذي سبقه وكان معروفاً عنه بعض الشوفينية في الانتاج العلمي وفي التحقيق المنطقي الموضوعي.

وأكثر النقاط أهمية في الفصل الذي يستعرض فيه الكاتب نشأة علم سيكولوجيا الشعوب هي النقطة التي يتناول فيها استمرار استنكار الشعوب في مراحل التاريخ المتباينة لفكرة تناسي الكرامة الانسانية ، وكيف ان هذا الاستنكار كان باعثاً اولياً بالنسبة لرجال الفكر على التعمق فيها ثم على اعطاء استنتاجاتهم وحصيلة دراساتهم للناس لتعود فتؤثر فيهم كعوامل اولية في خلق مفاهيم جديدة لوجودهم وبالتالي لعالمهم الذي لا ينتهي عند حدود تأمين رغبات « الأنا » الخام .

ورغم كل ما يتمتع به ميروليو من مستوى ثقافي ومن قيمة أكاديمية فانه لم يستطع بعض الاحيان من التخلص من نزعة سبق ان سيطرت عليه . ولست في مثل هذا العرض المقتضب في موقف يسمح لي بالاسترسال في بحث العوامل التي سيطرت عليه وجعلته ينأى او يحيد ، ولو قليلاً ، عن طبيعة الدرس العلمي . غير انه من الجدير بالاشارة اليه ان ميروليو قد انجرف في افكاره التي وردت في القسم الأخير من الفصل الاول في كتابه ، هذا الفصل الذي بحث فيه نشأة سيكولوجيا الشعوب وتطرق فيه الى تاريخ هذا العلم — قد انجرف في دوامة شوفينية كان يجب ان يبقى بعيداً عن امكان الانجراف فيها كرجل علم يسعى الى الحقائق ويحاول تدوينها تدويناً موضوعياً .

فلقد حاول ميروليو ان يربط بين بعض الابحاث العلمية الاولية وبين النتائج المثمرة التي انتهى اليها علم الاجتماع الذي انبثق منه فيما بعد علم نفسيات الشعوب او سيكولوجيا الشعوب ربطاً تقترن قيمته بالذهنية الفرنسية الكلاسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . يقول ميروليو ان البحث في الكلاسية في هذا الموضوع يستدعي «تذكر القرن السابع عشر اذا لم نجد هنالك ما يضطرنا الى الرجوع الى مونتيني والى فكرته عن الطبيعة البشرية ، التي تحيا في اعماق كل واحد منا . ويؤدي هذا من حيث المضمون الى ذكر فرنسا .. ان الكلاسية قد تجاوزت حدود فرنسا بمراحل كثيرة غير انها لم تمت مطلقاً ولن تموت مطلقاً — وهذا ما نرجوه من كل اعماقنا» .

الا ان التتابع الموضوعي المنطق لكتاب ميروليو يجد لاندفاعه الشوفيني العابر بعض التبرير عندما ينتقل الى الحديث عن تيارات القرن التاسع عشر من حيث تأثيرها على تطور سيكولوجيا الشعوب فيجد في هذا الحديث عودة الى الاسلوب الاكاديمي واستئنافاً للبحث في حدوده العقلانية المجردة . يستعرض ميروليو في هذا الحديث التيارات الفكرية التي كان لها تأثير مباشر ، ليس على هذا العلم وحده فحسب بل على جميع فروع العلم الاخرى التي عني بها رجال هذا العصر ، فيأتي بصورة خاصة على الاسباب المختلفة التي تركت انطباعات واضحة في مجال دراسات نفسيات المجتمعات ، جاعلاً استعراضه متركزاً

حول التيارات التي عرفت بالوضعية والرومانية والطبيعية والداروينية والماركسية . ان ميروليو في هذا الاستعراض يبدو وكأنه ينتهج نهجاً علمياً حيث يرى في وضعية اوغوست كونت هروباً من واقع التطور الطبيعي ويرى في الرومانسية تفتحاً غير واع لما هو قابع في لا وعي الشعب ويرى في المذهب الطبيعي مدأ يتغلف على ذاته وكأنه يحاول ان يتحنط او يحنط قبل ان يموت ويرى في الماركسية تقوقعاً في طبقيات لامبررات علمية لها ، بينما يدور في كل ذلك حول الداروينية دوراناً رشيقاً يحاول فيه ان يستجلي الدقائق البيولوجية التي تنطوي عليها والتي يمكن اعتبارها احد الاسس التي تقوم عليه سيكولوجيا الشعوب في مفهومها الحديث .

غير ان الغريب في أمر الاستاذ آبيل ميروليو هو انه يعود الى شعوره الشوفيني العابر بين فترة واخرى ولو عوداً عفوياً . فبعد ان استعرض المذاهب الفكرية التي كانت سائدة في اوروبا في القرن التاسع عشر استعراض استاذ جامعي حر الفكر ، رجع ليجعل من المؤلف ألفريد فويه اماماً كبيراً في سيكلوجيا الشعوب وليتحدث عنه بلغة المراهقين في الثقافة والفكر . رجع ليقول عن فويه ان كتابه الذي ألفه عام ١٨٩٨ عن المعالم النفسية للشعوب الاوروبية قد أعيد طبعه أربع مرات في عام واحد وانه قد ترجم الى لغات عديدة منها بعض اللغات الآسيوية. صحيح ان هذا الكتاب قد تضمن بعض التحقيق العلمي الذي له قيمته واهميته من حيث اتنولوجيا الشعوب غير ان هذا الانقضاض المفاجىء القوي عليه من قبل ميروليو يبدو وكأن لامبرر له غير الانطباعات الشوفينية القابعة في زوايا لا وعيه .

ويستمر ميروليو في استعراض عدد آخر من رجال الفكر الذين كان لهم عطاء في الدراسات الاجتماعية ليقف بعد ذلك عند دوركهايم وقفة أطول من وقفاته عند الآخرين وليقول عنه ان فضله الفكري الاساسي هو « فضل اطلاق حركة علم الاجتماع في فرنسا بصورة صحيحة» . الا انه يعود ايضاً لينكر على دوركهايم بعض هذا الفضل عندما يفضل عليه ليفي برول الذي يعتبره في معجمه العالم الذي يستطيع ان يجمع بين عالم الاجتماع والسيكولوجيا جمعاً منطقياً يؤدي الى مفاهيم واضحة « تقوم على الواقع العلمي » .

ان في استمرار ميروليو في استعراضه هذا لمحات كثيرة ذات فائدة كبيرة ولو انه تطرف في بعض هذه اللمحات تطرفاً لا يستطيع تجنبه أي باحث علمي ، الا ان مجرد المرور بالمذاهب والاتجاهات التي مثلها اولئك الذين ساهموا في بناء الفكر الانساني يعطي المضمون الذي يتناوله في دراسته قيماً حقيقية لا يمكن تجاهلها . قد يكون في هذا المرور بعض التناسي والتجني وقد يكون فيه ايضاً بعض نظرة من التضخيم الذي ليس لهمن أي مبرر منطقي ، غير ان الاستعراض وحده يظل في حد ذاته عنصراً مهماً في عمليات تفتيح الذهن الى حقائق كانت غير مرئية بالنسبة له .

ويعتقد ميروليو ان للأدب توجيهاً ذا تأثير عميق في نشأة وتطور سيكولوجيا الشعوب لان الاديب يستطيع ان يكشف عن حقائق في شعبه لم يكن لينتبه اليها أفراده وان يجعل من هذه

الحقائق ما هو بمثابة مقومات جديدة تدخل في شعورهم القومي لتغنيه بحصيلة جديدة ، تعودهذه الحصيلة ذاتها بعد ذلك لتصبح عاملاً توجيهياً في السلوك الجماعي . ويعتقد ايضاً ان هــذا التأثير الأدبي في تطور نفسيات الشعوب هو اليوم أشد مما كان عليه في أي عصر ســابق ، ذلك لان الأدب لم يعد الآن متعة أو تسلية في البلدان المتمدنة انما اصبح حاجة يتطلبها كل من توفر لديه قسط نسبي من الثقافة .

ويلح ميروليو على التمسك بناحية لا يمكن اهمالها في مجال العرض لمثل هذا الكتاب. وتتلخص هذه الناحية في الدعوة الى دراسة سيكلوجيــة الفرد قبل دراسة سيكلوجية الجماعة لان السلوك الفردي هو الذي يكون عناصر السلوك الجماعي ولأن النوازع الفردية ، المكتسبة منها والموروثة في أية بيئة تظل دائماً عاملاً رئيسياً في التوجيــه اللاوعيي للجماعات في استجاباتها المختلفة للمؤثرات التي تتعرض لها في تاريخها اليومي . وفي الحاح ميروليو هذا ما يدل على اعتماده الى حد كبير على الفرويدية التي تعتبر الجماعات في جميع اشكالها البدائية والحضارية انعكاسات لنوازع «الأنا» في حالات جديدة أعطتها الملابسات المتباينة التي تفرضها الحياة الجماعية خصائص لها بعض التميز النسبي .

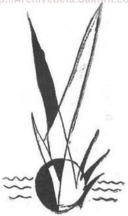
وفي نحو الثلث الاخير من الكتاب يتــاول ميروليو تناولاً قاموسياً عددا من الكتاب الذين كان لهم شأنهم في الدراسات والابحاث الانثولوجية والانثو ـ سيكلوجية والاجتماعية في فرنسا وفي البلدان الناطقة بالفرنسية وفي المانيــا والنمسا والولايات المتحدة وانكلترا ، محاولاً ابراز بعض الاسماء واخفاء بعض الاسماء الاخرى بصورة يختلط فيها القصد باللاقصد وبطريقة تخرج احياناً عن الطابع العلمي الذي يجب ان يتوفر كلياً في مؤلف رصين من هذا المستوى. انه في تناوله هذا يحاول حيناً ان يتمركز حول نقطة معينــة ثم يتحول ليتمركز حول نقطة اخرى تناقض الاولى أو فيها ما يناقضها جزئياً . فهو يعترف مثلاً اعترافاً فيه كل التقدير بالجهد العلمي الذي بذله روجيه باستيد في كشفه عن العلاقات الوثيقة القائمة بين التحليل النفسي وعلم الاجتماع ثم يعود ليقول عن ريتشاردو تورنولد ، مثلاً ايضاً ، انه « عالم كبير استطاع ان يحول مجلة ألمانية الى مجلة المانية ـ اميريكية » وكأن تحويل المجلات يمكن ان يدخل في اعتبار الأعمال العلمية الكبيرة .

ولم يخل كتاب « سيكلوجيا الشعوب » من متناقضات يلتقطها المنطق العلمي بسهوله . غير ان ماوقع فيه آيل ميروليو من متناقضات لايغير من قيمة الكتاب الأكاديمية شيئاً . ومع كل ذلك فان الفصل الاخير الذي ينتهي به الكتاب ما يسترعي بعض الانتباه . وهذا الشيء الذي يسترعي الانتباه هو انتقال ميروليو بصورة لاترابط فيهــا الى منظمة الاونيسكو مع التأكيد على اعتبارهــا « منظمة لانغفل سيكلوجيا الشعوب » . وليس من تقليل لمثل هذا الانتقــال الا فرض وجود فكرة معينة اراد ان يرمي اليها ميروليو ، او ان ذلك كان من جملة المتناقضات العابرة التي وقع فيها كما يمكن ان يقع في مثلها اي باحث في مثل هذا الموضوع الدقيق الذي يحتــاج الى جهد ذهني

كبير والى اطلاع واسع عميق . غير ان التساؤل حول هذا الفرض يظل يتردد في الحاح في ذهن القارىء الذي اعتاد ان يقرأ في روية وان يحاول الاستقصاء في الموضوع الذي يقرأ . والسبب في ذلك يعود الى السطور الاخيرة التي يختم بهـا ميروليو هذا الكتاب . انه يقول : « علينا ان نعطي الاونيسكو ثقتنا وذلك في سبيل الانثرو سيكلوجيا التطبيقية . ، ولو فرضنا احياناً انها قد يمكن ان تتغلغل في الوهم . علينـا ان نعطي هذه المنظمة الدولية الكبيرة تأييدنا المعنوي بدون تقيد » . ان هذه الدعوة للاونيسكو تبدودعوة غريبة في كتاب علمي يحاول تبسيط مبادىء علمية تبسيطاً يمكنها من ان تصبح في متنـاول ذوي الثقافات المتوسطة .

لقد استطاع ميروليو ان يطرح بنجاح مشكلة وجود فئتين مختلفتين من الدراسات الحديثة في سيكلوجيا الشعوب كما انه استطاع ايضاً ان ينتهي الى نتيجة تطابقية موفقة بعد طرحه لهذه المشكلة ومعالجته اياها معالجة واضحة لاتعقيد فيهـا . واستطاع كذلك ايضاً ان يستعرض بعض الآراء المتعلقة بموضوع الكتاب استعراضاً كان كلامياً حيناً ونقدياً او انفعالياً حيناً آخر . غير ان ماظهر منه من شوفينية في سياق بحثه ، شوفينية لامبرر لهـا في اي بحث علمي وما انتهى اليه من اكبار من شأن الاونيسكو — رغم كونها منظمة يحترمها مثقفو العالم — اكبار يبـدو غريباً لأن العلم يترفع عن الاكبار والتمجيد وعن الدعوة الى المؤسسات والمنظمات مهما بلغت هذه من درجات الكمال .

•



الشعر والشعراء في العراق

أحمد أبو سعد
٣٥٠ صفحة من القطع الكبير
منشورات دار المعارف – بيروت

عرض وتحليل : الدكتور زكي المحاسني

يقول شاعر عظيم :

محضتك يا بغداد ودي على النوى
وإني إن أمحض ودادي أصدق

وقد دوى هذا البيت في فكري وتناغى به لساني ، حين قرأت عتاباً عاتبنيه أديب عراقي كريم ، إذ لم يجد في كتابي الذي صدر منذ حين بمصر واسمه (نظرات في ادبنا المعاصر) ذكراً للأدب العراقي . وقد كنت قصرت البحث – حيناً من الظرف – على الادب الحديث في سورية ومصر وما كنت لولم أقصد التخصيص بسال عن أدب العراق ولي فيه اخوان أحبوني وهم لي على الدوام ذاكرون ، وأنا معتز مكاثر .

واليوم أتيح لقلمي ان يكتب عن الشعر والشعراء في العراق في كتاب حديث ألفه الاستاذ « أحمد ابو سعد » ، ولعل في هذا مايذهب بذلك العتاب .

جعل المؤلف الفاضل بحثه في متناول السنين بين ١٩٠٠ و ١٩٥٨ . فقدم لكتابه بدراسة مستفيضة عن تاريخ الشعر المعاصر في العراق واتجاهه خلال فترات الانبعاث والرقي والزمن الراهن . وكان المؤلف قد جعل مقاييس السياسة وترادف الحوادث ميزانا لحركة هذا الشعر في ديار الرافدين ، فطبق المذهب السياسي على الادب ولم يلجأ الى المذهب المدرسي .

وأرى الشعر العراقي في قديمه وحديثه مدرسة

قائمة بأركانها ، علق بها خاطري منذ أمسية من الاماسي حين وقف رئيس المجمع العلمي العربي الاستاذ محمد كرد علي ـ عليه رحمة الله ـ ولقد كان باعث نهضةالادب وراعيها في الديار الشامية، فقال علىمنبر الردهة الكبرى بالبنية العادلية حيث يقيم المجمع فيها الى الآن :

إن شاعركم الكبير اليوم هو صديقنا جميل صدقي الزهاوي ..

فضج المكان على رحبه بالتصفيق ، حين نهض رجل في نحو السبعين يلبس طربوشاً يغوص الى شحمة أذنيه ، وعلى أرنبة أنفه نظارة صغيرة الحدقتين، ذو لحية مشوبةببياض، وهتف بقصيدته التي أولها :

ظننت بأن الشعر يغني فما اغنى
وكم شاعر في موقف أخطأ الظنا

ومازال حشو سمعي حتى اليوم نغمته المنشدة المحزونة المديدة ، فكان كأنه يغني شعره بتلاحين عراقية ، حبيبة الى النفس مثيرة للخواطر وحين بلغ الى قوله :

يريدون مني أن أغني باسمهم
وأي هضيم باسم أعدائه غنى

نطق بكلمة هضيم بالظاء ،ومد كلمة غنى مدة لو سجلت على شريط لبلغت ذراعين .

كنت يومئذ طالباًفي تجهيزدمشق قبيل دخولي الى الجامعة شاباً حدثاً. فذهبت ممتلىء العطفين اعجاباً بشاعر العراق الزهاوي ، ومنذ ذلك اليوم أحببت ذلك الادب الذي يتمرى بصفحات دجلة كما تتمرى عليه ضفائر النخيل .

وظل الشعر العراقي الحديث ذا صلة وثقى بتاريخ الشعر العربي خلال العصور السوابق حفيظاً على التراث الذي تسلمه الامويون من الجاهلية وسلموه للعباسيين والاندلسيين ، ونهض برفع لوائه أبو الطيب المتنبي حتى جعله يدخل بزهو رحاب الادب العالمي ، حتى عهد شوقي الشاعر الخالد ومن جاء بعده من الحفظة على الشعر العربي الرصين فكان أن حدثت ظاهرة مفاجئة في صورة الرسم المكتوب للشعر المعاصر فيالعراق والشام ومصر ولبنان فاذا أصحابه يسمونه الشعر الحديث ويرصفونه كلمات خلف أخر يجيئون بها تارة موزونة ولها قواف وتارات بغير وزن ولا قافية .

وقد جعل المؤلف الاستاذ ابو سعد فصلاً في مقدمته الضافية عن هذه الظاهرة وقد سماها بالتطور .

وكلمة التطور، حسب مفهومها لدى علماء الاجتماع ، إنما تكون تقدماً وتسامياً ، وأناأطلق كلمة التقاعس على مفهوم مضاد للتطور . ولست أسمي هذه الحركة في الشعر الحديث تطوراً ، ولقد كنت في النقدة المعاصرين من اشدهم حملةعلى هذه الظاهرة التقاعسية في الشعر العربي الحديث . لقد التقيت بالشاعر الموهوب « السياب » حين كنا في مؤتمر الادباء بياودان واستمعت لشعره وشعر « نازك الملائكة » في تلك الأمسيات الشاعرة التي لم تخل من دس وكيد وحسد . وقد رد المؤلف قوافي وطرقاً لدى هؤلاء الشعراء المحدثين والشاعرات الجديدات الى مظان غربية تقليديه ينبو عنها طباع العروبةفي أدبهاالموروث .

وكنت غـــير منكر لسنن التجديد في الادب . والادب في نظري كالبحيرة الجميلة التي ترفدها أنهار وسواق ، فتكون زاهيـــة السطح وارفة الضفاف مادامت الروافد ، فاذا انقطعت عنها أسنت وعلاها الطحلب ، وساء مذاق مائها الذي كان قراحاً ، فاذا كان تجدد الادب صفة من صفات حياته الاصيلة وجدت للشعراء الذين يحاولون التجديد مآثر تحمد ، ولكن هذه المحاولة فسدت وأصبحت أهزولة أدبنا الحديث حتى كادت تقف سيره أو تقضي على قيمه المثلى التي صنعهـا شوقي وحافظ ومطران أقانيم الانبعاث الجديد للشعر العربي في القرن العشرين .

منذ سنين خلت أهدى الي شاعر العراق الاستاذ رضا الشبيبي ديوانه، فكتبت يومئذ عنه مقالا جعلت عنوانه (شبابة الشبيبي) ووجدت شعره استمرارا للشعر العربي الرصين الذي حمل لواءه سدنة الضاد.

وحين ألف نابغـــة الأدب التركي والعربي « اسماعيل أحمد أدهم » كتابه عن (الزهاوي) وقد وضعه اول الامر بالالمانية ، صورت له في رسائلي اليه مدى اعجـــابي بدراساته الادبية الحديثة ، وظلت الكتب تترى بينه وبيني حتى انقطعت بانتحـــاره اواخر الحرب الماضية في بحر الاسكندرية (١)، وكان من رأيه في الشعر العراقي أنه يمثل التراث الفني الذي عرفه العرب في الاداء، لكن معانيه كانت ترود آفاق التجديد وانه يتجلى لدى الزهاوي بالوعي الفلسفي وحرية الرأي والعقيدة ..

وكان يعد الزهاوي من رواد التجديد والحرية، أفليس هو الذي يقول :

« أخر المسلمين عن أمم الارض حجـــاب تشقى به المسلمات »

فاذا مشت الآن العراقيات سوافر الوجوه عن الجمال والخلق الرصين : فليعلمن ان الزهاوي كان لهن في العراق بمنزلة قاسم أمين في مصر .

وكنت اوثر ان يرى المؤلف الفاضل آثار اسماعيل احمد ادهم في أدب العراق الحديث ليفيد منها الكثير ، فان اتجاهات الدراسة الادبية الراقية لدى هذا الأديب الذي اعتبط مبكراً وكان في عمر الشباب ، قد كانت لديه ذات حفاوة بأدب العراق وأدبائه .

والظاهر أن الأستاذ أحمد أبو سعد أحب ان يعطي القراء صورة مطابقة لشعر العراق في المرحلة التي اختطها لكتابه ، فساق شعوره مع الحركات الجديدة التي سماها تطوراً والتي أسميهـا ظاهرة أدبية ، فقسم كتابه الى الكلام على الشعر التقليدي والشعر الجديد ، ولعله انساب مع السياب وصحبه ليرينا الأدب العراقي الحديث في صورة شعرائه المجددين . واجد هؤلاء الشعـــراء متمكنين من العربية ، متوقـــدي المشاعر متصفين بالحرية وتمجيد الكرامة ومتفانين في آثارهم بالدفاع عن حوزة الوطن وهم في كل ذلك عائدون الى تراث العروبة ليبرزوها في ثمار حديثة تحلو بها مغارسهم ، فلقد أصابوا من المعاني

(١) اشتركت في رثائه مع الادباء والشعراء المعجبين في مجوعة أصدرها الاستاذ سامي الكيالي في عدد من اعداد مجلته (الحديث) .

في المسألة المغربية

بقلم محمد خير فارس

طبع معهد الدراسات العربية
لجامعة الدول العربية ـ القاهرة

عرض وتحليل : خليل الهنداوي

لعل من مميزات العهد الحاضر لثقافتنا أننا بدئنا نطلع على تاريخنا بتجرد وتعمق من زاويتين اثنتين :

من الزاوية الغربية التي عنيت بالبلاد العربية وتاريخها من الناحية التي تروقها ، وهي الناحية التي تفتح لهم الطريق الى احتلال هذه البلدان ، والكشف عن خصائص أرضها وسكانها . والدراسة ـ هنا ـ قلما تكون منصفة : لأنها دراسة مؤسسة على مطامع تتفتح، ونزوات تتكشف.

والزاوية الثانية هي ماقام بها مؤرخو العرب، وبخاصة القدامى منهم . ولكنهم لم يعطوا إلا صفحات مشوشة ، لايستقيم لها عمود عند البحث والتمحيص . ولذلك ، كانت معلوماتنا ـ في الزاويتين ـ معلومات خاطئة ، لاتكاد تبين عن هذا التاريخ العريق الذي سطره الاجداد بالعرق والجهاد .

وغني عن البيان أن الامة التي لاتحسن فهم تاريخها ، يسهل عليها ان تضيع تاريخها ..

وكأن شبابنا المثقف الواعي قد التفت الى هذا النقص الشائن في دراسة تاريخنا دراسة واعية ، فشمر عن ساعد الجد ، وتسلح بالطرق التحليلية العلمية الصحيحة ليكشف عن اسرار هذا التاريخ المملوء بالغرائب .

←

جدة لاعهد للعرب بها وفيهم السياب ونازك الملائكة والحيدريين بلند وصفاء والياتي والراضي والبصري والكيلاني والعبيدي واليفهم المحدثون ، وأراهم جديرين ان لايرضوا معي عن الاساليب التي يضيع بها مجد حرفنا العربي ويختنق عندها الكلام الفصيح في سبيل المعنى البليغ .

ما كان أحب إلي منذ سنة ١٩٥٤ من أن اقرأ كتاب زميلي الدكتور جميل سعيد الذي سماه « التيارات الادبية الحديثة في العراق » فأذكر تلاقينا في الجامعة المصرية وفرحتنا بلقاء طه حسين واحمد امين وعبد الوهاب عزام الذين ارادونا على التثبت في الحكم والتصميم في التقدير .

وكيف جاء الامر فان الاستاذ احمد ابا سعد اعطانا كتاباً جيداً في تأريخ الحركة الشعرية المعاصرة في العراق بايراد نماذج لشعرائها يعوزها منه كتاب آخر يكون دراسة لهذه النماذج ونقداً ومقارنة.

وما كان ليتجنى على ذلك الاديب العراقي بعتبه لو هو رأى مقالي عن الشعر العراقي والشاعر معروف الرصافي المنشور في مجلة (العربي) منذ عام وإني لسامحه فيما هاج من خواطري بذلك العتاب.

ومن ذلك المسألة المغربية . . التي مهما سمعنا عنها واتصلنا بحوادثها لانستطيع ان نكون فكرة مجردة عنها إلا اذا انبرى الى البحث فيها كالاستاذ فارس شاب جعل همه دراسة هذه المسألة ، فأكب على المراجع الغربية والعربية على السواء واستحيا الشواهد ، واستنطق الحوادث ، وجمعها في رسائل وبحوث تجلو لنا حقيقة المسألة المغربية ، وحقيقة ما أحاط بها من مؤامرات الدول الغربية ومناوراتها في الانقضاض على الشاطىء العربي الافريقي لالتهامه ، وتغريبه بعد تعريبه .

وحسناً فعل الاستاذ « محمد خير فارس » في هذه الرسالة الجامعة التي تبنى طبعها واخراجها على الملأ معهد الدراسات العربية ، لتكون درساً نافعاً للعرب في نضالهم الحديث ، لانها افضل درس يطلعهم على المطامع الغربية ، وكيف كانت تتلمس طريقها الى البلاد العربية .

والذي يطلع على هذا الكتاب الجامع ، ويتعمق فيما أحاط بالمسألة المغربية يدرك جيداً أن هنالك ناحيتين بارزتين في هذه المسألة ، الأولى : تمثل تطاحن الدول الغربية فيما بينها على التسابق الى اكتساب المصالح الخاصة والعامة ، والفوز بالمكاسب السياسية والادارية بطريقة التهديد مرة ، وتبادل المصلحة مرة .. وما كان لدولة غربية أن تأخذ بيد دولة عربية لمجرد الحب والصداقة ، لانها مستعدة لترك هذه الدولة في أول فرصة يسنح لها فيها التفاهم مع خصمها المنافس لها . وما كان اكثر هذه الدول العربية التي خدعتها هذه الصداقات الكاذبة مع الدول الغربية التي تخلت عنها في المآزق الحرجة ! وان في ذلك درساً لكل دولة عربية تتكل على العون الغربي في صيانة حدودها ، وحفظ استقلالها .

والثانية — تمثل لنا ان الدول الغربية لم تستطع يوماً التسلل الى بلد عربي ، قبل أن ترى العون لها من الخونة انفسهم ، الذين تفتنهم المصلحة الخاصة ، ويعمي أبصارهم الحقد وحب السلطان ، فيكونون بذلك عونا للغربي على وطنهم ، ومشجعا له على التدخل في شئونهم . والعدو الخارجي لا يمكنه أن يقهر البلد المتحد المتماسك ، المتمسك بحريته وشخصيته الا أن يسهل له طريق التدخل ذلك العدو الداخلي .

من ذلك هذا الموقف الرائع الذي وقفه سلطان المغرب أمام مطامع الاسبان حين ارادوا اذلال المغرب وقهره ... فقد رد الوفد المغربي مخاطباً الاسبان :

« انكم لاتستطيعون الحرب مدة ثلاثة أعوام ، ولكنا نستطيع أن نحارب اربعين عاماً . ان الحرب تكلفكم كثيراً من المال . والمال نهاية كالحياة . وككل الاشياء في هذا العالم . ولكن الذي ليس له نهاية هم الرجال في المغرب : ان البعض يموتون ، ولكن يحل محلهم آخرون ، ويوجد منهم كثيرون وكثيرون » .

الا ما اروع هذا القول ! وما اروع لو كنا نسمعه من كل وفد يؤمن بوطنه ، إذاً لما استطاع المستعمرون أن ينفذوا الى هذا الوطن .

وفي الحق أن المغاربة لم تكن تنقصهم الوطنية ، ولا الرجال في كفاحهم الذي اجتمعت عليه هذه

المطامع الغربيـــة . وقد ذكر « موليرا » في كتابه « المغرب المجهول » « أن كره الاسبان كان عظيما عند المغاربة الذين كانوا يرفضون ان يبيعوا المؤن والماء العذب للاسبان ، ولو بأثقال من الذهب » .

ولكنهم حين انقسموا على انفسهم ،واستجاب الى الفتن بعضهم ضعف امرهم ، وذهبت ريحهم.. وفي هذه الحالة قال احد ساسة الغرب : « ان من الخير الوقوف بمعزل عن النزاع الداخلي في المغرب . وعلى المغاربة ان يمزقوا بعضهم . فهذا شأنهم . وعلينا ان نبقى متفرجين على نزاعاتهم ! »

هذه هي خطــة الغربيين في إثارة النزعات الداخلية ، ليستفيدوا منها في النهاية ...وهي خطة جربها المستعمرون في كل بلد أرادوا التغلب عليه .

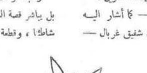
والكتاب الذي يبلغ الستمائة والاربعين صفحة يعالج المسألة المغربية بدقة وتجرد وأمانة ، معتمداً على نبش الوثائق ، ودراسة المعاهدات ، والسير بالقضية بين عام ١٩٠٠ و١٩١٢ وهو التاريخ الذي تمزق فيه المغرب قطعاً بين المستعمرين .

(ومثل هذا الموضوع — كما أشار اليـه مقدم الكتاب الاستاذ محمـــد شفيق غربال — له دقته واهميته ، وله صعوباته ، لأن باحثه لابد له من أن يروض نفسه على العيش في جـو تلك الفترة ، ولا بد له من أن يسيطر على المـــادة التاريخية وهي غزيرة ، وهي ان ملكته أغرقته . والباحث في العلاقات الدولية لا بـــد له من مهارة تجعل حركتها منتظمة ، والا اختل الامر اختلالاً كبيراً ...)

وليس الكتاب كما يبدو في ظـاهره دراسة مختلف الوثائق الخاصة بالمفاوضات والمشروعات. ولكن الباحث الجدي يدرك أن وراء الاوراق يوجد الناس ، وأن المادة أجسام حية ، وأرواح لبني الانسان ، وأن السنوات تتصل بالسنوات ، وأن النتائج تتصل بالاسباب .

على هذا الاساس قام الاستـاذ « فارس » ببحثه مؤرخاً حراً مستقلاً نزيهاً ، وأخرج لنا بالعربية أول كتاب هو الاول في موضوعــه الجامع المدروس دراسة واقعية علمية ، تعتمد على المراجع الغربية والعربية والوثائق الصحيحة .

وحبذا لو أن الاستاذ يتمم قصة المغرب ... بل يباشر قصة الشاطىء الافريقي العربي الذي هو شاطئنا ، وقطعة من وطننا الحبيب .



الجذور التاريخية للشعوبية

للدكتور عبد العزيز الدوري

١٣٤ صفحة من القطع المتوسط · منشورات دار الطليعة · لبنان

عرض ونقد : نهاد الغادري

هذا كتاب يجيء في ابانه ، ليلقي على جانب هام من التاريخ ، ضوءاً جديداً ، فيتقصى جذور الشعوبية ويجمع أخبارها وحوادثها ، ويضعها في مكانها من التاريخ العربي وزمانها .

ولا اعرف في المكتبة العربية الحديثة ، كتاباً غيره ، ضم أخبار هذه الحركة . **فالمرة الاولى تعرض قضية الشعوبية كوحدة مستقلة ، ومبحث شامل**. وقد آن لنا ان نعرف شيئاً ، أميناً وموضوعياً ، عن هذه الحركة ، التي لعبت دوراً بعيد الأثر في تقويض الدولة العربية وهدم بنيانها ، لاسيا وان القضية العربية تتعرض اليوم لمثل ماتعرضت له بالامس ، من هجوم الشعوبية وعدائها ، وائتمارها بها . فالكتاب من هذا النحو ، جهد مشكور يقدمه الدكتور الدوري للقارىء العربي .

على أن في الكتـــاب **هنات ونواقص ،** وددت لو أن المؤلف عني بها ، وكان قادراً على ذلك ، إذن لجاء الكتاب أوفى بالحاجة ، وأتم في عرضه للمشكلة : اسبابها ونتائجها .

وسأحاول في الصفحات القليلة المقبلة أن أقدم ملخصا للكتاب ، وأن اعرض فيه بعد ذلك وجهة نظري ، ورأياً في موضوع الشعوبية أحسب ان قد حان وقت طرحه ، ومناقشته .

تلخيص الكتاب

أطلت الشعوبية على الحياة العربية في أواخر الفترة الأموية ، وقد استهدفت ضرب السلطان العربي من الداخل وقامت بنشاط فكري عقائدي واسع ، تحت ستار الاسلام وشعار المساواة اولاً ، ثم انتقلت الى معركة مكشوفة ركزت فيها هجومها على كل ماهو عربي : من ثقافة واخلاق وتقاليد ، واتهمت العرب في أنسابها وشككت في جدارتها بالحكم ، وفي قدرتها على النهوض برسالة الحضارة .. ونسبت اليها الكثير مما ليس لهـــا ، أو بها .

وتمثل الشعوبية ، كما يرى المؤلف ، حركة سرية ، أو مجموعة حركات سرية داخل الدولة العربية ، عملت

على هدم الكيان العربي وتقويضه ، سالكة لتحقيق هذا الهدف كل الطرق ، مستخدمة كل الأساليب. ويبدو نشاطها في الحياة الفكرية ، كما يبدو في الادارة والسلطة ، وفي الاتجاه الديني .

وقد اشترك في هذه الحركات جماعات من مختلف المستويات الاجتماعية والفكرية : من عامة وكتاب وتجار ووزراء وأمراء ومثقفين وأميين وقادة عسكريين . وقد تمركز النشاط الشعوبي في ثلاثة اقطار: **في العراق وايران والاندلس ،** وان لم يكن مقصوراً عليها وحدها .

ويفسر الدكتور الدوري هذا التمركز للشعوبية في المناطق الثلاث ، بأنها كانت مركزاً لامجاد وحضارات سابقة ، « ولوقوعها على أطراف الاراضي العربية ، أو التي عربت ، وفيها تلتقي التيارات الثقافية والدينية المتعارضة وتتصادم . »

ويفصل المؤلف عن الحركات الشعوبية ، تلك الثورات المكشوفة التي قامت باسم الديانات الايرانية المجوسية **كثورة المقنع ، أو ثورة بابك الخرمي ،** والتي نادت صراحة بأهدافها . فالشعوبية — عند المؤلف — مقصورة على الحركات التي تسترت بالاسلام ، وتظاهرت بالولاء للدولة العربية .. ثم حاولت ان تنسفها من الداخل .. « وعلى الجهود التي بذلت لمسخ التراث العربي وتشويه دور العرب في التاريخ » لانها تمثل جانباً آخر من محاولات هدم الكيان .

الشعوبية .. والدعوة العباسية

ظهرت بوادر الشعوبية اذن ، في أواخر العصر الاموي ، وقد تمثلت أول أمرها في الموالي الذين طالبوا بالمساواة مع العرب ، ثم نشطت مع الدعوة العباسية ، التي اضطرت لتزيل الحكم الاموي ، الى الاعتماد على الموالي والاعاجم . فقد كان « جل المنضمين اليها من العامة ، وهناك مجموعة من الاشراف الفرس أيدتها وخاصة في منطقة خراسان وبينهم الدهاقين نبلاء القرى والمناطق . »

وكان من نتائج الدعوة العباسية اشراك الفرس في السلطة : في الجيش والادارة « وأقاموا أساس الدولة على التوازن والتعاون بين الفرس والعرب . »

وقد أدى هذا الى تهيئة الظروف لنشاط الحركات الدينية الايرانية ، وخاصة منها المانوية وحملت الخرمية راية الثورة الملحة وانتشرت دعوتها في ايران .

ويبدو ان الوعي الايراني وجد في أبي مسلم الخراساني ، رمز توثبه ، فاعتبره بعضهم خليفة زردشت ، واعتبره آخرون المنقذ الذي حل فيه جزء الهي .

على أن دور الفرس في الحياة العامة يظهر بأوضح أشكاله مابين فترة الرشيد والمأمون . **فالبرامكة** تركوا في الحكم آثاراً بعيدة ، اذ تسلموا مقاليده سبعة عشر عاماً ، ووسعوا طبقة الكتاب الذين « اعتبروا أنفسهم حملة التراث الحضاري الايراني ورسل الثقافة الفارسية .

وحاول البرامكة تنشيط حركة الترجمة عن الفهلوية الى العربية في الادب والتاريخ ، وتبنوا عناصر متطرفة في ايرانيتها كسهل بن هارون الذي كان من أعلام الشعوبية . »

ثم جاء عهد **المأمون** بعد أن قتل الامين ، فسيطر الفرس أو كادوا على الدولة العربية . وقد لعب **الفضل بن سهل** وهو من المقدمين في الفرس ، ووزير المأمون ، دوراً بارزاً وأساسياً في الانحراف بالحكم العربي ، وهو الذي نصح المأمون بنقل عاصمة الخلافة من بغداد العربية الى مرو ، مركز الحيوية الايرانية في تلك الفترة ، وولى على بغداد والياً فارسياً هو أخوه .

وأحاط **الفضل بن سهل** المأمون بنطاق حجب فيه عنه الاخبار كلها ، وفسر له اضطرابات بغداد على غير حقيقتها ، وادرك العرب مخاطر هذه السياسة وهذا الاتجاه ، بل هم أدركوا أن الفضل بن سهل يعمل ليصير الملك كسروياً (١) فسرى التذمر في بغداد وثارت على حاكمها الايراني وبايعت خليفة جديداً وثار نصر بن شبث في الجزيرة ، وعمت الثورة العراق ، مما اضطر المأمون الى ان يبدل سياسته ويعود الى بغداد .

واذا كان الفضل بن سهل قد أخفق في تقويض الحكم العربي واقامة الدولة الفارسية ، **فقد نجح طاهر بن الحسين في وضع أسس أول امارة ايرانية في خراسان،** حتى غدت لأولاده من بعده . وكان طاهر بن الحسين هذا قد لعب دوراً بارزاً في تمزيق قوات الأمين ، وهو المسئول عن مقتله (٢) .

ولم يكن دور **الأفشين حيدر بن كاووس** بأقل من دور البرامكة والفضل بن سهل وطاهر بن الحسين . فقد تدرج في مناصب الدولة حتى بلغ قيادة قوات الخليفة المعتصم . وكان يكره العرب ، وبلغ به الكره حد التآمر ضد المعتصم وبعض قادته ، ولكن مؤامراته أخفقت ، وانتهى الافشين دون أن يحقق حلمه في تقويض الحكم العربي .

الشعوبية في الثقافة

ولم تقتصر الحركات الشعوية على القادة والوزراء بل ان للحركة نشاطها الثقافي أيضاً . والتاريخ العربي ، والعباسي منه خاصة ، غاص بالشعوبيين من الكتاب والشعراء ، وبنماذج من اقوالهم وأشعارهم في الحقد على العرب والكيد لهم والتهوين من شأنهم ، وتزوير تاريخهم والاساءة اليهم .

ومن هؤلاء : **ابن المقفع ، واسحق بن يزيد ، وسهل بن هارون ، وعبد الحميد الكاتب ، وبشار بن برد ، وابو نواس**

(١) انظر الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٣١٣

(٢) يعتبر مقتل الأمين اول انتصار حقيقي للاتجاه الشعوبي . فقد لعبت الشعوبية دوراً كبيراً الى جانب المأمون ، وائتمرت بأخيه ، وكان الصراع بينهما صراعاً بين الاتجاهين العربي والشعوبي .

والصفدي — أبو يعقوب الخريمي — ومهيار الديلمي ، والمتوكلي ، وأبو العتاهية ، وخلف الأحمر ، والحمادون الثلاثة : حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان . . وغيرهم كثير .

وقد نشط هؤلاء في تسفيه كل ما هو عربي ، والاعتزاز بكل ما هو فارسي . هذا أبو نواس يسخر من العرب فيقول :

عاج الشقي على رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد
لادر درك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن عكل ومن يمن
ليس الأعاريب عند الله من أحد

وهذا أبو العتاهية يتهجم على والبة بن الحباب في ادعائه النسب الى العرب فيقول :

انت عنـــدي عـــربي
ليس في ذاك كـلام
عـــــربي عـــــربي
عـــــربي والســلام
شعـــر أجفـــانك قيصوم
وشيـــح وثـــــــــام

وهذا مهيار الديلمي يفخر بنبرة قومية ايرانية واضحة فيقول :

أي مجد يضمنـــا وفخـــار
يوم أنسابنـــا اليه تصـير
ان فقدنا السرير والمنــبر
المنصوب فالتاج حظنا والسرير
حسبنا أن تعلم الملك منــا
والسياسات فيه والتدبـــير

وقد تصدى للرد على الشعوبية الفكرية كل من **الجاحظ** في البيان والتبيين ، **وأبي حيان التوحيدي** في الامتاع والمؤانسة، **وابن قتيبة والأصمعي** .. ودافع أنصار العروبة عن العرب دفاعاً مجيداً ، وكان للهجوم الشعوبي أثره في الانكباب على تاريخ العرب قبل الاسلام وتسجيله وابراز نواحي القوة والايجابية فيه . وربطه بحياة العرب بعد الاسلام .. اي ان الهجوم الشعوبي خلق لدى العرب التماسك ، والنظرة التاريخية المتصلة لحياتهم .

بل ان الهجوم الشعوبي على العرب حدد لديها لاول مرة مفهوم الامة ، فهذا الجاحظ يرد على الفكرة الشعوبية التي تنكر وحدة العرب بدعوى أن أنسابها مختلفة كالقحطانية والعدنانية ، فيرى أن النسب والعنصر ليسا اساساً في تكوين الامة بل ان اللغة والطبـاع والسجايا والبيئة الجغرافية هي المقومات الاساسية للامة.

ولم يقابل العرب الهجوم الشعوبي بموقف عنصري بل زادهم ذلك انفتاحاً على العالم ، وتطلعاً الى ثقافات الأمم الأخرى ، فكان ذلك عامل انتصارهم الأول ، في معركتهم ضد الشعوبية .

ذلك في مجال الثقافة والسياسة .

أما في مجال الدين فقد نشطت حركة الزندقة والمانوية ، والغلاة الذين عرفوا بالخناقين ، وقد اتخذوا الاغتيال وسيلة لتنفيذ أغراضهم وتحقيق أهدافهم . ظهروا في أواخر العهد الاموي ، واستمر نشاطهم المرعب حتى ايام المهدي . ومنهم فرقة تعرف بالمنصورية يقول رئيسها فيما يروي النوبختي في فرق الشيعة أنه كان يأمر أصحابه بخنق كل من خالفهم في الرأي وقتلهم بالاغتيال ويسمي هذا الجهاد الخفي .

وقد اتجه النشاط الديني للشعوبية في اتجاهين : اتجاه صريح ، يدعو للمانوية ، والزردشتية وغيرهما من أديان فارس ، واتجاه خفي يتستر بالاسلام ويخفي وراء المظاهر حقيقة معتقده واعانه ومن هؤلاء الغلاة وغيرهم .

وقد ظل النشاط الشعوبي ينخر الدولة العربية حتى سقطت في يد العلوج الترك والمغول .. وتمزقت ، وانهارت بسقوطها حضارة العرب ، وتراجعت مكانتهم .

* * *

هذا هو ملخص الكتاب . وأرجو أن اكون قد أوفيته حقه من العرض والتلخيص ، بلا اطالة ، فالكتاب يعرض مشكلة اساسية وموضوعاً هاماً ، وهو يحشد مجموعة من المعلومات والحوادث ، قد لايفيد معها التلخيص ، ولا يغني فيها العرض السريع ، ولابد للقارىء الذي يطلب المزيد من أن يعود الى الكتاب نفسه ليتابع مع المؤلف هذه المشكلة خطوة خطوة ، وليسيرمعها حدثاً بعد حدث ، وواقعة بعد واقعة .

على أن لي على الكتاب ملاحظات ، كما أسلفت ورأياً في الموضوع أبسطه بتحفظ .

١ – عرض الدكتور الدوري

— في كتابه القيم — الحركة الشعوبية أشتاتاً وتفاريق ، وحوادث فردية لارابط بينها من تنظيم . ولم يقدمها لنا كحركة واضحة السمات ، متميزة المعالم ، يربط بعضها الى بعض تنظيم محكم ونشاط هادف .

فنحن لم نر بوضوح كاف ، تلك اليد الخفية التي حركت أحداث الشعوبية في كل فترة من فتراتها ، ولم نلمس مايؤكد ان المخطط الشعوبي كان يسير في اتجاه واضح ، ولهدف محدد .

بل لقد خيل الي ، ان نشاط الشعوبية كما يعرضه المؤلف ، ليس الا مواقف فردية ، وردود فعل عفوية لهذا الكاتب وذاك الوزير .. لهذه الفئة وتلك الطائفة .

ولئن صح هذا في بعض الحوادث ، فلن يصح في كل الحوادث . ولا بد ان وراء النشاط الشعوبي في معظم حالاته وأشكاله تنظيما محكماً ، يحرك الاحداث ، ويوجه عناصر العمل .

فأين هذا التنظيم ؟

ومن وراءه ؟

لم يذكر لنا المؤلف شيئاً عن ذلك ، ولم نقع في الكتاب على مايشير اليه ، أو يحدد مواضعه ومراجعه .

والقارىء يستطيع ان يرى هذا النقص اوضح مايكون في بابين من ابواب الكتاب: ١ـ الشعوبية في الحقل الديني . ٢ـ مخطط الشعوبية الفكري. ففي هذين المجالين ، لايجد القارىء أمامه الانماذج من النشاط الشعوبي .. أما التنظيم .. أما اليد التي تحرك هذا النشاط وتسوقه الى نتائجه ، فلا نعثر عليها ، ولايشير المؤلف اليها !

أبو نواس مثلا . . وأبو العتاهية .. ومهيار الديلمي .. وبشار بن برد .. وغيرهم من عناصر الشعوبية المتهمة في مجال الفكر ، نثراً وشعراً ، نجد أمثلة على شعوبيتهم ، وبعضها لاشك فيه . . ولكن من الذي كان يحركهم . . وهل كانوا أدوات في يد تنظيم شعوبي محكم ، أم كانوا مجرد أفراد يدغدغهم شعور بأنهم ينتمون فكريا الى حضارة عريقة أقدم من الحضارة العربية التي لاشك انهم يفاخرون بلغتها ، ويدينون بامجادها ؟

كذلك فأنا في شك من امر ابن المقفع، بالرغم من أنه الذي ترجم كليلة ودمنة ، وغيرها من الكتب الفارسية.. وبالرغم من توافر الأدلة وتكاثفها حوله. **ومصدر الشك في امره**، مايرويه أبو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة عن ابن المقفع . وملخص القصة(١) أن ابن المقفع طلع على جماعة من الناس في عرصة المربد وهو موقف الاشراف ومجتمع الأعيان ، فذهب بهم الى دار أحدهم ، وقعد وقعدوا ودار الحديث ، فسأل ابن المقفع الجمع : اي الأمم أعقل. فظنوا أنه يريد الفرس ، فقالوا : فارس أعقل الامم ، يقصدون مقاربته ، فقال : كلا ، ليس ذلك لها ولافيها . قالوا : فالصين . قال : اصحاب أثاث وصنعة ، لافكر لها ولاروية . قالوا : فالروم ، قال ليس ذلك عندها . قالوا : فالترك ، قال : سباع للهراش . قالوا: فالهند. قال : أصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة. قالوا : فالزنج. قال : بهائم هاملة. فلما ردوا الامر اليه ، قال: العرب وفند ابن المقفع أسباب رأيه في كلام موضوعي ، ومديح.

لا تطمع العرب بأفضل منه ، ولا أبعد .. ومن أراد القصة كلها فدونه هي في مكانها من كتاب أبي حيان . والقصة بمجملها تضع سؤالاً كبيراً حول ابن المقفع ، وحقيقة موقفه ؟

وأني لأحسب ، **أن لو أعدنا النظر فيما نتهم به هؤلاء الكتاب والشعراء ، وتحققنا مما ينسب اليهم ، لكان لنا رأي آخر . ويجب أن لاننسى ، بعد ، أن تراثهم يؤلف جزءاً هاماً من تراثنا العربي ، وليس يعقل – بسهولة وبساطة – أن ندمغ بتهمة الشعوبية كاتباً لمجرد انه ترجم من الفارسية .. ولا شاعراً في بيتين من الشعر قالهما ، ولا نعرف صحة نسبتها اليه أولا ، ولا المناسبة التي قيلت فيها ثانيا .**

---

(١) راجع الامتاع والمؤانسة . الجزء الاول ، أخبار الليلة السادسة من ص ٧٠ الى ٧٣ .

وعلى قدر ما أعلم ، فان الكثير من تاريخنا مدسوس أو منحول أو مكذوب ، ونحن لانستطيع أن نأخذ كل مايقوله المؤرخون — حتى الذين نجلهم ونثق بهم — دون أن نتحقق منه ، ونتثبت.

٢ — تحدث المؤلف عن الحركات الدينية الفارسية ، كالزردشتية والمانوية والخرمية ، وهي الحركات التي مثلت الموقف الشعوبي ، أو الردة الشعوبية ضد الاسلام . وكانت تستهدف في حقيقتها العرب والاسلام معاً ، لان الشعوبيين لم يفرقوا بين العرب كأمة وبين الاسلام كدين ، وكانوا يرونهما وحدة متكاملة ! ولكن المؤلف لم يقدم للقارىء شرحا هامشياً موجزاً لهذه الاديان ، وأفكارها ، وعقائدها ، ليرى القارىء أين هو التناقض بينها وبين الاسلام ، ولماذا يشكل التمسك بها موقفاً شعوبيا ؟

ولو فعل الدكتور الدوري ، لجاء بحثه أوفى بالغرض .

٣ — اتخذ المؤلف في مطلع كتابه موقف الدفاع المطلق عن كل ما يتصل بالحاكم العربي ، وجهد في تبرير سياسته . وهو موقف تحسن مناقشته.

من المؤكد قبل كل شيء أن للحركة الشعوبية أهدافاً معادية للعرب ، وانها عملت على هدم سلطانهم ونسف كيان دولتهم وتمزيقها ، بقطع النظر عن سياسة الحاكم آنذاك ، وسواء أكانت هذه السياسة عادلة في موقفها من الشعوب الاخرى ، أم غير عادلة .

ولكن الصحيح أيضاً أن سياسة الحاكم العربي في العهدين الاموي والعباسي ، بتشددها المفرط ، وتساهلها المفرط ، قد سمحت للنشاط الشعوبي بأن يتقدم ، وأن يسجل المواقف .

على أنه لامراء في أن نشاط الشعوبية أعقد من أن نرده الى سبب واحد أو سببين . ولابد لكي نفهم الشعوبية جيداً من أن ندرس التاريخ العربي بعمق ، وأن نعرف أسباب هذا النشاط في أهداف الشعوبية ، وفي سياسة الحاكم العربي في وقت واحد .. بل في سياسة الفتوحات نفسها ، والاصلاحات المالية والعامة — كاصلاحات عبد الملك بن مروان وما أدت اليه من تقليص نفوذ بعض العناصر الفارسية المتحكمة ، وعلى الأخص منها جعل اللغة العربية تحل محل اللغات الاخرى في الدواوين والمكاتبات الرسمية ، ومسح الأراضي وتسجيلها وضبط ضرائبها ، وصك نقود جديدة عربية وسحب النقود الأخرى القديمة الى غير ذلك من الاصلاحات الاساسية التي قام بها الخليفة الاموي والتي استهدفت تثبيت الكيان العربي في الدولة العربية وضمان ازدهارها وتقدمها ، مما نقم عليه الشعوبيون .

وما أحب أن أنهي هذه الملاحظة ، قبل أن أشير الى نقطة هامة ، **فاذا كانت سياسة بعض حكام بني أمية قد نجم عنها ، ردود الفعل المتطرفة والمشوهة للشعوبية ، فان تساهل بني العباس وضعف سياستهم القومية ، كان أشد خطراً وأبعد أثراً** ، فهو قد أدى الى تعزيز موقف الشعوبية وتقويتها ، وتنشيطها ولا أدل على ذلك من أن العهد العباسي قد غص بأحداثها

صهيل الجواد الابيض

قصص – زكريا تامر

١٠٠٠ – صفحة منشورات

عرض وتحليل : ياسين رفاعية

قصص زكريا تامر تلتقي باحساسك كمقوية أسيانة ، وحزنها يمزق الاعماق من الداخل ويعطيك صورة لقلق العصر ولحيرة الانسان تجاه نفسه والآخرين ولصراعه الداخلي من اجل وجوده ومعنى وجوده .

فسفرت فيه الشعوبية عن وجه العداء للعرب ، وكانت صريحة التآمر ضد كيان الدولة .

* * *

وبعد ، فهذه الملاحظات العابرة لاتنقص على اي حال من أهمية الكتاب ، ولا من قيمة الجهد الذي بذله فيه الدكتور الدوري .. فله الشكر كفاء هذا الجهد .

«وصهيل الجواد الابيض» تمشي ضمن هذه الخطوط ، حتى لتحس ان القصص وحدة كاملة تعبر عن حياتنا تعبيراً صادقاً وتنقد نظم معيشتنا نقداً لامواربة فيه ، ذلك ان قدرة زكريا تامر على الخلق الفني استطاعت ان تبرز لنا صورة مجتمعنا بلا زيف وبصدق حقيقي واستطاعت ان تضع امام اعيننا حقيقتنا التي نحاول ان نتجاهلها مع انها تلاحقنا باستمرار والحاح .

والمحور الذي تدور فيه تلك المجموعة نظرتها الموحدة الى ان كل مشاكل الانسان الصعبة الحل نابعة عن العجز المادي . لقد عزي الفشل الذي صادق ابطاله الى ضيقهم المادي ، فهو سبب فشلهم في الحب وفي العمل وفي السعادة وهو سبب حزنهم وكآبتهم .

وحياتنا بصفة عامة ، قلقة ومزدحمة بالمشاكل التي لاحصر لها ، ذلك لان انساننا العصري يضع نصب عينيه ان كل شيء يمكن الحصول عليه بالمال. وبهذا انعدم العنصر الانساني في علاقاتنا بعضها ببعض وبالتالي اصبحت نظرتنا الى الآخرين على اساس مادي بحت ، ثمنك بقيمة المال الذي تملكه، أو في القيمة الاجتماعية التي تتمتع بها .

ففي قصة « الاغنية الزرقاء الخشنة » كان يبدو فيها ثورة الانسان على تلك القيم المزيفة لأن أميمة التي احبها البطل غدت مومساً والبطل عامل مطرود من عمله .

والقصة بأكملها ثورة حزينة تنطفىء جذوتها ويحل سلام غريب في نفس البطل حين يبيع السكين التي اشتراها كي ينتقم من البشر بعدة كؤوس من الشاي ، لكن هذا السلام ، لم يكن استسلاماً ، بل كان املاً جديداً يشع من اعماقه فيصرخ : هذا المعمل سيهدم باسم الانسان في يوم من الايام .

ولعل قصة « الرجل الزنجي » التي تعطي نموذجاً آخر من الناس توضح أهمية المادة بالنسبة للانسان . فهي صراع بين الجنس والروح . وهي صراع بين الشر والخير .

البطل يشاهد شاباً يتأبط ذراع فتاة فيحس برغبة في النظر اليهما .. ولكن « .. وانساب الى صوت الفتاة ، وكانت المسافة التي تفصلني عنها قصيرة للغاية .. وكانت الفتاة تقول للشاب :

هل لاحظت كيف يتطلع الينا هذا المعتوه . ان منظره مضحك ..

ولطمتني ضحكتان انطلقتا نحوي كمديتين قاسيتين . وفي الحال استحالت بهجتي الى جثة متعفنة وراح الرجل الزنجي ينتحب انتحاباً مفجعاً . »

وقصة « القبو » توضح ذلك الحزن المكبوت في اعماق البطل ، انه يمزق اعماقه من الداخل « رجعت الى قبوي حيث تتعاقب ايامي بلا افراح » . ثم « فامتلكتني خيبة مريرة واحسست بأني اشد المخلوقات بؤساً ..

ومن الملاحظ ان الحزن يسيطر على هذه المجموعة . ومرد ذلك الى حياتنا وواقعنا ، فجيلنا لايكاد يتميز بهوية معينة . وهو أغرب جيل يمر بعصرنا في صورة ممزقة ضاعت ملامحها وتقطعت اوصالها .

ان الكآبة تأكل الابطال في قصص زكريا تامر وخاصة في « صهيل الجواد الابيض » : « كان لك فتاة .. مدينة افراح ولذة . سلبت منك وها أنت الآن سكير شارع مقفر ، طين متراكم . سحابة بلا مطر . وحيد ككلب الاسواق الاجرب .. »

وهكذا يحملنا زكريا تامر عبر عالم ضبابي حزين من: ابتسم ياوجهها المتعب. تلك القصة التي تبرز لنا فيها المشكلة المادية مجسمة عندما يكتشف البطل ان امه اصبحت مومساً لأجل المال حيث يصبح فيها بلا أمل . بلا أهل .. الى رباعيته : رجل من دمشق في مسراته الصغيرة . حيث تكون حياته حلماً كبيراً تغدو احياناً تعسة الى حد مؤلم الى قصة الليل في المدينة « أحن رأسك اذا أردت ان تعيش سعيداً فالرأس المرفوع يشقي حامله . »

ولم يجد بطل « الليل في المدينة » سوى القطة ليجعل منها صديقته ويحكي لها حكاية كآبته . ولكن .. حتى القطة فانها ترى فيه انساناً ضعيفاً ساعة ينهار شاكيا فتقفز وتعض يده . لكنه ينتفض انتفاضة الرجل . ويعود ليصب جام غضبه على العالم كله في تلك المخلوقة الضعيفة : القطة . وما ان تفر حتى يلصق وجهه بالسجادة الخشنة وينتحب بمرارة . وفي قصة « التثاؤب » يصرخ البطل « آه ما أتعس حياتي » ثم « سأموت .. يوم يسقط الثلج » الى قصة : الخبز والكآبة « وانا أنفث دخان سيكارتي حاملا تعاستي وهرم

عيناك قدري

قصص ــ غادة السمان

١٠٠ ــ صفحة منشورات

عرض وتحليل : عبد الله شيتي

بعد ان يأتي القارىء المنصف ، على « عيناك قدري » ، المجموعة القصصية الجديدة للأديبة غادة السمان ، يستشعر ان كل قصة من قصصها ، اشبه ماتكون بعلب مسحورة ساحرة ، تحتوي على « سر » حياتنا الطارفة المعقدة !

الاحاجي كثيرة بين تضاعيف القصص ، لكنها على نفس التماسك والتراص ، في الهيكل ، والبناء ، والمضمون ، مع كثير من « بساطة » الفلسفة ، في سفر الحياة الكبير ، سفر الاحاجي ! والحياة ، القاسم المشترك في قصص غادة

اكبر واغرب أحجية ، من « قدر العيون » الى « ماوراء الحب » !

والحب ليس قدرياً عند ابطال القصص وشخوصها ، انه ارادي تصميمي ، منتزع من يد الطبيعة التي لاتمل الصراع !

و « القدر » هو عقدة كل قصة من قصص الكاتب ، يتعرض في قلبه الحياة على درب

→

اعماقي على وجهي الشاحب .. » ومع ذلك يقفز الشعور الانساني فجأة من اعماق البطل ساعة يلمح ابتسامة عذبة على ثغر فتاة .. فيصرخ :سأكون انساناً طيبــاً لو كانت مدينتي مثلك . الى قصة « النجوم فوق الغابة » التي تحكي حكاية طفل صغير فقد امه ولا يعلم كيف .. ويتساءل دائماً: اين هي .؟ فلا يجد الجواب . الى قصصه الباقية . الصيف.الكنز.النهر ميت.قرعلة للاسفلت المتعب.

لقد جعلنا هذا القاص نعيش خلال قصصه عالما كان غريبــا عنا . الا انه انكشف من خلال

السطور . فاذا هوعالمنا . واذا هو حزننا الكبير. واذا هو مشاكلنا الممزقة واحساساتنا المضطربة . واذا هو خريف حياتنا وصيفها وشتاؤها . ان زكريا تامر من الفنانين القلائل الذين نقلوا الينا حياتنا بزخمها وبزيفها وصدقها . نقلوا الينا : اي مخلوقات نحن اصبحنا ، في عالم كبير لم يعد يؤمن بالقيم الا على اساس مادي بحت وكشف لنا عن خديعتنا لانفسنا . وعن ابتساماتنا المصطنعة حيث يكمن خلفها : الحزن المرعب والكآبة المفجعة .

●

طويلة ، يتداولها ابطال الليل ، والصدى ، والخيبة ، والمجهول !

والناس ، الذين تحركهم الكاتبة ، وتعودهم على الخلق ، هم في عطاءاتهم اقدار تتحرك . تثور . تتمرد . تمارس الرفض على جبهات سلبية متعددة ولكنها مع الواقع في صراع ، ومع منع النفس واحتمال المنع في صراع آخر .. ومع تحقيق مايمكن ، وما لايمكن !

واننا لنرى في قصص المجموعة ، ولا سيما في « لو » و « ماوراء الحب » ، و « في سن والدي » و « القطة » ابطالا قادرين صامدين في وجه العاصفة ، حتى ليخيل اليك انهم براكين مشتعلة ، وانفاس محمومة ، وآفاق ممدودة منبسطة عبر الفضاء الكوني العجيب .

كما تتبدى للناقد الباحث ، قدرة الكاتبة على رسم شخوص القصص ، وتحريكهم وفق الخط البياني او الشاقولي الذي يتبعونه ، لكأنما عز عليها ، ان يرواحوا مكانهم ، بعد هبوب غبار المعركة الحاسمة التي خاضوها ضد اقدارهم ، فانشأت تجبرهم على خوض غمار معركة ضارية ضد نفسها .. تريد أن تنتصر على نفسها !

وما من ريب ، في ان اصالة القصة ، تبدو جلية للعيان ، حين يقدر لها ان تلائم مزاج القارىء ، وتلامس احساسه ، وتستقر في قلبه !

واننا لواجدون ، عدداً غير قليل ، من مثيلات هاته القصص ، بين تضاعيف الكتاب ، اذا نحن وضعناها في « الميزان » ..

وما دمنا في سبيلنا الى تقرير الحقيقة ونصرتها فان انصاف الحقيقة ، والموضوعية ، يقتضي منا الكشف عن ارومة الاسلوب ، والفكرة ، والفن ، وان نذكر في معرض تقييم الاثر الادبي والعمل الفني ، ان عملية قراءة وفهم هذا الأثر ، وذلك العمل ، لاتقل اهمية ومسؤولية ، عن « عملية » صياغته ، وسبكه ، ان لم تزد !

حينئذ ، تسهل عملية « الهضم » ، وما ينفع الناس يمكث في الارض !

لندخل معاً « بيت القصيد » ولنفتح عيون القدر ، نوافذ وسيعة ، نطل منها على رحاب قصص غادة السمان ، فيما اعطت من نتاج حديث ذي جهد ملحوظ .. فماذا نرى ؟

* * *

من تسليطنا الضوء ، على بعض القصص البالغ تعدادها ست عشرة قصة ، متوضعة بين دفتي الكتاب ، نجد في اكثرها نماذج واقعية مأخوذة عن الحياة باسلوب خاص ، لم يعوزه التماسك في كثير من جوانبه واغراضه ، ونجد ان السرد موفق ، وان كان في بعض المواقف والمواقع يصطدم الى حدما ، بـ« فلسفة » الاشياء بحيث تفقد خيوطها في الاذهان ويصعب حلها ، أو ادراكها .

وفي البناء القصصي ، او الهيكل العام لمجريات القصة ، تتوافر طلائع الحبك ، وتتميز طريقة العرض كونها تعتمد جملاً قصيرة ، وافكاراً متلاحقة مضغوطة ، وشحنات عاطفية متدفقة ، ولا تغمط الكاتبة حقا ، حين نلمس انها استطاعت — الى حد بعيد — ان ترصد فنية مدروسة ،

تؤخر الموضوعات التي تطرقها ، وتطرحها كمشكلات اجتماعية وحياتية قائمة ، فيما بيننا على مدى البصر ، وملموسة لمس اليد ، ولكنها لاتخلو من الحيرة والابتكار، في كثيرمن المواقف.

عيناك قدري

هذه القصة نموذج من نماذج انسحاق الروح تحت اقدام المادة ، تتيه بطلتها في زحمة المدينة الكافرة ، والمدينة العجيبة ، المتصلة بالزيف والبراقع ، وتضيع مع احلامها وآلامها وامانيها في زحمة الليل ، والمجهول !

بلاهة .. فوضى .. عدم .. وضياع !

ونقطة « النقد » للوهلة الاولى ، التي ترتكز عليها — ههنا — هي في استعمال غادة لكثير من المفردات والاشتقاقات المتمثلة في « البلاهة » و « التمرد » و « الضياع » و « العدم » و «الانهزامية» امام امواج القدر المتلاطمة في بحران من العذابات النفسية ، والانفعالات المتباينة التي لا حد لها في تداعي الافكار ، عند ابطال عيناك قدري ،

«فتاة وجدت نفسها بين الناس غريبة عنهم وتصورهم غرباء عنها ، استرعى انتباهها شقاء الناس . زيفهم . سعادتهم البلهاء . خداعهم وغشهم خيانات الأزواج . ضلال الحقيقة ، ضياع الحق الخ .. ووسط دوامة هذه الاحاسيس والمتناقضات والاضداد التقته .. انه حبيبها اسرتها عيناه .. عبدتها ، حرقت البخور لاجلها . لاجل حبه استوطنتها افكارها ، احلامها . وجعلت منها حياتها. صنعتها قدراً لها خيل اليها إنه ، لها ، ومعها ولكنها سرعان ما تفيق ، تصطدم بالحقيقة.. بالواقع «بالوهم» .. بخيط رفيع اسمه : القدر !

تتمرد ، حينذاك ، تثور ، تهرب من نفسها تتيه .. تظن انها «قوية» ثم تستيقظ : الساعة لن تدق إلا ثماني دقات . الامواج لن تخرس . الشمس لن تطلع الا من الشرق «وتجد نفسها امام عينيه من جديد . امام قدرها . وهل ثمة «من يستطيع ان يهزم قدره » ؟

ونأخذ على الكاتبة ، فيما نأخذ ، انها تريد ان تنصب من نفسها «محامية» تنتصر «لمخلوقاتها» المعذبين في الارض ، واكاد اقول : المعذبات بالتأكيد — وهي بالمناسبة متحمسة لبنات جنسها منتصرة لهن مهما كان شأنهن ، حتى ولو كن اصفاراً في حساب الأرقام ، وهذا مأخذ موضوعي يدين عدالة الكاتبة ويتهمها بالتحيز المفتعل — ! تتعمد الكاتبة الوقوف الى جانب آثام بطلاتها، وشرورهن ، واخطائهن ، ومتناقضاتهن ، والرجال عندها دائما « دمى » في ايدي النساء.. تلك اذن غريزة المرأة ايا كان شأنها في التصدي لمعالجة واقع المرأة ، والرجل . في الحياة القدرية!

وقد يقال ان لكل قاعدة عند ابطال غادة « شواذ » ، ولكل منهم رأيه ، واسبابه ، وفلسفته ، واهدافه المتشابكة ، ولا يعقل بحال ان يكون هذا امراً كافيا لتبرير الوقائع الشاذة والتي يراد بها رصدمعان جديدة لما يسمى بالتمرد، او الرفض ، او ما شابه !

الاصابع المتمردة

في هذه القصة تلتقط الكاتبة واقعة حية من

وقائع المجتمع المتناقض ، الغريب في المدينة !

وانها لتبدو في تسمية الاشياء باسمائها جريئة مندفعة في حك الصدأ عن المفاهيم المغلوطة للحياة .. والمرأة على حد سواء .

اجمل وصف لجاك « حلاق النساء » ، وبطل القصة الانهزامي قولها : « وتكر الايام والشهور والرؤوس تدور وتدور ، وتمر تحت يديه ، حتى اضحت بالنسبة اليه رأسا واحدا وحشيا » المأخذ في القصة ان ابا جاك الجزار القروي الخشن هو الذي دفعه الى تعلم حلاقة « الكوافير » .. فمن اين واتاه هذا « العـــلم » الفني الجمالي المفاجيء ؟

واذا كانت غادة بارعة في الوصف ، الا انها تنحو به احيانا منحى خياليا ، مغرقا في اللامعقول اقرب ما يكون الى « الشعر المنثور » ..!

ان قصة (الاصابع المتمردة) هي قصة صانع الدمى البشريـــة ، تعيش بين جنبيه قصة حب مهزوم .. جبان . لم يجرؤ على البوح . لم تعرف شجاعة المحبين الى قلبه من سبيل . تمر من تحت يديه عشرات الرؤوس . ومن بينهـــا رأس « سوسن » يخـــاف .. يجبن .. يتقلص .. وسوسن لا علم لها ولا خبر !

وكالقصة الاولى ، من نبع واحد تنهل غادة .. انه نبع الواقع ، كل شيء لا يتبدل ، الواقع .. الواقع .. ما اروعه وما العنه واقساه .. واذ ينهزم جاك امام الواقع ، لكنه في اللحظة التي تتمرد فيها اصابعه على قبضة الباب ليلحق بسوسن يفيق فيه انسان .. الشجاعة وينسدل الستار ..

ما وراء الحب

تحليل القصة موفق ، وانفعالاتهـــا متفاوتة حينا .. متلاحقة احيـــانا . والجديـــد في حوادثها ، ان عنصر الغيرة النسوية ينصب هذه المرة على لوحة زيتية للبطلة نفسها ..!

انها تغار من نفسها .. تخاف .. تعتقد أن البطل الرسام آثر صاحبة اللوحة «المجهولة» من دونها ، وتفقد الثقة بنفسها او السيطرة عليها .. فتهرب !

تحاول ان تتقن الرسم . ان ترسم اللوحة هي لا هو .. يفتك بها سرطان خبيث . ترفض حبيبها . تنكر حبه . تأبى صداقته . تخلص من الدوامة الى انها سترسم لنفسها لوحتها الحقيقية او ستكون مخلصة لبشاعتها !

الموت ؟!..

ومن جديد : تتمرد على الموت .. ينسدل الستار على محاولة ارادية جديدة للاستمرار والبقاء .

القطة

قصة ذات بنيان متماسك . انسانة موظفة في شركة . تحب احد صاحبيها . يخدعها « نادر » . يخونها . يسافر . تنتظره طويلا . يعود معزوجة شقراء غريبة . تشتري باقة ورد تهديهـــا له في المطار بعد ان تعتبره في حكم الميت . وتدفع ربع ليرة في ثقب « الآلة » لتشتري اغنية حب من اسطوانة .. تدور .. وتدور .. باحثة عن ذكريات وتاريـــخ حبيب صار مجهولا ..!!

هذا بعض ما في المجموعة من قصص !



وفي كثير من قصصها « كفتانه لأغني » و « افعى جريح » و « هاربةمن منبع الشمس» و « براري شقائق النعمان » عنفوان النفس ، واباؤها ، وميلها الى الثورة ، فالمحبة ،فالسلام!!

وشخوص الكتاب جميعاً احياء بيننا ،ملتقطون بعدسة الكاتبة الواعية . يعيشون هناك وهناك في البيت . في العمل . في الوظيفة . في الارض . في الجو . في المعركة . في الحرب . في الليل. في النهار. في الحقيقة . في الوهم. وفي دوامة القدر يسترجعون!

اما الخيال فحسبه انه يغفو على زند الوصف الشاعري الموفق في كثير من اغراضه .

وحدة الزمن عند الكاتبة .او السمة الزمنية ليس بذي بال . مادامت تملك زمامه ، فتخضع سنيه وايامه ، وساعاته ، وثوانيه ، ومقدراته لارادة ابطالها . فهم اليوم عمالقة . وغداً اقزام او صعاليك . وبعد غد من اعاظم الناس . وبعد ذلك ليس لهم شأن ولا قرار . لكنهم في الجولة الحاسمة الاخيرة يتفوقون حتى في حالة السقوط ؟

والحوار عند غادة ، ينصب في اكثره ، على تداعي افكار ابطالها « المنولوج الداخلي ».. وقد استطاعت ان تعبر عن واقعية واحداث القصص بروية ومحاكمة . وأوجدت من ــ خلال رأيها ــ حلولاً طبيعية غير مباشرة للمشكلات الاجتماعية والنفسية والقدرية التي هي في صدد معالجتها .

و « خريف » الآخرين عند الكاتبة ، ربيع دائم الاخضلال والظلال .

وأما « النهاية » فاسطورة عشواء لايؤمن بها ابطالها . انهم واقفون ازاء ابواب القدر . يدقونها بعنف . يقرعون الاجراس . يملأون الدنيا نبضاً وحركة وحياة ، ويزرعون الشمس في عتمة الليل .! كما انللكاتبة قدرة على التحليل النفسي . ورصد المواقف العنيفة والجريئة ، بلغة حديثة حية شابة !

ومن الصور الشعرية الكثيرة عند الكاتبة قولها : « سأقف امام هيثم ليرسمني في ضوء القمر . ليبخرني بين اهدابه . ويصعدني نجمةعند الافق . ليبعثني دمعة في موجة وثنية الاهازيج لتمتني قصيدة هوجاء في جبين عاصفة ..!»

وبعد فاننا نرجو لبراعة الكاتبة ان تبلغ اشدها الكامل ، مع المستقبل القريب ، وان تبلغ سبيلها الى التكامل الادبي والفني.

ونسجل عليها اخيراًمأخذ تقارب اجواء القصص ان لم نقل تشابهها في بعض حالات الوصف ، والتحليل ، والسرد ، وفي « الديكور العام » لمسرح اي من قصص الكتاب..

اللوحة – شارع بغداد –

لوحة بقياس ٧٠ × ٦٠ على القماش وبالألوان الزيتيـــة وموضوعهــا منطقة من شارع بغداد مأخوذة من شرفة منزل الفنان ، وتمتــاز اللوحة بالألوان المشرقه المضيئة . وبالتوزيع البــارع الذي يمتاز به الفنان كرشه.

وقد عرضت هذه اللوحة في معرض الخريف لعام ١٩٦١ واقتنتها وزارة الثقافة والارشاد القومي .

الفنان – ميشيل كرشه

ولد الفنان ميشيل كرشه في دمشق عام ١٩٠٠ ودرس الفن في باريز ثم عين مدرساً للرسم في ثانويات دمشق ، واخيراً تفرغ للفن .

ولقد تابع الفنــان كرشه اسلوبه الواقعي دائماً ، وتأثر بالاسلوب الانطباعي الذي يعتمد على انوار والوان الطبيعة الصافيــة ، وترك في ذلك لوحات كثيرة موجودة في المتحف الوطني بدمشق وفي معرض مقتنيات الوزارة .

لقد اشترك الفنان كرشه في اكثر المعارض الرسمية وكان من اوائل الفنــانين الحديثين في سورية .

ثائر محترف

مطاع صفدي

عرض وتحليل : عدنان بن ذريل

من المناحي الجديدة الـتي تزدهر اليوم في واقعنا القصصي العربي ، المنحى الذهني «الاشكالي» الذي يؤثره كثير من الروائيين ، والقصصيين ، سواء عن حس علمي في السرد ، اورغبة في تسقط التحليل ، والوصف ..

وقد لازم الادب الاشكالي ، من حيث المبدأ او التطبيق ايضاً ، الحرص على الايحاء ، والتلقين ، وذلك باصطناع الاساليب المباشرة ، والمعبرة ، وهو اصطناع يحتـاج الى شدة مراس ، وقوة بيـان ، والامثلة على الادب الاشكالي اليوم عديدة ، يحمل كثير منها ملامح عربية أصيلة ، كما أنه يجهد الى أفق جديد ، واصيل في الوجودية ، او التحليل النفسي ، او الفـن القصصي ، والروائي ..

ورواية — ثائر محترف — للاستاذ مطاع صفدي ، مثال أدبي على هذا المنحى الاشـكالي الذهني ، وهي ، من حيث المبدأ ، والتطبيق ، تشعر بالجهد الى تطعيم الادب بالفكر ، والوصول الى جذور التجربة ، والملابسات .. وموضوعها انضواء في ثورة ، وهي تصف ظروف هـذا الانضواء ، وملابساته ، وشخصيـاته ، على الخصوص ابتداء من التجربة ذاتها ، فهي قطاعات زمنية ، وجوانب مبادرات ، وانفعـالات ، وردود فعل ، وتـأملات ، وقد سرد المؤلف خبرها ، على لسان المتكلم تارة ، وتارة أخرى على لسان الغـائب ، وطوراً في شكل حوار ، ولكنها كلهـا باسلوب مباشر ، ومتداخل ، يتسعه المؤلف عن موضوعات المعاناة ، كما تتحرك الذكريات في الانسان اوالارادات ،والمشاعر .

وقد آثر المؤلف طبقـة محترفة للثورة ، أو معنية بها ، فجعل اشخاصها متوسطي الحال ، ومتسكعين ، ومثقفين ، والذين يحتكون ببعض شخصيات غنية ، اومترفة في المجتمع حولهم ، الا ان الطابع العام في الرواية أن كافة هذه الاشخاص اشكاليون ، الفقراء منهم ، او الاغنيـاء ، المتسكعون ، أو أصحاب الاهداف ..

وتضعنا — ثائر محترف — بذلك كلـه ، أمام أحداث ضخمة ، ثورة ، انضواء ، تسكع مغامرة ، مجون ، أو أمام شخصيات اشكاليـة كل حياتها الشذوذ ، والعنف ، والعذاب ، والقلق وهي تمتلىء بمشاهد التشتت ، والضياع ، والحرص

على المبادرة ، وتحقيق الذات ، كما تمتلىء بتأمل المواقف ، والاحداث ، والتعليق عليها ..

لقد استطاع الاستاذ صفدي ، في الحقيقة ان يصور ظروف الانضواء الثوري ، في بيئة عربية مثل لبنان ، تصطرع فيها التيارات المختلفة من شرقية ، وغربية ، وتزخر بمختلف الحيوات من مضيئة ، او مظلمة ، سوية ، اومرضية وقد سجل ذلك كله بأمانة ، وصراحة ، وجرأة ، ومكاشفة ، وفن أيضاً .. ان ذلك يدفعنا الى تسجيل تقديرنا للمؤلف على مبادرته ، وهدفه العلمي ، والفني فيها ..

ولكن لنا ملاحظات على التأليف ، والشخصيات .. فمن حيث التأليف ، رغم هدف الرواية الايحائي ، لاحظنا الحشو ، والتكرار ، والمغالاة في أوصاف الرواية ، وتحليلاتها ؛ فكثير من صفحات الرواية مكرر ، او هو حشو في الوصف ، والتحليل ؛ لا يخدم قضية العمل الروائي ، والذي هو بالفعل تطور بطيء ..

أما الشخصيات فهي اكثر من مأساوية ، علاوة على انها من طبقات مختلفة ، فاسدة ، وكان باستطاعة المؤلف تسقط الاشكال عند أقل من هذه الشخصيات عدداً ، أوأعضالا .. فذلك في نظرنا أقل مأساوية ، ويبعث على التفاؤل والثقة .. ان الجو هنا قاتم حقاً ، ومحموم ، والبيئة فاسدة ، ومعضلة .

حقاً ان كريم ، الثائر المحترف ، وناقل الاسلحة المتسكع ، والمغامر ، يبعث فينا الشفقة ، والقلق ، والعمل على اعادة النظر في قيم المجتمع ومثله ، ولكن لم كل هذه الاحداث ، والاوصاف التي يوردها المؤلف عن كريم ، او مغامراته ، خاصة التسكعية ، والتي لا أراها تخدم قضية الانضواء ؟ ثم هذه الطبقة المحترفة ، وما حو لها من طبقات ثانوية في العمل لم رضيها المؤلف لتأمله وتحليله .. ثم ألم يظل كريم على هامش الثورة ، والاحداث الثورية ، متردداً متنكراً لماضيه ، عاملاً على اعادة النظر .. في حين يلف الضباب والضياع ، والمرارة أيضاً رفاقه ، وصحبه ؛ فتدخل زاره السجن بعد مبادرات ثورية ، وازمات نفسية ، وطول عذابه ، وتنقاد ماورد في تسترها على الفساد ، ويتوارى مهدي ، وينسحب كنعان ، واندريه ، وغيرهم ..

ولامراء ان الرواية تشعر بالميل الاكيد ، رغم جوها القاتم ، الى الايمان والاصلاح ، والتسامي والانضواء ، ولكن الحشو ، والتكرار فيها افسدا عليها كثيراً من صفحاتها ، وتحليلاتها واوصافها .. وعسى ان يتدارك المؤلف ذلك في رواية جديدة ، متمنين له النجاح والتوفيق ..

آرثر رامبو

بقلم : انيه ستاركي

منذ احدى وسبعين سنة توفي شاعر شاب في احدى مستشفيات مارسيليا ، مصاباً بالغنغرينا وقد بترت احدى ساقيه وكانت الثانية على وشك البتر ، فكتب لأخته « إذا اضطررت ذات مرة الى ان تقطعي أجزاء وِزَقاً فلا تسمحي للأطباء بذلك . اذ لو فعلت لاضطررت الى التمرن على اعمال بهلوانية طوال النهار في سبيل ان تكوني شبه موجودة !! » وسرعان ماتوفي الشاعر آرثر رامبو بعد ذلك دون أن يعيش عامه السابع والثلاثين .

كان محياه الصبوح وبالاً عليه ، ومع ذلك فان هذا الغلام الذي انقطع عن نظم الشعر في الواحدة والعشرين من سنه ، أعاد صياغة المفهوم الشعري لعصره ، وترك تأثيراً على الاجيال التي أتت بعده ، كما أن رامبو أتم تكوين القصيدة النثرية ، ان لم نقل انه قد ابتكرها وصب فيها مخزونات لاشعوره « ألقيت الحبال من برج الى برج ، ومددت الزهور من نافذة الى نافذة ، والسلاسل من نجم الى نجمة وها أنا أرقص .. »

ويشاهد اليوم تأثيره في الشعر الحديث بين شعراء مختلفي المشارب ، فقد تأثر به سان جون بيرس رابح جائزة نوبل كما تأثر به شاعر الجيل الغاضب ألان جينسبرغ . وفي مجال النثر نجد أنه قد طبع بطابعه قصاصين يختلفان كل الاختلاف هما هنري ميلر ووليم فولكنر .

ولد آرثر رامبو سنة ١٨٥٤ في بلدة شارلفيل شمالي فرنسا لأب يعمل ضابطاً في الجيش الفرنسي ، ولعله ولد متمرداً منذ نعومة أظفاره ، فحين بلغ الثالثة عشرة سخط على طغيان أمه وجفاف مدينة شارلفيل ، فبلور عقيدته بأن الشاعر يجب ان يكون ثورياً وضد المسيحية ، عرافاً وساحراً ، فالشاعر هو « المكابد الكبير والمجرم الكبير ، والحكيم السامي الذي يصل الى مكانه بهيجان الحواس جميعاً » وحين بلغ السادسة عشرة أقلع نحو باريس مقلاً مرتدياً اسمالاً بالية بوجه ملائكي وموهبة مبدعة ، وسرعان ما وجد النجاح ينتظره في مقاهي باريس الأدبية ، وقد حياه فيكتور هيجو المعمر وقال عنه انه « شكسبير الطفل » . وكانت فيرلين آنذاك في السابعة والعشرين شاعراً مرموقاً سباه حسن وذكاء رامبو فهجر زوجته وطفله وتحدى

سفينة الحمقى

تأليف كاترين آن بورتر

أنتجت المؤلفة هذه القصة بعد صمت دام عشرين عاماً . ففي سنة ١٩٤٢ اشتهرت المؤلفة كأحسن كاتبة للقصة القصيرة في مجموعتيها (ازدهار الخيانة) و(الجواد الشاحب والفارس الشاحب) وحينئذ تحدثت عن رواية اسمها (ليس هناك مرفأ أمين) وتوالت السنون والمؤلفة في شغل شاغل عن روايتها ، بأمور شخصية وعامة ، ولكن يبدو أنها ظلت تعمل بها بين الحين والحين بحذر وشك حتى اشتعل رأسها بالشيب وتجاوزت السبعين من عمرها المديد . وأقل ما يمكن أن يقال عن هذا الكتاب انه أنتاج أدبية امتلأت نضجاً وحيوية فقدمت للعالم رواية ذات أبعاد داخلية لامتناهية وذات أجواء خام تنضح بالمرارة والشقاق والتمزق الذي يسود العالم الحديث .

في سنة ١٩٣١ أقلعت سفينة ألمانية تدعى « فيرا » (الحقيقة) من ميناء فيرا كروز في مكسيكو الى برمرهافن في رحلة تستغرق سبعة وعشرين يوماً ابتداء من أواخر الصيف . وكان المسافرون خليطاً يضم كثيراً من الالمان وستة من

←

بصحبة رامبو مجتمعات فرانسا وانكلترا وبلجيكا، وفي خلال ذلك كتب رامبو « الأشراقات » التي تضم فرحة الطفل بالطبيعة الى هذيان الشباب المسحور بالاستهتار والخدر . انها اشعار تصهر البساطة والغواية والوهم في عمل يشمل مزيجاً من أورفيوس وفرويد وهانس أندرسن .

وفي النهاية تشاجر الصديقان فأطلق فرلين النار على رامبو وأصاب رسغه . ولم يكن شعر رامبو قد أخذ طريقه الى الجمهور ، وبدأ سحر هذه الحياة يخبو في عينيه ، فترك فرلين محكوماً بالسجن لمدة عامين ، والتفت الى تعلم اللغات ودراسة العلوم ، ثم انخرط في الجيش ، وحين وصل الى قبرص عمل بناء ولما عاد الى مرسيليا اشتغل بتفريغ السفن ، ثم فر من الجيش الالماني في باتافيا وصار مهرباً للاسلحة وتاجراً ثم ذهب الى افريقيا وحاول ان يتاجر بالرقيق . وفي سنة ١٨٩١ عاد مريضاً محزوناً الى فرانسا ثم مات .

إن المؤلفة التي تلقي محاضرات في اوكسفورد قد كرست معظم نشاطها لدراسة رامبو . وهذا الكتاب أشمل دراسة بالانكليزية عنه . ويقع الكتاب في خمسمائة صفحة ويستند في هيكله الرئيسي على اتخاذ قصة حيـــاة رامبو كنموذج للملاك المنحرف ، والفنان الخارجي والابن الضال .ومن العجب أن الكتاب الروحانيين يكتبون عنه وكأنه قديس ، والكتاب الثائرين يعالجون شخصيته على أنها أرفع أنموذج للتمرد . وترى المؤلفة أنه في الدرجة الاولى شاعر وانسان مكابد .

الطلاب الكوبيين المسافرين لدراسة الطب وفرقة اسبانية لعزف الموسيقى وجماعات من الامريكان والمكسيكيين ومسافراً سويدياً واحدا . ويبلغ مجموعهم مع عائلاتهم ٨٧٦ شخصاً معظمهم عمال غادروا كوبا بعد فشل موسم السكر فيها .

ومن الطريف أن الكاتبة قامت بأول رحلاتها إلى اوربا في ذلك العام . كما أن من الواضح أن العنوان (سفينة الحمقى) استعارة رمزت بها المؤلفة إلى العالم الذي يسير نحو الأبدية محملاً بالناس . والرواية بأكملها دراسة في الخيبة، التي لايخفف من وقعها على النفس أمر من الأمور . فليست هي الخيبة التي تنتج عن اندفاع الشباب وكآبته حين يهمس اليافع بينه وبين نفسه : « العالم قبيح — لكنني ما أزال شاباً. » وليست هي الخيبة التي تدب إلى النفس مع الجسد الذي يلازم الشيخوخة ، حيث يتمتم العجوز « العالم جميل — لكنني هرمت. » إن الرواية تحمل مرارة اليأس مقطرة مصفاةمن جميع العوامل الذاتية ، وهي في الوقت نفسه تخلو من الغرور الذي يملأ نفس الكاتب حين يبتغي هجاء العالم ويقول في دخيلة نفسه « العالم مثير للاشمئزاز لكنني انسان ماهر » وفي الحقيقة فان الكتاب يخلو من الفضول الشخصي ، والرأفة التي تلازم عمر امرأة شغلت نفسها عشرين عاماً برسم شخصياتها وتتبع حوادثها ، فجاء بيانها واضحاً وتصويرها موضوعياً وحكمها بعيداً عن العاطفة : العالم مكان الحماقة والحمقى . ففي عام ١٩٣١ كانت الحماقة المتحكمة في العالم هي بزوغ فجر القومية الالمانية بشكلها العدواني . أما الحمقى فهم المتفرجون الذين ظنوا أن الحادث ليس إلا مجرد هوس . وهذه النظرة إلى الأحداث نموذج عن طريقة بورتر في رسم سفينتها. أما المسافرون فقد لعبوا أدوارهم التي رسمتها لهم المؤلفة بحذق بالغ .

في البداية يظهر المسافرون متفاوتين في طباعهم: بعضهم دنيء (الضابط البروسي) وبعضهم يحب المشاجرة ، أو متدين أو خيالي أو مريض كالهرجراف الذي يوحي بعدم الاحترام . ثم توضح الحوادث ذات التفاصيل التهكمية خلال الرحلة بأن الجميع يتشابهون تشابهاً يستدر الشفقة ! إنهم بشر ، وهذا يعني لدى الكاتبة أنهم عاطفيون . أي يستحقون الاحتقار .

وهناك درجات لهذا الشرط الانساني، ولكن ليس هناك استثناء . ولنأخذ على سبيل المثال (هوفر يتاغ) وهو رجل أعمال الماني شاب يحب زوجته اليهودية! وقد تزوجها وهو على علم بأن الرأي العام الالماني سوف يستنكر عمله ، لكنه فخور بنفسه لحمله هذا العبء وتحديه التعصب القومي الالماني ، وكان ينظر الى موقفه باعجاب وصبر على هذا الجروح المشرفة لرجل متمرد. ولكن حين اذيع سره تقلص حبه وأصبح مفروضاً عليه. وكذلك ماري تريدول ، مطلقة في الخامسة والاربعين تبدو لبقة طيبة حتى قبيل الرحلة وعندئذ تسكر وتمر بكعب حذاء الرقص على وجوه المسافرين جميعاً بحركة تدل على حرمان جنسي يبلغ حد الجنون . اما هر جلوكن فهو أحدب وديع لايؤذي أحداً ، خطيئته الكبرى انه يأمل من الاخرين ان يعاملوه كرجل ، مع انه يلبس

ربطة عنق ذات ألوان زاهية ، وقد كتب عليها: أيتها البنات اتبعوني .

ولعل عظمة المؤلفة تبدو في مقدرتهـــا على اظهار الاشرار والاخيار يلتقون في نقطة ضعف واحدة . فالـكابتن تيل يحلم بأن يقدر ذات يوم على اعدام الطبقة الثالثة بأجمعها خدمة للنظام النازي لكنه لايستطيع أن يخوض مشاجرة في غـــرفة الطعام ، على حين أن طلاب الطب الكوبيين قرروا ان يخلقوا مشاجرة . ومع ذلك فلايدهش أحد من تصرفاتهم لأنهم «يمثلون آمال أهلهم بهم» .

وهناك شخصيات أخرى اكثر نضجاً وامتلاكا لناصية اعمالها ، فهناك توأمان في السادسة من عمرهما يلقيان بكلب الى البحر لـكي يسمعا صوت المياه حين يقع فيها الـكلب ، وحين يسبح أحدهم وهو يحاول انقاذ الـكلب يقولون عنه احمق ! وتنقلب احدى الحفلات الراقصة الى حفلة ملاكمة وخطف لاحدى الزوجات . وأهمية هذه الامور ليست في نتائج الحوادث وانما في ترتيبها وتنظيمها واحلال الانسجام بينها والوصول الى ذروة الانفعال والمعنى في آن واحد . وحين تصل السفينة الى الميناء ينزل المسافرون الى اليابسة دون ان يبدو عليهم انهم أسوأ أو أحمق من غيرهم ، وسرعان مايحل محلهم مسافرون آخرون وتبحر السفينة من جديد .

إن مغزى القصة واضح ، ولعـله أهم مافي ملحمة السيدة بورتر : الحـــزن يخيم على جميع المسافرين في رحلة هذا العالم ، ويقود أعمـالهم تحالف وثيق بين الجهل والشر . ولعلنا من أجل هذه الكآبة الابدية يمكن ان ننتقد فن الـكاتبة ومقاصدها ، فقليل من التفاؤل يقنعنا بأن الامور ليست دائماً على مثل هذا المستوى السيء من الانحطاط ، كما أن الأشـكال الساخرة التي صورت بها المؤلفة الثلاثين عاماً التي مضت ، ليست من الرسوخ في هذا العالم بحيث انها سوف تثبت الى الابد ، إذ لابد من علاج يشفي هذه الحماقات وان كانت المؤلفة بارعة أشد البراعة في اثارة الظلام في عز الظهيرة . وهي تقـدم الحوادث بشكل قصصي مبـاشر ، وأسلوبها في ذلك هو غياب الاسلوب فلا تتكلف ولا تتعمل ولا تفتعل بل تكتب نثراً مرناً حراً جميلا ودقيقاً وحساساً ، لتعرض به موقفها من الجسد والجنس والعقـل والجنون والروح والعلاقات الاقتصادية ، سواء عن طريق وصف الرقصات الاسبانية الوحشية الحامية أو عن طريق تصور الولع الشديد بين زوجة البروفسور وكلبها الابيض الكبير .

وإذا كان لهذه القصة فكرة أساسية فيمكن تلخيصها بأنها عجز هؤلاء الناس عن توسيع آفاقهم العقلية والاخلاقية عن طريق الفهم والنخوة والحنان نحو النـــاس الذين يعيشون معهم . كذلك تركز الـكاتبة روايتها حول النقص في مخيلة الناس وحول فسادهم وفجورهم الواضحين ؛ وكل تقدم نحو الفهم والنضج العاطفي يحتاج الى زمن طويل . وقـد أوضحت الـكاتبة هذا باتخاذها فكرة «اللاسامية» رمزاً يمثل كل الخلافات البشرية السخيفة مما يقنعنا بأن هذا العالم هو حقاً عالم مجانين .

●

فنون

يقدمها : حسن كمال

وزير الثقافة والارشاد القومي يفتتح مسرح أبي خليل القباني

بالنيابة عن السيد رئيس الجمهورية افتتح الدكتور عبد السلام العجيلي وزير الثقافة والارشاد القومي ، مسرح القباني في التاسعة من مساء يوم الثلاثاء الواقع في ٨/٥/٩٦٢ بحضور عدد من المثقفين والوزراء ، والمسؤولين في الحكومة والعائلات الكريمة .

وقدمت فرقة المسرح القومي في هذه الحفلة مسرحيه الأشباح للكاتب العالمي هنريك ابسن . وقد افتتح السيد وزير الثقافة والارشاد القومي الحفلة الأولى بكلمة اشار فيها الى رسالة وزارة الثقافة والارشاد القومي . وإلى فن المسرح في بلادنا ، قال :

أرحب بكم في هذا الحفل الذي نفتتح به بصورة رسمية مسرحنا الذي يحمل اسم رائد التمثيل في بلدنا : القباني أبي خليل ، الذي كان رائدا أولاً لكل الحركة المسرحية في كل الوطن العربي .

ان وزارة الثقافة والارشاد القومي لتشعر بالفخر ان استطاعت أن تضع بافتتاح هذا المسرح، وتهيئة الفرقة التي ستتقدم اليكم بانتاجها عليه ، وهي واحدة من فرق وزارتنا الخمس ، وبالاستعدادات التي تتخذها لديمومة العمل المسرحي في عاصمة الجمهورية وفي مدنها الكبرى ، ان وزارتنا لتشعر بالفخر اذ تدرك انها بكل

ما ذكرت قد وضعت حجر الأساس لنهضة مسرحية شاملة تريد أن تصيب بها اهدافاً متعددة. فكلنا يعلم أن التمثيل المسرحي كان ولا يزال في مقدمة الفنون التي تدل على النضج الفني في حضارة ما. وفي عصرنا الحاضر أصبح التفوق في التمثيل المسرحي حصيلة ألوان من التفوق في فنون أخرى كالأدب وفن التزيين والاخراج وأعمال الاضاءة. لذا فان تخلف المسرح في مجتمع ما بعد أن انفتحت له آفاق الثقافة والمعرفة من كل جانب لما يدعو الى التساؤل عن مدى قابلية هذا المجتمع للتناغم مع حضارة هذا العصر واتجاهاته الفنية.

ولقد ارادت وزارتنا بعملها الذي تشهدون اليوم احدى بواكيره، أن تتدارك مافات مجتمعنا في هذا الجزء من وطننا العربي من ضعف المسرح أو فقده لعوامل كثيرة تضرب أسبابها الى أجيال التخلف والتبعية والانكماش. وهدف آخر أرادت وزارتنا أن تبلغه بعملها للحركة المسرحية أو لمبادرتها الى رعايتها وحضنها لها بكل امكانياتها. فلا شك في أن في أبناء هذه الجمهورية مواهب كثيرة وميولا شديدة الى العمل المسرحي في كافة نواحيه من تأليف وتمثيل وأعمال فنية قد برهنت على وجودها في جهاد الفرق الخاصة والممثلين الموهوبين الذين عملوا لهذا الفن أمدا طويلا ومشكورا بحماستهم وجهودهم الفردية وما زالوا يعملون، وكان من الممكن لهذه المواهب والميول أن تكون أكثر بروزا لو ان وسطا مسرحيا متكاملا كان تحت تصرفها الا ان فقدان هذا الوسط يجعل مصير تلك المواهب والميول الى العقم والتلاشي ولا سيما ان تفوق المسرح يحتاج الى امكانيات كثيرة يعسر تداركها على فرد او على جماعات محدودة القدرة، فان تقدم وزارة الثقافة والارشاد القومي على التكفل باقامة وسط مسرحي هو مساهمة منها في حضن المواهب الكامنة والميول المتحفزة للانطلاق وفي الحيلولة بينها وبين ان تضيع هدرا.

وثمة هدف ثالث لوزارتنا في جعلها المسرح أحد المعالم الواضحة في طريقها لخدمة الأمة وأبنائها. فاذا كانت المعاهد التي تتولاها وزارة التربية والتعليم من مدارس وكليات وجامعات تقوم على تعليم النشء وتثقيفه فان مهمة وزارة الثقافة والارشاد القومي هي أن تتولى التعليم والتثقيف في النطاق الخارج عن المدرسة. ونحن اذ نعلم مدى مافات على الأجيال المتلاحقة من شعبنا من التعليم المدرسي ندرك أهمية الواجب الملقى على عاتق وزارتنا في تلافي النقص في ثقافة المواطنين العامة، وتحاول بالامكانيات التي تمتلكها أن تسد العوز وتأتي على الحاجة. والمسرح احدى وسائلنا الى هذا. المسرح مدرسة الشعب كما هو مشهور. فليس ترفا ماتبذله في سبيل المسرح من جهد ولا مال بل هو لازم ومجز، وواجب ان تتولاه الدولة بامكانياتها الكافية ووعيها للطريق الذي يجب ان تسلك فيه هذه المدرسة الشعبية من العمل القومي في المستوى الفكري اللائق والاتجاه الأخلاقي الصحيح.

سيداتي وسادتي:

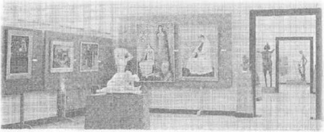
ان مايعرضه مسرحنا في التمثيلية التي ترونها

اليوم وفي تمثيلياته القادمة انما هو انتاج الوزارة بفنانيها واداريها وعمالها ، انتاج جهدهم الدائب المتفاني ، ونحن نأمل ان يستهويكم هذا الانتاج ويحقق لكم المتعة النفسية والفكرية بمستواه الفني الذي سترضون عنه . ولا أكتمكم ان المسرح مسرحنا الناشيء ، سيظل مهما كان المستوى الذي نبلغه به رفيعاً ، بحاجة الى مساهمة منكم ،بالمشاركة في الاهتمام به والاقبال عليه . ذلك أن هذا الفن الرفيع قد ولد عندنا في جو مليء بألوان من المرفهات أقل منه دسماً ولكنها أكثر اغراء. وهو وأن يكن فن الشعب من ناحية المبدأ فانه لن يجد حياة قوية مستمرة اذا لم تحتضنه النخبة مشاركة فيه متجاوبة معه داعية له . لابد لنا أن نخلق جمهوراً مسرحياً لمسرحنا الجديد الذي لم يتكون له جمهور بعد ، وفي هذا اعتمادنا عليكم وأنتم نخبة هذا البلد فكراً وتفهما وامكانيات .

وبعد فاني أختم كلمتي متقدماً بشكري وشكر وزارة الثقافة والارشاد القومي لسيادة رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي الذي تفضل برعاية هذا الاحتفال وبأن أنابني عنه بحضوره ، ولكم أيها السيدات والسادة مرحباً بقدمكم .

وباسم الله أفتتح هذا المسرح .





جناح جديد للفن الحديث في المتحف الوطني

اجنحة جديدة في المتحف الوطني

حدث هام في عالم النشاط الفني السوري خرج الى حيز الوجود في الثلاثين من الشهر المنصرم وكان نتيجة لجهود كبيرة خلال سنوات من العمل والدأب .. انه افتتاح اجنحة المتحف الوطني الجديدة .

- جناح الاثار الشرقية
- جناح الاثار الاسلامية العربية
- جناح الفنون الحديثة
- قسم الحلي الذهبية في جناح الاثار السورية في العصور اليونانية الرومانية واخيرا.. افتتاح قاعة المحاضرات .

ولا شك ان هذه الاجنحة بما ضمته من ايات الفن السوري ستكون عاملا من عوامل نهضتنا الفنية والثقافية المعاصرة والتي تمتد جذورها الى الماضي السحيق يوم حمل اجدادنا نبراس الحضارة والمدنية فنشروها على العالم .

والاجنحة الجديدة في المتحف الوطني بما فيها من آيات الابداع تعتبر ينبوعا لا ينضب له معين بالنسبة للفنانين الذين يجدون فيه ضالتهم المنشودة الا وهي خلق فن محلي يتميز فيه بلدنا عن سائر بلاد العالم خاصة بعد ان شاهدنا فنون الامم

الاخرى التي لكل منها طابعه الخاص المميز . ففي المتحف الوطني بمختلف فروعه الاف من الصور الصادقة الامينة لفننا المحلي القديم تلك الصور التي لودرسها فنانونا دراسة علمية عميقةلكانت بالنسبة لهم نقطة انطلاق لما ينشدون ، نقطة انطلاق مبنية على اسس صحيحة لالبس فيها ولا زيف ومصدر وحي يستلهم منه الفنانون اجمل الصور واعمق الاحساسات وبذلك يتيحون لمجتمعهم ان يكون متجاوباً معهم خاصة بعد رأينا تيارالمدارس الفنية يجتاح بلدنا ويضع الجمهور في واد والفنانين في واد آخر .

اننا بحاجة الى فن نابع من بلدنا من ارضنا من مجتمعنا خاصة ونحن في مرحلة البداية في فنوننا الحديثة التي تتطلب الدراسة والتعمق في اسسها وبالتالي يترتب على الفنان ان يطور هذا الفن حتى يوصله الى الذروة التي سيبلغها عاجلا او اجلا .

معرض الفنان عبد القادر النائب

عبد القادر نائب فنان ذواق في ميدان صور الاشخاص ، عرفناه منذ سنوات من خلال مساهمته في المعارض الرسمية والخاصة ، وكان فيها مثال الفنان الدؤوب المبدع في رسم اخيه الانسان وفق أسلوبه الواقعي المفضل ، وفي معرضه الذي عرض مؤخرا في فندق (أوريان بالاس) تأكيد صادق لما نقول اذ من خلال المواضيع العديدة التي عالجها كانت صور أصدقائه أكثرها استجابة لميل الفنان وأطوعها أداء اذ خرج قسم كبير منها حاملا أعمق التعبير ، محبباً قريباً من نفوس المشاهدين الا ان فناننا الطموح لم يكتف بهذا المجال الذي برزت فيه عبقريته الفنية بل قام بمحاولات تتصف بالجرأة وان لم تأت بالنتائج التي قدرها لها الفنان فهناك محاولات لاتباع اتجاهات اخرى كالانطباعية والتجريدية والتي لم تخرج عن كونها تجارب تتطلب الدأب والاستمرار حتى يقدر لها النجاح وبهذا فقد وضع فناننا جمهوره أمام عدد من التجارب جعله في حيرة من امره في اطلاق حكمه على فن الفنان ويقيني لو أن السيد نائب اقتصر على صور الأشخاص لكان معرضه أعمق أثرا في نفس الجمهور وأبعد مدى في تقدير الناس لفنه واعجابهم به .

معرض الفنان الياس زيات

يعتبر معرض الياس زيات أول معرض له بعد تخرجه من أكاديمية الفنون الجميلة ، وفيه عصر فناننا انتاجه القديم والحديث ، انتاجه قبل الدراسة وبعد الدراسة في بلغاريا وفيما بعدانتهائه من دراسته في القاهرة ، فكان بذلك معرضا ناجحاً مشيراً الى التطور الذي حققه الفنان ومقدار شمول نظرته الفنية بعد أن دخل معترك الحياة . ففي معرضه هذا قام الفنان برسم مجموعة كبيرةمن الرسوم الزيتية استطاع فيها التعبير بقوة ورصانة عن صور الأشخاص ولم يكن انطلاقاً سطحياً في معالجة الصور الشخصية فالصورة عنده تكادتنطق



الثلج في الزبداني

الياس زيات

ما يعتلج في نفوس اصحابها ، أما مناظره فبامكان المشاهد أن يسير بين دروبها وأن يستنشق أريج أزهارها وورودها .

وفي ميدان الرسم المائي هذا الميدان المحفوف بصعوبة التنفيذ استطاع الفنان ابراز باعهالطويل فأتت رسومه المائية جذابة متزنة في بنائها قوية في التعبير .

ولعل هذا الارتياح الذي يشعر به المرء ابان مشاهدة صور الفنان انعكاس لطبيعة الفنان الانسانية وروحهالوديعة .

●

معرض الفنان

هشام زمريق

أقام الفنان معرضه الاول في النادي العربي بدمشق في اوائل مايس وكان معرضا شاملا تضمن عدداً كبيراً من اللوحات عالج الفنان فيها مواضيع شتى ابرزها « الطبيعة الصامتة » التي أجادالفنان فيها اجادة ملحوظة ، كما عالج مواضيع أخرى منها المناظر الطبيعية وصور الاشخاص وفي صور الاشخاص استطاع النفوذ الى قرارة نفوس اصحابها واستخلاص ما يجول فيها من الاحساسات وبذلك فقد اتسمت صوره بالحيوية . وفناننا يتبع المدرسة الواقعية ولكنها واقعية حديثة يحاول الفنان فيها أن تكون له طريقة معينة تمتاز فيها ألوانه بالانسجام ومواضيعه بالاستلهام من الواقع الذي يعيش فيه ، فهو في انتاجه الفني قريب من مجتمعه ويسعى جاهدا للاعراب عما يجول فيه من خواطر وأحاسيس .

وجه



معرض الربيع ١٩٦٢

سارت وزارة الثقافة والارشاد القومي منذ انشائها على اقامة معرضين كبيرين كل عام،معرض الربيع ومعرض الخريف ، ويضم المعرضان جميع الاعمال الفنية من رسم او تصوير او نحت او حفر ، على ان تكون لفنانين سوريين ، ولم يسبق عرضها مطلقاً .

وفي هذا المعرض تتوضح ظاهرتان متميزتان، الاولى ارتفاع المستوى والثانية تقدم النحت ، ويبدو ان اللجنة المكلفة باختيار المعروضات عمدت في هذا المعرض الى اختيار افضل الاعمال المقدمة ، وهكذا قبلت ١١٠ لوحات ورفضت ١٧٠ لوحة لذلك فان الزائر الى المعرض يستطيع ان يأخذ فكرة صحيحة عن مستوى الفن والفنانين في سورية .

اما النحت، فانه ليدعو الى الاعجاب بالجهود الناجحة التي بذلها النحاتون ورده ، صابوني ، رحمه ، انجيله ، عطاس . وقد بشرت الاعمال المعروضة بمستقبل طيب للنحت بعد أن مضى عليه وقت من التخلف .

ولقد دعت الوزارة الناقد الفني اللبناني صلاح ستيتية للاشتراك مع الفنانين في دراسة اعمالهم وكان لزيارته وقع كبير ، فلقد ابدى بصراحة دهشته للنشاط الفني في سورية وقال : ان الفن هنا يخط طريقه بكثير من الثبات والجدية وان الفنانين في سورية يشعرون بمسؤولياتهم الفنية بقوة وقد اثنى في مقابلته التلفزيونية على عدد كبيرمن الفنانين منهم حماد والمدرس وشوري ونوبار .

ان معرض الربيع هو السوق الفنية التي تعبر عن مدى التطور الفني والتسابق في مضمار الانتاج والابداع وسوف نقدم للقراء في العدد المقبل دراسة تفصيلية نقدية عن هذا المعرض وعن العارضين فيه .

معرض الاعلان الاسباني

ظاهرة فنية جديدة اجتاحت بلدنا في السنوات القليلة الماضية انها ظاهرة « معارض الاعلان » التي اتخذت طريقها الى الجمهور في اوربا منذ اوائل القرن العشرين بعد ان ادرك المسؤولون في مختلف الميادين الثقافية والاقتصادية والسياحية...



اعلان لمعرض الفنان غويا

اهمية الاعلان في اجتذاب انتباه الناس بعد ان اصبحت حياة الفرد غاصة بالمشاكل التي تصرفه عن كل شيء الا ما كان بحاجة اليه فجاء الاعلان

موجهاً انظار الفرد الى ما يجول حوله باسلوب لطيف .

وفي الشهر المنصرم دعا المركز الثقافي الاسباني في دمشق الى مشاهدة « معرض الاعلان الاسباني » وفيه تجلت عبقرية الفنان الاسباني بالطرق الجديدة التي عالج فيها الاعلان فجاء هذا الاخير وفيه استجابة للغرض الذي اوجد من اجله وضم صفحة جديدة الى صفحات الفن الاسباني الخالدة لان النماذج التي شاهدناها كانت في الواقع في قسم كبير منها لوحات فنية رائعة تضمنت الدعاية للفن العربي في اسبانيا وللفن المسرحي والسياحة و..... ومن الجدير بالذكر انه كان لهذا النوع من المعارض اثر فعال في نفوس فنانينا الذين وجدوا في هذا المجال مادة جديدة من شأنها ان تؤدي خدمات جديدة للمواطنين وللفن السوري الذي اخذ ينطلق في شتى الميادين ومنها ميدان فن الاعلان .

النشاط الفني في البلاد العربية

العراق

أقامت كلية التحرير في بغداد معرضها الفني السنوي وفيه عرضت طالباتها خلاصة انتاجهن للجمهور والمعرض المذكور تناول عناصر شتى منها الفن التزييني ، واللوحات الفنية والطرايز والخياطة والتدبير المنزلي .

الظاهرة البادرة بالنسبة للفنون التشكيلية في معرض الكلية هي اللجوء الى الآثار من مخلفات الحضارات القديمة والتي كان العراق مسرحاً لها واعتمادها كمصدر استلهمت الطالبات منه لوحاتهن.

كما اعتمدت عليها في ابتكار عناصرها التزيينية وخاصة التطريز وبذلك فقد حاولت الكلية توجيه انظار طلابها الى تراثها القديم الفني الامر الذي يجعل نشاط الفنون المعاصرة امتداداً للنشاطات القديمة . واذا ما نجحت المحاولة تكون العراق قد خلقت لنفسها فناً محلياً له مميزاته الخاصة .

النشاط الفني في اوروبا..وكندا

فرانسا

جمعية اصدقاء متحف اللوفر ، أهدت المتحف اناء خزفياً يونانيا يعود الى القرن



السابع ق . م وذلك بغية اغناء مجموعاته القيمة ، وقد رحب محافظ فرع الآثار اليونانية الاستاذ دوفامبز بالهدية أجل ترحيب وخصها بدراسة تفصيلية أبان فيهاقيمة الهدية الفعلية .

والجمعية المذكورة منذ تأسيسها استهدفت حماية ثروة البلاد الفنية واغنائها وتعريف الناس بها عن طريق الزيارات والمحاضرات الموجهة التي لعبت دوراً هاماً في نشر الثقافة الفنية بين مختلف طبقات الشعب .

وفي سورية يعمل محبو الآثار والفنوندائبين لخلق جمعية مماثلة .

بولونيا

من ابرز التظاهرات الفنية في بولونيا هي تظاهرة « المتحف المتجول » في سيارة اوتوبوس تتنقل في المناطق التي يتعذر وصول سكانها الى العاصمة او المدن البولونية الكبرى حيث الحركات الفنية على أشدها وبذلك يكون المسؤولونقد عملوا على نشرالثقافة الفنية لا في المدن الكبرى فحسب حيث المتاحف والمعارض وانما كذلك في المناطق النائية ، ومن الجدير بالذكر ان هذا المتحف المتنقل يعمل طيلة ايام السنة وليس بظاهرة تقوم لفترة محدودة ، افلا تذكرنا هذه التظاهرة بالباخرة الدانمركية التي تجوب الجزر الدانمركية حاملة متحفا متنقلا بغية نشر الثقافة الفنية بين سائر المواطنين .

ومن بولونيا ايضاً

تتلقى مدينة « بيدغوسي » في الوقت الحاضر من العالم أجمع هدايا سخية من اجل متحفها الذي تقيمه تخليداً للمؤلف الموسيقي الكبير بادريفسكي وهو الاول من نوعه في بولونيا ومتحف بادريفسكي يضم حتى اليوم مجموعة من الصور التي تبين المراحل التي مر بها الفنان وعدداً كبيراً من الهدايا التي يرسلها مواطنوه البولونيون المنتشرين في الولايات المتحدة وفرنسا وامريكا اللاتينية وبريطانيا ، وسيدشن هذا المتحف في الاشهر القادمة من العام الحالي ، ولا شك ان لهذه الالتفاتة من جانب المسؤولين اثراً طيباً في نفوس المواطنين العاملين وتشجيعاً للاجيالالقادمة على العمل والانتاج الخيرين .

كندا

عرض للمرة الاولى معرض فن الاسكيمو في كندا وقد ضم المعرض المذكور عدداً من الصور لعدد من فناني تلك المنطقة القطبية والصور المعروضة تمثل تمثيلا صادقاً جانباً من حياةالانسان هناك والوسائل التي يستعملها في حياته اليومية في صيده ولهوه والحيوانات والطيور التي يقتات بها . وتغلب على المعرض صبغة الفنون الشعبية أكثر من الفنون الاخرى وفيه تتجلى كل عناصر الاصالة والجدة والصدق لانه نابع من صميم حياة منتجيه وواقعهم .

وقد لقي المعرض المذكور نجاحاً منقطع النظير في كندا لما فيه من طريف يعرض لأول مرة .

سورية

● اقيمت في الثالث من الشهر الماضي حفلة تأبين كبرى على مدرج الجامعة السورية بمناسبة الذكرى السابعة لاستشهاد العقيد عدنان المالكي تحدث فيها عدد من الأدباء والكتاب والشعراء.

● قدمت الآنسة ليلى صباغ محاضرة عن الشاعرة نازك الملائكة من خلال ديوانها الشعري.. « قرارة الموجة » وذلك في قاعة الندوة الثقافية النسائية .

● وفي المنتدى الاجتماعي تحدث الدكتور رفيق الصبان عن الشاعر غارسيا لوركا كما قدم بعض النماذج من شعره ، اما الموسيقار صلحي الوادي فقد تحدث عن الاسس العلمية للموسيقى العربية . وختم الندوة الفنان لؤي كيالي فتحدث عن علاقة الفنان بالجمهور .

● وفي منتدى سكينة الادبي القى الشاعر اللبناني قبلان مكرزل بعض قصائده الوجدانيه وقد تحدث قبل ذلك عن تمسك الشعب اللبناني بلغته العربية الاصيلة، اما ظافر الخضراء فقد قدم في الاسبوع التالي محاضرة بعنوان « العرب ومعركة التحويل » .

● وفي المركز الثقافي الاسباني تحدث الدكتور خالد الصوفي عن آثارنا التاريخية في اسبانيا كما عرض بعض الصور الملونة لهذه الآثار .

● وحاضر الاستاذ عباس نحاس في نادي « النسر السوري » عن بعض القضايا الطبية وعلاقتها بجسم الانسان .

● وفي أمسية شعرية في جمعية « الوعي العربي » احياها كل من الشاعرين محمد الحريري وسليم الزركلي قدما فيها باقة من شعرهما .

● احيت ندوة الفكر والفن أمسية أدبية التقى فيها كل من الشاعرة الآنسة سحر كيلاني والقاص اسكندر لوقا والآنسة آرليت عنحوري حيث القت قصائد باللغة الفرنسية عن بودلير والسيد محمد الطرابيشي حيث القى القصائد نفسها باللغة العربية وسبق ذلك تقديم عن حياة بودلير للدكتور ابراهيم كيلاني وشعر بودلير للاستاذ سعد صائب وتعقيب للشاعرة السيدة كوليت سهيل خوري .

● قدم الاديب وليد مدفعي محاضرة في منتدى سكينة الادبي اختتم بها المنتدى موسمه الثقافي. كان عنوان المحاضرة « كيف نخاطب الناس » .

كتب جديدة

● « الحب والوحل » عنوان الرواية الجديدة التي صدرت للاديبة الشابة الدكتورة انعام مسالمة .. سبق ان نالت الدكتورة مسالمة جائزة المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب في احدى قصصها القصيرة .. الرواية صدرت عن دار الثقافة بدمشق .

● « الحب واللاهوت » عنوان الديوان الشعري الجديد الذي صدر للشاعر موريس قبق عن دار الثقافة بدمشق .

● ولنصري الجوزي صدرت مسرحية بعنوان « عيد الجلاء » .

● اما دار ابن زيدون بدمشق فقد صدر عنها دراسة نقدية وتحليلية لآثار الشاعر الكبير بدوي الجبل بعنوان ــ بدوي الجبل .. حياته وشعره ــ قدم الدراسة محمد الخطيب .

● صدر ديوان الشاعر الكبير محمد البزم وقد اشرف على طبعه وتقديمه عدنان مردم بك وسليم الزركلي .

● اما الشاعر محمد كنا كري فقد قــدم للمكتبة ديوانه الشعري الثـاني وهو بعنوان .. عتابنا غزل .. صدر عن دار الثقافة بدمشق .

● وقدمت دار الثقافة ايضا كتابين من ترجمــة سعــد صائب الاول ، بعنوان « هيولي » لشاعر هولندا اختبرغ ، والثــاني بعنوان « شعراء فنلنديون » .

● صدر للشاعر محمد منلا غزيل ديوان شعري بعنوان « الله والطاغوت » .

● صــدر للدكتور علي الناصر ملحمة شعرية بعنوان « الدموع » .

● وللشاعر حنا الطيار صــدر ديوانه الشعري « عيناك ليل » عن دار الثقافة الدمشقية .

المراكز الثقافية

دمشق

● قدم الفنان فاتح المدرس ندوة فنية حاضر فيها عن الفن الحديث ، كما قدم مدير الفنون التشكيلية عفيف بهنسي ندوة بعنوان ازمة الفن الحديث .

● الاخوة كرامازوف . محاضرة تمثيلية قدمها الدكتور رفيق الصبان .

أما الدكتور ابراهيم الكيلاني فقد حاضر بدعوة من جمعية الأدباء عن « فن الخطابة » .

● واشترك في ندوة قصصية ثلاث كتاب القصة هم ياسين رفاعية وسلوى شحادة ووليــد مدفعي وأدار الندوة اسكندر لوقا .

حمص

● احيا المركز أمسية شعرية اشترك فيها محي الدين الدرويش ورضا صافي ونديم عدي .

● ومن الذين اشتركوا في القاء محاضرات ثقافية مختلفة الدكتور محسن الشيشكلي والدكتور صالح الاشتر ، كما قدم في المركز مهرجان بمناسبة ذكرى الشاعر المرحوم عبد السلام عيون السود .

حلب

● « شهداء ٦ ايار وأثرهم القومي والأدبي » عنوان الندوة الفكرية التي احياها سامي الكيالي وماجد صفر وعبد الله يوركي حلاق .

● قدم عيسى فتوح محـاضرة بعنوان « الشعر النسائي الحديث » .

● « دور التأليف والترجمة » عنوان الحديث الذي قدمه سامي الكيالي .

رسالة لبنان

رغم ان موسم الكتاب على وشك ان ينتهي إلا ان الشهر الماضي شهد ولادة دفعة كبيرة من الكتب الادبية بشكل خاص ، ولسوف يشهد الشهر القادم ايضاً دفعة اخرى ، وربما يتأخر موعد التوقف التقليدي هذا العام حتى اوائل آب .. ويلاحظ ، بشكل خاص ، تدفق دواوين الشعر للشباب .. رغم ان الشعر والمسرحية هما اضعف مؤونة للمكاتب .

● ابراهيم سلامة يصدر ديوان شعره الاول قريباً . اسم الديوان « قصائد من خشب » الشاعر جديد وهو يعترف بانه ليس شاعراً قدر ماهو رسام كاريكاتير .. السخرية هي الطابع الغالب . نستطيع ان نستدل ذلك من عناوين القصائد : اوناسيس .. مثلاً ، وغيره .

● « الديوان الجديد » اسم ديوان الشاعر امين نخلة الذي صدر .

● « موت الآخرين » ديوان رياض نجيب الريس ، المنتسب الى المدرسة الجديدة في الشعر ، كتب مقدمته جبرا ابراهيم جبرا بعنوان : « زحزحة الباب العملاق » .

● « الراية المنكسة » اسم ديوان علي الجندي الذي سيصدر بعد ايام .

● « المعبد الغريق » ديوان بدر شاكر السياب الذي اشترته منه دار العلم للملايين .. يقول الشاعر ان ديوانه هذا خال من الثورية بكل معانيها وانه يدور في فكرتين : الموت واليأس .. وقد يكون سبب ذلك ، يقول الشاعر ، الشيخوخة التي يحسها تدب في اوصاله .

● سوق الترجمة ناشطة ايضاً : عيسى الناعوري ترجم للأديب الايطالي ايناتيو سيلوني رائعته المعروفة « فونتامارا » ، ستصدرها دار الطليعة ، والدار نفسها سيصدر الجزء الثاني من رباعية لورانس داريل : بالسازار وترجمته سلمى الخضراء الجيوسي ، وكذلك ستطبع الطبعة الثانية من الكتاب المشهور : كنت طبيبة في اليمن الذي الفته كلودي فايان وترجمه محسن العيني ..وكانت الدار نفسها قد اصدرت في الشهر الماضي آخر كتب برتراندرسل : « السلطان » وترجم لها يوسف الخطيب ، من هولندا ، « روابي افريقيا الخضراء » لهيمنغواي وترجم خيري حماد « ثورة افريقيا » تلاوها بانيكار . وستصدر دار مكتبة الحياة كتاب ايفو اندريش الذي منح جائزة نوبل من اجله « جسر على نهر الدرينا » وربما تكون الترجمة قد اغرت الشعراء فترجم بدر شاكر السياب لفرانكلين كتابي : « الجواد الادهم » لوولتر فيرلي ، و « مولد الحرية الجديدة » لفرجينيا ايفرت .

● من الكتب المؤلفة التي مازالت تحدث ضجة في صحف لبنان كتاب « الخبز مع الكرامة » يوسف عبد الله صايغ وكتاب « الجذور التاريخية للشعوبية » للدكتور عبد العزيز الدوري .

●

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

من الحوية الى الوحدة ـ ومن الحوية الى الفن، مواضيع تشغل المفكرين، وتقسم العالم شيعاً واحزاباً ـ وأخيراً حوية العته والجنون، والاطفال الصغار ..! ـ

يقدمها: فؤاد الشايب

قلت سأحدث قراء الجولة الرابعة، عن الفن الحديث، بلسان كبار المفكرين والباحثين، خصصت بالذكر منهم مؤلف مجلدين ضخمين في (الفن والانسان) رينيه هويغ René Huyghe العضو الجديد في الاكاديمية الفرنسية. ثم بارتقاب العمل، كاد أن يصرفني عن الفن بحث في السياسة الاوروبية الفكرية، شهدته في الشهور الأخيرة

يدور على الالسنة، ويطوف في المحافل، ويتداوله الكتاب والمؤلفون، ويقول بعضهم انه من مواضيع الساعة في اوروبة وفي العالم: **بحث الوحدة الأوروبية، بحث سيادة الحضارة الغربية ..، بحث انشاء اورروبة جديدة موحدة، تقف قوة**

ثالثة بين الاتحادالسوفييتي ،والولايات المتحدة الاميركية . بحث كأنه يريد أن يخلق قومية أوروبية جديدة يصب فيها خلافات الاوروبيين ، وطموحاتهم ، ومطامعهم ،وعنعنات وطنياتهم ، وتقاليد غزواتهم وفتوحاتهم الاستعمارية ويرفع هذه القومية الجديدة على مرجل يغلي بوقود الخطر ، لتنصهر فيه هذه الخلافات ، وتؤلف جوهراً جديداً تنهض به اوروبة . او تموت موتاً محتوماً (١) .

ورأيتني انساق في تيار هذه المطالعات، فأجمع كتبها وصحفها ، واؤلف منها موضوع هـذه الجولة مع تيارات الفكر العـالمي ، ثم تماسكت وعدت الى مراجعي الفنية ، لاتناول موضوعاً لامسته في جولات سابقة . ووعدت بمتابعته أو التفرد به في جولة الشهر هذا .

ولما كان موضوع الفن الجـديد ذا مساس بالحرية ، وكانت الحرية في الفن معضلة عصرية ، لا تقل اضطراباً عن الحرية في السياسة ، فلم استطع أن امانع النفس قبل المرور إلى الفن عن سوق نموذج صغير من اسلوب احـد الكتاب الفرنسيين (لوك لوكسيوفي) في كتابه (ديموستين والوحدة الهلينية) ، حيث أراد المؤلف أن يستثير التاريخ ويشير إلى حياة الخطيب والسياسي اليوناني (ديموستين) ونضاله من اجل وحـدة بلاده ، ضد الغزو المقدوني بقيادة فيليب، وكيف فشلت الدعوة إلى الوحدة، وفيليب على الأبواب .. وماذا كان السبب !

ثمة اسباب لاسبب واحد ، في فشل دعوة ديموستين إلى وحدة بلاده ، ضد الغزو الأجنبي ، كما رآها المؤلف ، ولكنه يقف أمام علة كانت منشأ العلل . وهي الخطـأ في مفهوم الحرية .

الخطأ في مفهوم الحرية لدى اليونان القديمة ، أضاع الحرية نفسها .

ومن المأثور المشهور عن اليونان آنئذ ، بينما فيليب على الأبواب — كما يقال — أن شعبها كان غارقاً في جدل عرف من بعد ، بانه الجدل البيزنطي ، يدور بين فرقاء من الناس اختلفوا حول جنس الملائكة : اذكور أم أناث ؟!

وعلى ان اعود إلى موضوع الوحدة الاوروبية، والحضارة الغربية ، في تيارات الفكر المعاصر ، انتقل على خيط الحرية نفسها ، إلى موضوع الفن الحديث ، حيث الحرية فيه ، فلسفة تبرر غرابة اطواره ، وقد لا تبرر شيئاً . ولكنها الفلسفة التي تظل الريشة والقلم ، والفكر ، والوجدان على نطاق عالمي ، بحيث لايزعم زاعم أنه يمر بتيارات الفكر العالمي الحديث ، دون ان يمر بها اولاً .

ولا يظنني قارئي ، انني في سبيلي إلى دراسة أو الى تحليل فلسفي جاف . وكل ما ابتغيـه ، كالعادة في هذه الجولات ، ان اشرك القارىء في مطالعاتي ، وفي خواطري احياناً على هامش المطالعات . وبالطبع فان لي رأياً اعبر عنه،وليس من الضروري ان يكون رأي الغير (٢)

---

(١) راجع في العدد الثالث . بحث (المعرفة) عن فلسفة شبنغلر في كتابه انحطاط الغرب .

(٢) فسحت (المعرفة) مجالاً واسعاً لايضـاح مبادىء الفن الحديث ، بالوقوف إلى جانبه ، في موضوع منشور في باب الفنون من هذا العدد ، للفنان فاتح المدرس (كيف نفهم بيكاسو) وقد اقترحنا الموضوع عليه كفنان وكاتب .

الفن والحرية

ليس رينيه هويغ ، بالكاتب الذي يقسو على الفن الجديد ، وعلى الأخص التجريدي منه ، لأنه يتذوق الفن ، كأديب وفيلسوف ، تذوقاً ذهنياً ووجدانياً عميقاً ، ولا يبخسه طموحاته ، ولا ينعي عليه انحرافاته . وان يكن من قسوة في حكمه عليه ، فليس اكثر من التأكيد ، بعد الامعان والتحليل ، أن فن اللاشكل ، فن مرحلي في تاريخ تطور الفنون ، ولابد من عودة له محتومة إلى الشكل ، الذي يتميز به فن الرسم ، منذ بدء الخليقة ، ومنذ بدأ الفن بتصور اشكال الآلهة التي لا يراها ، والقوى العليا التي يخشى شرها ، أو يرجو خيرها ، فكانت تعبيراً عن حاجاته ، ومخاوفه ، وآماله ، بل عن وجوده في حدود الزمان والمكان .

ولعل الكاتب الفرنسي المشهور (جول رومان) في بحث له عن نهاية الفن — مجلة نوفيل ليترير — والكاتب (جان ميستلر) في بحث له آخر عنوانه (العالم المكسور) مجلة نوفيل ليترير — اشد قسوة على الفن الحديث ، وأهله ، ومريديه ، ولعل الكاتبين المذكورين ، يمثلان الاتجاه العنيف المعادي لتجريدية الفن ، وحرية الفنان في التعبير عن الطبيعة والحياة ، والانسان ، تعبيراً خارجاً عن اي نظام ، وحدود ، وعرف.

يذهب ميستلر Mistler في بحثه العالم المكسور Le monde cassé — مذهب المتفجع ، يندب العالم المنهار ، مع ضياع مفاهيم الفن ومقاييس الجمال ، وأحكام الطبيعة . ولذلك يذكر حكمة الفيلسوف (ديكارت) يقول فيها : لاشك في أن الله اذا تخلى عن هذا العالم ، فسيرتد فوراً كل شيء فيه إلى عدم والله هو النظام الكامن وراء هذا الكون ، ولا يمكن أن يكون كون بلا نظام . ومهما قيل في التحرر من النظام ، والتقاليد فما لايمكن ان يختلف فيه اثنان **ان فن الرسم منذ عهد الكهوف ، حتى القرن التاسع عشر ، خضع دائماً لقواعد سحرية ، لاهوتية ، سياسية ، رياضية ، خضع لقواعد على كل حال .**

وعندما صور ديكارت ، وسبينوزا ، الاله الخالق ، على غير الصورة التي اطلقها اليونان للاله زوس ، العجوز التقليدي ، صاحب اللحية المهيبة ، **وقالا ان الله هو حارس الحقائق الخالدة ،** وعندما أكد فيثاغوروس أن الله يستعمل الهندسة دائماً لم يكن ديكارت ، وسبينوزا ، وفيثاغوروس ، لينحازوا الى دين معين ، ضد دين آخر بل كانوا يؤكدون ان الفكر في العلم وفي الفن ، يجب ان يخضع لمثل أعلى من النظام والعقل ، كما يخضع هذا العالم بالذات ، وقد استطاع المفكرون والكتاب ، والموسيقيون ، والرسامون ، بقدر مايقتربون من هذه المثل ، خلق عوالم صغيرة رائعة ، على مقاييس العالم الأكبر وموازينه .

ويورد ميستلر مثلاً صغيراً على اختلاط المفاهيم ، وانهيار الحدود والقواعد الفنية : **معرضاً للرسم الحديث اقيم في بوردو عام ١٩٥٦ ، ووضعت فيه الى جانب**

اللوحات الموقعة من قبل المشهورين، لوحات أخرى رسمها اطفال، ومجانين.

وكان الزائرون يمرون أمام اللوحات الفنيـــة، ويتأملون، ويمرون ويهزون رؤوسهم عجبـاً وطرباً، وقد فات التسعة على العشرة منهم، ان يميزوا بين الفن، والخبط، او بين المشاهير والمجانين!

وفي امستردام، في المتحف الرسمي، الذي يضم اشهر لوحات الفن الكلاسيكي، تفتح اروقة جديدة **للوحات (مدرسة القمامة)** — التعبير للـكاتب — فتقف أمام لوحة اسمها (نهر الرين) وليست اللوحة ـ وليس هناك لوحة ـ سوى عشرات من سدادات الفلين، وكبسولات زجاجات البيرة والمياه المعدنية، مبعثرة، أو منضودة بشكل أو بلا شكل يسمى نهراً .. نهر الرين.

ولعل ما أصاب فن الرسم، أصاب الى بعض الحد، فن الانشاء، الذي اصبح على يد المجددين مجموعة حيل إنشائية ومعان لا ارتباط بينها، وفن الموسيقا، الذي طفق ينقل الى الاسماع، ضجة الشارع، وصرير المناشير في الخشب، وطرق المطارق، وهدير المحركات، على ان هـذا كله من صنع الموسيقا الحديثة المعبرة عن الواقـــع. **فشنف سمعك، وأرح اعصابك، واسبح مع احلامك، على نقر الحديد، وصرير المناشير، وصراخ القطط الليلية فوق صفيح سطح حار في ليلة صيف... أو على اصطدام سيارة شحن بسيارة ركاب انسحقت عظام ركابها جميعاً. ثم ونم مطمئناً** ـ الدعوة الى التشنيف دعوتناـ

ويحلل (جول رومان) انحرافات الفن بأنها ناجمة عن استغلال قاعدتين فنيتين بسيطتين، استغلالا فاحشاً: الاول ان الأثر الفني قبل ان يفتش عن شيء يعنيه أو يعبر عنه، يدعو إلى اثارة مشاعر، والى استعمال عدد من الاساليب التكنية، اي ان الفن كله ليس معنى وتعبيراً فحسب، بل ان الفنان يتعـدى ذلك الى بعث شعور ما، والى اثبات قدرته باسلوب انشائي ما.

وثاني القواعد المتعارف عليها ان الفن يعيش على غرابة الاطوار، والطور الغريب، الذي يدخل فيه الفنان وهو ينشيء، معناه التجديد، والابداع، يعني ان الفنان يستحق الانتباه بمقدار مايرفض تكرار نجاحات من سبقوه في مضمار الابداع.

وهاتان القاعدتان، السليمتان مبدئيـاً، قد بلغتا معاً بالفن المتطور، نتائج مخيفة، لأن العمل الفني اصبح مجرد تلاعب تكنيكي، بالألوان والانوار والخطوط التي تسير في منعطفات مفاجئة.

وفي خلاصة الخلاصة التي يريد أن يصل اليها جول رومان في تحليله مغامرات الفن الحديث، ان هذا الفن، قد اساء إعمال المبادىء الفنية، بحيث خرجت به المهارة التكنية من الشكل الى اللاشكل، ومن اثارة شعور ما، الى اثارة زوبعة من المشاعر لايدرك كنهها. والحمد لله أننا لم نبلغ اليوم الذي يعتبر فيه الوقوف امام لوحة لرامبرانت أو الاستماع الى موسيقا كلاسيكية، ذوقاً شاذاً او أمراً شائناً!

بل قد حدث انقلاب نفسي في المدى الطويل مع تجربة الفنان في منافسة الطبيعة في الابداع ، جماعه أن الفنان قد يئس من تقليد الطبيعة ، او التفوق عليها ، فلذ له مع الهزيمة ، ذل الانكسار ، ودعة التمرغ في الحضيض ، وحسبه اعترافاً بهزيمته ، انه قد عدل عن الاصطناع والابداع الى مساعدة الطبيعة في ابراز مفاتنها جمالا وقبحاً معاً ــ خلاصة آراء الكاتب الفرنسي روجيه كايوا في موضوعنا بالذات ــ

ففي بونس ايرس منذ عام ١٩٤٢ اقيم معرض لقطع خشبية ، مهترئة ، منخورة ، مقشورة ، لمختلف الأشكال والاحجام ، وفي **الحالة الطبيعية** التي بلغت بها السهول مقذوفة مع التيارات الصاخبة المنحدرة من قمم جبل الأنديس.

وفي طوكيو ، لم تعرض عرضاً ، بل بيعت بيعاً ، انواع شتى من الحجارة والحصى ، التي تقذف بها الانهار ، وتجري عليها السواقي ، أو تبعثرها وتجرفها الشلالات .

وفي هذين **المعرضين الفنيين** معرضي الجذوع المنخورة ، والأخشاب المجروفة ، او الحصى والحجارة ، تلعب بها انامل الطبيعة لم يكن العارضون ، فلاحين ، ورعاة ، او متنزهين عثروا مصادفة على هذه المواد الطبيعية ، بل هم الفنانون انفسهم الذين التقطوا الحجارة والأخشاب **وقدموها لجمهورهم على انها لوحات الطبيعة الخالدة.**

ولم يكن دورهم في تقديم **الأثر الفني** الا بقدر ما يضم جذع الى جذع ، أو تفرش مجموعة من الحصى ، على بساط من القطن الابيض او الحشيش الأخضر .

وثمة معارض أخرى لا تقل غرابة ، مادامت الغرابة وحدها مقياس الفن ، عن معــارض القذوفات الطبيعية ، وهي التي تقدم في رفوفها ، وفوق منابرها وقواعدها ، اشكالاً غريبة من جمع الفضلات ، والحثالات ، والكناسات ، وكل ما يخطر لك أن ترميه في سلال المهملات ، أو تقذف به لعربات البلديات ، بعــد أن استعمل واستهلك ، وزال طلاؤه ، وانكسر وصدىء ، وتعفن .. و و و ..! من حديد ، وخشب ، وقماش وقش وعتاد، وأي معدن ، صلباو رخو.

... فاذا وقفت أمام صندوق (الخراطيق والكراكيش) باصطلاحنا الشامي ، تتأمل ، وكنت فناناً موهوباً من (مدرسة القمامة)مثلاً، **وخطر لك ان تتحدى التقاليد الفنية البالية** اولا وأن تبدع ثانياً ، وان تظفر بمجموعة من عيون الجمهور المشدوه ، أمام طرائف الفن ، ثالثا ، وان تبرهن للناس العبيد انك حر ،رابعاً، يمكنك أن تجمع مقود دراجة مخربة يمثل الرأس، الى سلة مكسورة الاضلاع ، تمثل الصدر ، الى منفضة ريش ، تمثل الذنب ، الى سيخي شواء لحم يمثلان الساقين،ثم اذا كان الرأس غير معبر تعبيراً صادقاً بعد ، فأضف الى المقود ، نصف ذراع . من ماسورة الفيجة تمثل العنق الطويلة الجميلة معاً وارفع فوقها كرة قدم بالية ، كان رماها ابنك في سقيفة البيت منذ ثلاثة اعوام ، تمثل استدارة الجمجمة ، اذا كانت الجمجمة مستديرة حقاً وماذا يهم ؟! ثم اغرس في الجمجمة ذنب ملعقة مكسورة. تمثل المنقار . ثم تأمل ملياً ، وقل سبحان الله ، بماذا اسمي هذا المخلوق العجيب ؟. وكن طريفاً

في صياغة العنوان ، كما كنت مجدداً في صياغة الشكل كفنان وضع عنوانا يصلح ان يكون لقصيدة او لقصة ، او للوحة هكـذا : (أنا الطاووس) ــ الصورة من انشائنا ، ولكن المواصفات منقولة بتصرف محلي عن مقالات نقد، وأشكال فن !

ويأتي فلاسفــة الأدب ، واساتذة النقد ، يجرون اقلامهم ، وأجراسهم ومراراتهم المعذبة، وراء الغرابات الفنيــة ، يعللون ، ويحللون ، ويفلسفون ، ويقولون مثل هذا الكلام : هناك حاجة يعبر عنها الفنان ، بثقته المطلقة بتلك العناصر البدائية ، على طبيعتها ، منحنيا أمام عبقريتها المظلمة .. » ــ روجيه كايوا ــ ثم تصغي الى مثل هذه المصطلحات الفكرية ، يداولها النقاد ، في سوق الفن : قلق العصر ... روح التمرد ، النزوع إلى الحرية ... الكون والعلم . لكأنك تعيش في دوار منطقيات ميتافيزيكية ، لاتدري كيف تنسجم وتأتلف مع منطق صانعي الصواريخ، وراصدي حركة الكون ، والقـافزين من هذا التراب إلى سديم الكواكب ؟! فهل تم الطلاق الطلاق نهائياً ، بين ضبط العلم ، وشرود الفن في هذا العصر ؟ وما هي الصلة الحضارية المعـاصرة بين ذهنيتي صانـع طاووس ، على ماوصفت ، وصانع صاروخ ؟! ماهي الصلة بـين طموح الانسان إلى قهر الطبيعـة ، واستـلامه المطلق لعناصرها البدائية ، منحنياً أمام (عبقريتهـا المظلمة) ؟! وهل هي سخرية الفن من العلم ، أخيراً ؟!

اسئلة تطاردنا ، بينا نزج انفسنـا في هذا العالم الدهش العجيب ، عالم المغامرات الفنيــة ، ونروح نشقى وراء اقلام الكتـاب ، تنقر في صحف التاريخ ، والعلم ، لتطالع علينـا بكل فلسفة ، تفوق في تجريديتها احيـاناً تجريدية اللوحة ، لتوضح لنا منطق التجديد ، وحوافز المغامرة .

على انني ، في كل ما قرأت من أدب النقـد والتحليل ، لم أجد نظرة أعمق ، وفهما ادق ، وتحليلاً انسانياً اعم ، من نظرة رينيه هويغ للعمل الفني الحديث ، وفهمه الحوافز الاجتماعية والفكرية من وراء مغامراته ، وتحليله للفن الانساني الكوني الشامل ، الـكامن في طموح الفنانين ، سواء شعروا بتأثيرهم ام لم يشعروا . واغلب الظن انهم يقفون على اطلال تقاليد هدموها ، ولا يدرون متى دكت تحت اقدامهم وكيف ؟!

ولعل ابلغ ما في تحليل هويغ للحركات الفنية المعاصرة ، التي هي بالواقع امتداد وتطور لحركات هلت منذ القرن الثـامن عشر في اوروبة ، أن الفن الحديث ثورة على الماضي ، ثورة على اوروبة والثقافة اليونانية الرومانية ، كمصدر للحضـارة الغربية اللاتينية ، ثورة على الأزلية التي أرادت بها الحضارة أن تدمغ بها قدسيتها بقواعـد ، وتقاليد ومفاهيم لاتتبدل ولا تتغير ، ولاتتنازل عن سيادتها .

ان عصرنا ـــ يقول هويغ ـــ هو عصر التحولات العميقة ، وانـكار الماضي ، واجتثاث المسلمات المقررة ، وبهذا فان سمة العصر واضحة لاريب فيها . والثقافة التي هي اشعـــاع روحي للحضارة ، تعمل عملها المستمر بلا وعي ، ولكن باطراد.

ولقد بدأت الثقـافة اتصالاتهـا بالحضارات الأجنبية غير الاوروبية تأخذ عنها ، وتستمرىء ثقافاتها ، ثم غدت مع الزمن تفضلها على الحضارة الاوروبية نفسها ، فاتسع ميدان الاستشراق ، واجمرت المذاهب خارج القارة تفتش عن الكنوز الانسانية المغمورة . وبدا التماس الأول مع الفنون الصينية ، ثم مـع هـلة القرن العشرين ، دخلت اوروبة موجة الفنون الأفريقية الزنجية ، حيث بدأت تلمع اسماء الفنانين امثال ماتيس وفلامينك. وديران ، وبيـكاسو ، الذين كانوا في طليعـة الموكب الذي هز جذوع التقـاليد في ارضهـا فزعزعها . كان الفن يعبر يومئذ عن نزوع إلى خلع الطيلسان الثقيل من ثقافة ومدنية ، ليبـدو الانسان خفيفاً طليقـاً ، جـديداً كأنه مبعوث من مطالع الينابيع البشرية بكل فطرتهـا وعفوية تدفقها .

فالفن الخام ، الذي لاترويق فيه ولاصناعة، وفن اللاشكل ــ التجريدي ــ يعطيانـا ذوق الاشياء غير المصنوعة،المرسلة على طبيعتها ،كذلك فان استعمال المخلفات والبقايا والمهملات ،والقضبان الصدئة ، والفواقع الفارغـة ، وكـبولات الزجاجات وكل مهترىء عفن ، يعبر عن تلك الرغبة الصارمة في العزوف ، والنكوص عن كل تلميع ، وتزييف وتنظيف ، وصقل مما خلفتـه تقاليد الفن الغابرة . ثم ان هذاوذاك من نشوزات فنية ، يتعمدها الفنانون، ليعبروا بها عن انقطاعهم وابتعادهم عن الانسان الاوروبي التقليـدي ، وتعريهم من كل إلزام ، ونهج ، وقيد ، انما يطمحون بها ايضاً عن كسب شيء من العري التام والطهارة المبرأة من فروش الماضي المتراكبة على نفوسهم طبقات كثيفة ، لينطلقوا في مغامرات جديدة ،لاعهد للناس بها ولاصلة تربطها الى الماضي بل ــ يقول هويغ بتعبيره ــ انه الخجل مما كانوا عليه ، والكره لكل وراثي يأتيهم فرضاً ، هذا الخجل وهذا الكره، يضعيان عن نفاد صبر وتعجل في نزع قشرة جلودهم ، للاكتساء بقشرة جديدة بريئة ، مطهرة ، لاتحول دونهم ودون بعثهم لايعرفون شكله !

ويقول هويغ انهذه الروح في الفن تنعكس في السياسة ايضا واننا لنراها في ذاك (الشعور بالذنب) الذي يتلبس اوروبة ، والانسان الاوروبي عامة تجاه الشعوب التي لم تكن اوروبة تفكر ،إلافي قهرها والسيطرة عليها .

وكان على الفن وهو يزدري تقـاليد الفن السائدة أن يهاجر بعيداً ، ويذهب صعداً نحو تلك الينابيع ، حيث كان الفن كما يزعمون ــ في طهارته البكرية غير المدنسة بالعلم ، والنظام ، والذكاء حتى يلتقي بمصادر ثلاثة للفن الصافي : فن القدماء البدائيين لحداثة عمرهم التاريخي ، وفن الاطفال لحداثة عمرهم الفردي ــ حداثة لايستطيعون معها بلوغ المدنية ــ ثم فن المجانين الذين اضاعوا وعيهم بالنفع المفسد، فن اللاعقل ، واللاوعي واللانظام.

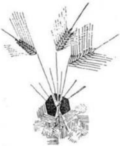
كان العمودان الأساسيان اللذان يرتفع فوقهما هيكل الفن ، وروائعه : العقل ، والواقع . ولم يـكن عمل الفن ــ في الماضي ، سوى ان يعكس الواقع ، ويخضعه من بعد إلى انظمة ذهنيـة ، تمنحه النظام ، والتناسق والانسجام . وليس عمل الفن الحديث اليوم ، سوى الصراع مـع هذين

العمودين وفوقهما الهيكل ، وانه ليطرب طرباً همجياً صارخاً ، وهو يرى الى تلك العمارة وعمدها، تنهار تحت اقدامه العملاقية .

... ومن نقطة الصفر ، ينطلق الفن المعرى من تقاليده الألفية العريقة ، بقفزة جريئة ، في المجهول ، والمجهول أمامه هو هـذا الفراغ الوسيع الذي خلقه الفن. **انما عملية خلق الفراغ هي العمل الرئيسي للفن الحديث**، لان الفراغ ايجابي حقاً ، اذ فيه نطفة الجديد جداً ـ الكلام للكاتب الفرنسي ميشيل سيفور ـ ويعني ذلك ، محو بناء الماضي حتى مستوى التراب ، واجتثاته حتى الجذور ، للالتقاء وجهـا لوجه مع نقطة الصفر . **ومن هنا يصبح الانطلاق ممكناً ، والبناء الجديد نظيفاً**. لقد ظفر الفن الحديث ، بتجربته ، ولكنه في اندفاعه المستمر ، ليشعر دون خوف ، أنه ضاع في متاهات الحرية . الى اين ؟! واين حدود المصير ؟!

بلغت حـدودي

بلغت حدودي ، مع جولة الشهر ، وكنت أظن انني سـافرغ من موضوعي في ختامها وسافتش عن موضوع او مواضيع أخرى لجولة تلي . بالأسف ، انـني لا استطيع ان اغالب التيار الذي خضته ، ولا بـد من الانجراف فيه حتى المرسى الأخير ، لاتفرج ، واتأكد من بعد، هل انا وانت مع الفن الحـديث في (مدرسة القيامة) ، أم في (مدرسة الحرية) . وما هو الخطأ في مفهوم الحرية مع الفن ؟! اما انه لا خطأ؟



فهرس عام